

الدكتور شوقي صيف

تأليف الأديب العجوني



العصر الإسلامي

فاصل



دار المعارف

العصر الإسلامي

تاريخ
الأدب العربي

٢

العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة العشرون



دار المعارف

مجلد
عربی

مجلد

مجلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَذَمِّة

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَحِّثُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتَّب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَحِّثُ فيها الأعلام النابون في الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرَسِّمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يصُودرون عنه في أشعارهم صدور الشَّدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا - على هدى القرآن الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضرباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيِي في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يَخْتَضِعُونَ في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالى يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة برّ وتعاون وإخاء.

والكتاب الثاني يَبَسِّطُ كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائص التي بثّوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية، كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخواارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طابع تميزه، فبينما يميز مثلاً شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهاقهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرّفوا على أمتهم المستشهدين من دموع غِزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرّعيين. وقد اضطربت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العُدري بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُّجْاز طاقة أراجيزهم، وسلکوا فيها الطَّرْدِيَّات، فهي ليست عباسية — كما كان يُظن — إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غَدَت — في بعض جوانبها — كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعلّ عصرًا عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يَدُودون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصومهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعاظ والقُصّاص احتداماً ، استطاعوا في أثناءه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المتبدلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعاني وفشّق الحيل للتعبير عن خفيّاتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهدّ لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبويّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفي المثالب والأمثال والمواعظ ، وفي مسائل العقيدة من قَدَرٍ وغير قَدَرٍ ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعرون من الوعاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقّون بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

الكتاب الأول
في عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) . ومن ثمَّ أُطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل في العقيدة الإسلامية الإيمان بوحدةانية الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصَّمَدُ لم يَلِدْ ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رَبُّ العالمين) رب كل شيء في الكون وخالقه (ليس كمثل شيء) (لا تُدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شيء قدير) . وهو مع قدرته وسلطاناه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل شيء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة في القرآن الكريم المحبة التي يُفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكَماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله لا يحب المفسدين) (والله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبي ، به نوعان من الأرواح خيّر وشرير ، والخيّر هو الملائكة الذين يتزّلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفّونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملائكة الأعلى ، وهم ينشئون غيابة عنهم فيمن ضلّوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

وَيُكْثِرُ الْقُرْآنَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ عَقِيدَةِ الْمَعَادِ؛ فَالنَّاسُ جَمِيعاً مَبْعُوثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) وهو يوم الحساب ، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يدوقون فيها برّداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً) .

ودائماً يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيتته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه في كل ما يأتي ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هي مشيئة الله التي تسيطر على كل ما في الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبا مشيئة الإنسان التي تجعله مسئولا أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يده (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كل نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هي أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبا أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها ، وهي ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار ، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفية وأوقاتها ، وفي القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتلاً إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون) . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه .. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيّن الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهي أن يُردّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثاً عليها في مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلّوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبتة ، يقول تبارك وتعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .. والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُقتسروا وكان بين ذلك قواماً .. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن .. وأمرٌ بالمعروف وإنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصعّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جلّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة .. يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرَنَّ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزُوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثمٌ ولا تجسسوا ولا يَغْتَابَ بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرّمه تحريماً باتّاً آفةُ الخمر وآفةُ القمار (إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبئذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجزى كل إنسان بما قدّمته يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعقله ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شئ فيه وقدّره ، يقول جلّ ذكره : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار) (الشمس والقمر بحسبان) (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحديته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

ففضله على كل ما في الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخرها لفائدته (قل أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء) (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن). وهو إله واحد يدبر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون). وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل في الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة في الكائنات قادر على أن يردّها إليها (كما بدأنا أول خلقت نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحياها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير).

ويُنسجى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم ، فيشبههم بالأنعام التي لا تعقل ، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصم البكم العمى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً). وكثيراً ما نُختم الآيات بمثل (أفلا تتذكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

وودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خلق له من التدبير ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة ، ومن ثم كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسياً في الإسلام ، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً ، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والافتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف .

ويشير القرآن مراراً إلى ما وهب الإنسان من فضيلة العقل ، وأن الله أودع في هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع المخلوقات ، يقول جل شأنه : (الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفُلُكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . فكلُّ ما في الوجود مسخر للناس ولعقولهم كي يستغلوه وكي يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقرن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تردّد فيه الإشادة بالعلم والعلماء في مثل : (وقل رب زدني علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفي كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كي يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : وإعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم في أي عصر من العصور ، بل تعاوناً دائماً تعاوناً مثمرّاً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حمّل الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد في فروعه وما يُطوَى فيه من استنباط للأحكام يقول بجلّ ذكره : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، ويقول للرسول الكريم : (وشاورهم في الأمر) ، وفعلاً كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ويصدر عن رأيهم^(١) . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نصّ في كتاب أو سنة ، روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله

(١) انظر «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» وما بعدها .

لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجهد رأيي لا آلو . قال : فضرب
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول
 الله^(١) . وقد نسما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم
 يكن الخلفاء يفتنون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة^(٢) . ومُصِرت الأمصار
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي تحمل
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكمه في
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفي كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل
 الإنسانى إذ جعله الحَكَمَ في فروع الشريعة وحشّه على استكمال سيطرته على
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثّه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه
 كى يجتهد في مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين
 يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم
 الذهنية في جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصّله الإسلام من
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع في أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصول "أسست على العقل الصحيح وفسحت
 له في التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون في الجاهلية قبائل متنازعة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها
 تعصباً شديداً ، فإذا جتسى أحدهم جناية شركته في مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن

عبد البر (طبع القاهرة) ٥٥/٢

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن ننقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرُّ ثأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزَّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . » ^(١)

وأخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكانهم أسرة واحدة ، تُحمي بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلاً له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يقفديها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثمَّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّت — كما قدمنا — ركناً أساسياً في الدين ، فواجب كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدَّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول جلَّ وعزَّ : (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بريرة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطُلَّ والله بما تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون ولستم بآخذيهِ إلا أن تُغْمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردَّ الغنى بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأُمته ويرابط معها ترابطاً اقتصادياً كما يترابط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثرون عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعتني مالٌ مانفعتني مالُ أبي بكر »^(١) وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهَّز عثمان جيش العسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بغيراً وأتمَّ الألف بخمسين فرساً^(٢) ، وكثرَ مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدَّم عليه في إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله^(٣) . ولم يُعَنَّ الإسلام فقط بتنظيم العلاقات بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عني أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه : سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه : (وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءهم) (الذين يأكلون الرِّبَا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ .. وأحلّ الله البيع وحرم الربا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يتبدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسه فى الترابِ ألا ساء ما يحكمون) . وحرم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محببة إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقّاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم وأن لا يدنّخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيْنَهما فابعثوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرَّحَها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جلَّ وعز : (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلِّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذى شاع فى العصر العباسى ، فإن الإسلام يُجِلُّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى نراها فى المصدر الأول من العصر الإسلامى تشارك فى الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فى حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هى نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوى وهَدَى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرَّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخَّر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نَبَّهه إلى أنها مسخرة له ولنفعته ، ودعا لأن يستخدم فى معرفة قوانينها عقله ويُعْمَل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهىأه حياة روحية وعقلية سامية ، كما هىأه حياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبرِّ والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة فى الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه فى المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يَنْفَضِّلُ سائر المخلوقات فقد خُلِقَ في (أحسن تقويم) ، وُسْوَى وَعُدْلٍ وَرُكْبٍ في أروع صورة ، ووُهِبَ من الخواص الذهنية ما يُحِيلُ به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلّ شأنه : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً) . ويدكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة) (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلّقه ليسودها ، ويخضع كل ما في الوجود لسيطرته .

وقدمضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل في أن يكتب مولاة ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاთبوهم . . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها ، حتى إذا مات رُدَّتْ إليها حريتها . وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كآبائهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصّت آية كريمة على أن (لا إكراه في الدين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام ، بل يُتْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربك لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين) . وحققاً اضطّرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : (وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى :
(وإن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا
فِي السَّلَامِ كافة ولا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) لذلك لا نعجب
إذا كانت تحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ،
ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً ، فقد
أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً
ولا طفلاً ولا امرأة ، وعَهْدُهُ^(١) لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن
المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمَسَّ كَنَائِسُهُمْ ومعاييدهم وأن تُتْرَكَ لهم
الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في
معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور
هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم
أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسَكَنُ كَنَائِسُهُمْ ولا تُهْدَمُ
ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرَهُونَ
على دينهم ولا يضارَ أحد منهم »^(٢) . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي
عُقِدَتْ مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر
إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفَّل للناس حريتهم لا لأتباعه
وحدهم ، بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة
النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)

٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها ،
وقارن بفتح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري (طبع مطبعة الاستقامة
بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

الفصل الثاني

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنْجِماً في ثلاث وعشرين سنة . حتى تتهياً النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي (وقرآنًا فرَقْنَاهُ لتقرأه على الناس على مُكُثٍّ ونزَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) . وكان أول نزوله في شهر رمضان وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربي بليغ (وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله) (نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسُ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذي اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبيين مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . ومضى كثير من كتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولاً على حفظه وأخذوا شفاهاً عن الرسول الأُمِّي ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنَّتِهِ يتحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيلاً .

ونصوصُ القرآن صريحة في أن سورة وآياته جميعاً رُتِّبَتْ بوحى من الله إلى رسوله ، يقول جَبَلٌ شَأْنَهُ : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (إن علينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . فالرسول لم

يُرْفَعُ إِلَى الرَفِيقِ الْأَعْلَى إِلَّا بَعْدَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ وَأَيَاتِهِ وَسُورِهِ تَرْتِيبًا كَامِلًا . وَتَلَقَّاهُ عَنْهُ الصَّحَابَةُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ ، وَكَانَ حَفِظَتْهُ يَسْمَوْنَ بِالْقُرَّاءِ . وَلَمَّا اسْتَحَرَّ الْقَتْلَ بِهِمْ فِي يَوْمِ الْيَاقَةِ لِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ خَشِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يَسْتَحَرَّ بِهِمْ فِي مَوَاطِنٍ أُخْرَى ، فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لَسْتَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ يَتَهَاوَتُونَ فِي الْمَعَارِكِ ، وَإِنِّي أَخَشَى أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِمْ . وَهُمْ حَمَلَةُ الْقُرْآنِ فَيُضَيِّعُ وَيُنْسِي ، فَلَوْ جَمَعْتَهُ ! وَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَاغِبُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْفِكْرَةِ وَرَأَى رَأْيَهُ ، وَحِينَئِذٍ عَهْدٌ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ — أَحَدِ كُتَبَةِ الْوَحْيِ الْأَبْرَارِ — بِجَمْعِهِ ، فَجَمَعَهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللُّخَافِ وَصُدُورِ الْحَفِظَةِ الْمَشْمُودِ لَهُمُ بِالْإِتْقَانِ مِنْ مِثْلِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَطَلْحَةَ وَحذيفةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ وَتَحْرِيًّا فِي الدِّقَّةِ وَمِبَالِغَةً فِي الْحَيْطَةِ أَمْرَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ لَا يَقْبَلُ مِنْ حَافِظِ شَيْءٍ حَتَّى يَشْهَدَ شَاهِدَانِ عَدْلَانِ بِصِحَّتِهِ وَأَنَّهُ كُتِبَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَمَّا جُمِعَ الْمَصْحَفُ حُفِظَ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَمَّا تَوَفَّى وَخَلَفَهُ عُمَرُ انْتَقَلَ الْمَصْحَفُ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ انْتَقَلَ إِلَى حَفْصَةَ ابْنَتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَحَدَّثَ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ أَنْ أَخَذَ الْقُرَّاءُ فِي الْأَمْصَارِ الْبَعِيدَةِ يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ الْأَدَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَصْحَفُ أَبِي بَكْرٍ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ ، فَأَفْرَعَ ذَلِكَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَّانِ الَّذِي كَانَ يَغْزُو فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةٍ وَأَفْرَبِيْجَانَ فَهَرَعَ إِلَى عُثْمَانَ قَائِلًا : إِنْ النَّاسَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ حَتَّى إِنِّي وَاللَّهِ لَأَخْشَى أَنْ يَصِيْبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ . فَهَمَّ عُثْمَانُ الْأَمْرَ ، وَأَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ . وَبَعَثَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالْمَصْحَفِ نَنْسَخُ مِنْهُ نَسْخًا ، ثُمَّ نَرْدُهُ إِلَيْكَ ، فَأَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرُّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ ، وَهُمْ الثَّلَاثَةُ الْأَخِيرُونَ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي كِتَابَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِلسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلسَانِهِمْ ، فَصَدَعُوا بِأَمْرِهِ . وَرَدَّ عُثْمَانُ مَصْحَفَ أَبِي بَكْرٍ إِلَى حَفْصَةَ وَطَابَتْ

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقرئوا الناس على حَرَفِها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقرئون الناس القرآن على حَرَفِ هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف ، وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبوبكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمَتْ تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الخفيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبى نداء ربه . على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونَبَذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خلق السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثم كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبيّر الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحریم . وفي تضاعيف ذلك تُذكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلَّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نزل إليهم) ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرّح بذلك في وضوح .

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسّروا للناس آى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسمّيهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم . ويحدثنا السيوطى فى كتابه « الإتيقان ^(١) » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدوّنّها فى كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سمّاه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وابن عباس ^(٢) ، ويصرّح بأن الرواية عن أبى بكر وعمر وعثمان نزرّة ، أما على فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير . أما أبى فله سند فى الطبرى عن طريق أبى العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن فى أثناءها مدرسة فى الكوفة حَمَلت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنّده الجيّد هو السُدّى الكبير عن مرّة الحمدانى . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعدّ المؤسس الحقيقى لعلم التفسير فهو الذى تهجّه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم فى تفسير بعض الألفاظ ^(٣) . وقد حَمَل ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير ما أُنثِر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة فى تفسير هذا النبع الإلهى الذى لا تنفى كنوزه .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين فى هذا الكتاب .
 (٢) انظر فى ابن عباس ودوره فى التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر .
 (٣) ترجمة عبد الحليم النجار) ص ٨٣ وما بعدها .

أثر القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُنسخ لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خلقه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرع للناس حياتهم وقيمتها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بجماع قلوبهم، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم، فتوجّه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن»، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلّوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق»^(١). وواضح أنه أحسّ في دقة أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصحتهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهّانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهّانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فصّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس: وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جيل ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلًا عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً، فمضوا يجرّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

(١) انظر تفسير الزمخشري في

سورة المدثر. مفدق: كثير المياه.

لم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هباً لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجِّم ذلك إجمالاً . فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمَّع العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية . غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعَمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلون آثاء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيله . يقول عزَّ شأنه : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) ونخشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظ القرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورءوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحَفِّظ أيضاً وتظل على مرِّ العصور جديدة غَضَّة لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حَلَّتْ من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذي حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثانى آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود . وغير ذلك من كلمات الدين الخفيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد . له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلق السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من غير ، ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتميزها وما ينبغي أن يتهيأ لها من صواب الرأى . وإنه ليترقى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرع للناس ما ينبغي أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أسرهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يبتذل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدُّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإنقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامته وخاصته مما هيا لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هيا بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقاً اختطَّ أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . وما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُونَ : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَأَبُوا أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَشْوًىً الْمُتَكَبِّرِينَ) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلَّ وعز لرسوله في سورة الضحى : (والضحى واللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ . فَارْضَ بِمَا يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعدة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعدوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذى العقول برحيقها الصافي وتشقى القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ولا لاحقة فى العربية هو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هدىه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحُسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفّظونه ، فهو معجمهم اللغوى والأدبى الذى ساروا على هُده ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجُمُعَة آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرفقة وسكّسَ الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأُعجب بها الناس وشهداها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن » (١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى فى سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يَسْتَقْنون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقومُ ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالاً له ، بل منه ما يسمّى باسم

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شئونه .
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حكمى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله
 أسوة حسنة) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سنة أبي بكر وعمر ،
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »^(١) . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :
 « اجتمعت أنا والزُّهري ونحن نطلب العلم فكننا نكتب السنن ، قال : وكتبنا
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن
 الصحابة فإنه سنة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم
 أكتب ، فأنجح وضيئت »^(٢) .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله
 تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفيةاتها ،
 كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جميع الزكاة وتوزيعها . وهذان
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيّن
 أحكام الشريعة وصورها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن ، وخاصة حين تجسّم أحكامه
 أو ينسبهم المراد من معنى بعض آياته ، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه لما
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه
 حمّالٌ أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السنة فلا يجدوا منها
 مخرجاً^(٣) .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائي قلنا

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي)

ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .

(٢) نهج البلاغة (١) ١٤٦/٢

٣٣٦/١

(٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوروبا)

يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس ^(١) . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يُرسل في القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومرّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تَقْضِي؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد؟ قال : فيسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالحدث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثم تكون سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رواته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين الحدث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمّى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمّى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي وصحابته ، وهي تُستعمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُوّن في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني
على البخاري .

التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك في بعض كتبه المأثورة ^(١) . ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكاً إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه ^(٢) ، وعن رافع بن حديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج ^(٣) » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له ^(٤) ، وكان يسمى صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة ^(٥) . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا للرجل يمني خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية ^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول في حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أُثِر عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمححه » ^(٧) . وما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته ، وطلق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً ^(٨) . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون في القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

(١) انظر في ذلك مجموعة الوثائق السياسية

في العهد النبوي والخلافة الراشدة لحمد الله

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تقييد العلم للمخطيب البغدادي (طبعة

يوسف المش) ص ٦٥ .

(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٤) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٥) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٦) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٧) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٨) تقييد العلم ص ٧٢ .

الخليفة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية^(١) الزرقاني على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع في العلماء (من حفظها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي (والي المدينة) فيما كتب إليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة أو نحو هذا فاكتبه لي فلما خفت دروس العلم وذهب العلماء ، علمته البخاري في صحيحه ، وأنتجته أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعه . وتوفي عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدون للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري^(٢) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بالفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بالفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت - تُروى غالباً بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

٥٧١/١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥

وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٢/١ والمعارف

لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١٠/١ .

(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب

للسمعاني ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نص عليه العلماء بأنه روى بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوفى جوامع الكلم ،
 وحققاً ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسّر بالتوفيق » ^(١) ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قتل عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأَنْصار :
 « أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع ، وتكثرُون عند الفزع » وقوله
 « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ،
 وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرمًا » ،
 وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلي وأقربكم مني مجالس
 يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يَأْلَفون ويؤْلَفون .
 وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتَّقِصُّون » ،
 وقوله « لا تحزن يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملك تاجر صدوق » وقوله :
 « رَحِمَ الله عبداً قال خيراً فغمَّ أو سكت فسلم » وقوله : « إن الله يرضى لكم
 ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا
 بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُنْصَحُوا من ولّاه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ
 وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدم : مالى مالى ، وإنما لك من
 مالك ما أكلت فأفئيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت » وقوله : « إن قوما
 ركبوا سفينة في البحر فاقْتَسَمُوا فصار لكل رجل موضع ، فنقَر رجل موضعه
 بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا
 على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصَّنوا أموالكم بالزكاة
 وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان
 حقا على الله أن يحرم لحمه على النار » وقوله : « أوصاني ربى بتسع : أوصاني
 بالإخلاص في السرِّ والعَلانية ، وبالعدل في الرِّضا والغضب ، وبالْقَصْد في الغنى
 والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطى من حرمني ، وأصِل من قطعني ،
 وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عيبراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله » . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تُعدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) :

يا خيل الله اركبي - مات حتف أنفه ^(٢) - لا تتطح فيه عثران - الآن حمى الوطيس ^(٣) - كل الصيّد في جوف القرأ ^(٤) - هُدنة على دخن وجماعة على أقداء ^(٥) - لا يُلْسَع المؤمن من جُحُر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ^(٦) - إياكم وخضراء الدمن ^(٧) - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ^(٨) .

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص ، وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسون ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحققاً أن كثرة رُويت بالمعنى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي أكثر ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

-
- (١) انظر البيان والتبيين ١٥/٢ . وراجع
كتب الأمثال .
(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .
(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلاً في اشتداد الحرب .
(٤) القرأ : حمار الوحش . يضرب مثلاً في نفاسة الشيء أو الشخص .
(٥) دخن : حقد .
(٦) المنبت : من أسرع بناتته حتى هلك فلم يقض ما يبغي من حاجة أو من سفر . والظهر : الناقة التي يركبها .
(٧) الدمن : البحر المتقلب . يضرب مثلاً للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت سيء .
(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذى أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمبيراً منصيام فى أمستقر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء فى غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا فى السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً فى تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب فى أن المسلمين أشد الأُمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف فى مثل طبقات ابن سعد وأُسْدُ الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذى فتَحَ باب الكتابة التاريخية وهيباً لظهور كتب الطبقات فى كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته فى علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرت إلى حَسْمِ السيف للذبياد عنها ، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحسَّنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواها ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثَّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنشِدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فَعَلَسَتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثير من ينظمون في هذا العصر لأمع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديهِ الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَةُ لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخسروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم يتزل الوحي في تحریم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأتاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه ^(١) . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحي لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . وإذا فأنصرفهم عن الشعر - إن صح - إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأتاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردُّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذاثنين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته عاى الوفود كان كل وفد يتقدم معه خطباء وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم وينشد شعراؤهم ويرد عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه ^(٢) .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلَّت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤

وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واضمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير^(١) . وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفي ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) . ووضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشبّطون عن دعوته ، فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً »^(٢) أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعجّب بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة »^(٣) ، وكان يحضّ حسان بن ثابت وغيره على نظمهم وشيئهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قدّم عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه برّده^(٤) .

(٣) العمدة ٩/١ .

(٤) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/١٤٢ وما بعدها .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام

(طبع دار المعارف) ص ٢٢ .

(٢) العمدة لابن رشيقي (الطبعة الأولى) ١٢/١ .

والحق أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام^(١) . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم^(٢) ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد^(٣) . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً^(٤) ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »^(٥) ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٦) .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُسَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الخفيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبير بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء^(٧) . واتبع عثمان سنة عمر في التشديد على من يستسلمون المسلمين باللسنة حداد ، وقصته مع ضبابي بن الحارث البُرْجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقدعاً أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات^(٨) .

٢٧٠/٥ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٢/٢ .

(٥) العدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة

ضبابي أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة

٢٣٧/٣ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للمبرد (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) العدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة

وكتاب عثمان إلى علي حين حوَّص ، وانظر ابن

سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوروبا) ج ١ ق ٢

ص ٩٥ - ٩٦ والفائق للزحشرى ٢٥٧/١ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ،

٢٨٨/١٠ والمقد الفرید (طبعة لجنة التأليف)

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حسَّلت من عقْد الألسنة وأنطلقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرَف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

٢

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمَّ كنَّا نخرج دُرَيْدَ بن الصَّمَّة والأعشى وأمية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النهشلي وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين ونظمهم في سلْكِ الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادثت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلديتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجانبيين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية — كما قدمنا — تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسَبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نُبَيْه ومساfer اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزُبَيْرِ وضرار بن الخطاب الفِهْرِي وأبي عَزَّة الحمحي وهُبَيْرَة بن أبي وهب المخزومي ، وقد أخذوا يصدّون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونّه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال لأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرّني به مِقْنُولٌ بين بُصْرَى وصنعاء»^(١) وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق — كما يقول ابن سلام — كان يَحْمِلُ كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه^(٢) ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبي سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا غيره شعراً ، ولأنّ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم»^(٣) . على أن ابن سلام نفسه يثبت لأبي سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر^(٤) ، وقد

(١) أغاني ١٣٧/٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) ابن سلام ص ٨ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزبَعْرَى قصيدته التي قالها في نفس اليوم^(١) ، والتي يقول فيها :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدِ شَهِدُوا ضَجَرَ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلُ^(٢)
حِينَ أَلَقْتُ بِقُبَاءِ بَرْكَهَا وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ^(٣)
فَقَبِلْنَا النُّصْفَ مِنْ سَادَتِهِمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاعْتَدَلِ^(٤)

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّةَ ميمية يحرض فيها بني كنانة^(٥) ، وقال عن هبيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذي يقول في يوم أحد^(٦) :

قَدْ نَا كِنَانَةً مِنْ أَكْنَافِ ذِي يَمَنٍ عَرَضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا^(٧)
قَالَتْ كِنَانَةٌ : أَنَّنِي تَدْهَبُونَ بَنَا قُلْنَا : النَّخِيلَ ، فَأُمُوها وَمَا فِيهَا^(٨)

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث^(٩) :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
فَلَمَّا أَبَى وَالِدُهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ أَخِيرُكُمْ الْفِدَاءُ

-
- (١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) أشياخه بيدر : من قتلوا بها من مشركي قريش . الأسل : الرماح .
(٣) قباء : موضع بضواحي المدينة . أَلَقْتُ الحرب بركها : حمى وطيسها . استحَرَّ القتل : اشتد وكثر .
(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتل بدر .
(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .
(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
(٧) الأكفاف : النواحي . ذريمن : موضع قريب من مكة . يزجي : يسوق ويدفع .
(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرة فيها . أموها : قصدوها .
(٩) أغاني ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحدٍ في كلمة :

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسَطُهُ	أحايِشُ منهم حاسِرٌ ومَقْنَعٌ ^(١)
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ	ثلاثُ مئينٍ إن كثرنا وأربع ^(٢)
فراحوا سراعاً مُوجِفِينَ كأنهم	جَهَامٌ هَرَّاقَتْ ماءهُ الرِّيحُ مُقْلِعٌ ^(٣)
ورُخْنَا وأُخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّا	أَسودُ على لَحْمٍ بَيْشَةَ ظُلْعٍ ^(٤)

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يُرْعِيلٍ بَغْضُهُ	بعضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُخْرِقِ ^(٥)
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةٌ تُسَلُّ سِيوفُهَا	بين المذاذِ وبين جِرْعِ الخَنْدَقِ ^(٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْنِ إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله^(٧) :

نجالدُ النَّاسَ عن عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُم	فينا النبيُّ وفينا تنزلُ السُّورُ ^(٨)
وقد علمتم بأننا ليس غالبنا	حَيَّ من الناسِ إن عَزَوْا وإن كَثُرُوا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضلكم	على البرِّيَّةِ فَضْلاً ماله غَيْرُ ^(٩)
فثَبَّتَ اللهُ ما آتاك من حَسَنِ	تشببت موسى ونَصْرًا كالذي نُصِرُوا ^(١٠)

النارقى القصب . الأباء : أجمة القصب .
يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاذ :

موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن فاحية ، يريد أنهم

لا يبالون من يضر بون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحايِش قريش : حلف منهم تحالفوا
عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذي لا بيضة
له عكس المقنع .

(٢) النصية : الخيار والأشراف .

(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب
أفرغ مائه .

(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر .

ظلم : من الظلم وهو العرج . يكنى بذلك عن سيرهم
البطيء المظلمن .

(٥) يرعيل : يمزق . الممعة : صوت لهب

وفي الأغاني أن حسناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعبرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»^(١). ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذى نفوس القرشيين المكثين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعيراسادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والظعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مبيرة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الخفيف.

وكان يَشْرِكُ شعراء قريش في التآليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار^(٢) وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف^(٣)، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار^(٤). غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلالهم عن المدينة، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلالهم عن الجزيرة.

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها.

(١) أغاني ١٣٨/٤.

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩.

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت ، وراثؤه لقتلى بدر مشهور^(١) ومثل الأسود بن يعفر الذي أشاد بانتصارها في يوم أحد^(٢) ، وقد ماتا في أثناء هذا الصراع . وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التي لما تدخل في الإسلام . وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهديين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر^(٣) :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السُّيُوفَ^(٤)
نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَّاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا^(٥)
فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفًا^(٦)
فَنَنْتَزِعَ الْعُرُوشَ بَبْطُنٍ وَجْجٌ وَنَتْرِكَ دَارِكُمْ مَنَا خُلُوفًا^(٧)
وَنُرْدِي اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَوَدًّا وَنَسْلُبَهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُوفًا^(٨)

وَتَفْتَحُ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهَجْرَةِ، وَلَكِنْ تَظَلُّ لِلصَّرَاحِ بَقِيَّةً فِي شِعْرَاءِ هَذَيْنِ، عَلَى نَحْوِ مَا عَثَلَهُمْ أَبُو خِرَاشٍ الْهَذَلِيُّ فِي بَكَائِهِ لِدُبَيْسَةِ سَادَنِ الْعُزَّى حِينَ قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ^(٩). وَتَظَلُّ بَقِيَّةً أُخْرَى فِي ثَقِيفٍ وَمَعَارِكِهَا مَعَ الرَّسُولِ فِي حُسَيْنٍ. عَلَى أَنَّهُ بِمَجْرَدِ أَنْ دَخَلَتْ مَكَّةَ فِي الْإِسْلَامِ أُدْمِجَتْ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا فِيهِ، وَأُخِذَتْ وَفُودُهَا تَفْدَى عَلَى الرَّسُولِ مَعْلَنَةً اعْتِنَاقِهَا الدِّينَ الْحَنِيفَ. وَفِي هَذِهِ الْأَتْنَاءِ نَجَدَ كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ شِعْرَاءُ قَرِيشٍ يَفْزَعُونَ إِلَى سَاحَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ

-
- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١٠ .
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) ابن سلام ص ١٨٤ .
(٤) الوتر : الثَّار .
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .
(٦) الحاصن : المرأة العفيفة .
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم .
وج : الطائف ونواحيها . والحي الخلوف :
الذي فارقه الرجال ، يقصد أنهم سيبيدوهم .
(٨) نردى : نهدم . اللات والعزى وود :
أصنام . القلائد : السوط . الشنوف : جمع
شف وهو القرط .
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب)
١٤٨/٢ وافظر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤
وما بعدها .

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ،
ومثله أنس بن زعيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه
معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها ^(١) :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ
ونَظُم أبوسفیان بن الحارث أشعاراً كثيرةً يأسى فيها على ما فرط في جَنَبِ
الله ورسوله على شاكلة قوله ^(٢) :

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدٍ
لكالمُدْلَجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ ليلَه فهذا أوانُ حينِ أهْدَى وأهْتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم
في ذلك شعراء المدينة ، وتُنَسَّبُ إلى الأعشى قصيدة في مديحه ^(٣) لا شك أنها
منحولة ، وتُنَسَّبُ لأبي طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ البتاي عِصْمَةٌ للأرامل

ويقول ابن سلام : «قد زيد فيها وطُوت» ^(٤) وتُنَسَّبُ إلى عباس بن مرداس
فارس بنى سُلَيْمٍ أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله ^(٥) :

نبيُّ آتانا بعد عيسى بناطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونَظُم كثير من المراثي في قتلى المسلمين والمشركين ، وثناءُ قَتَيْلَةَ
لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه
الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُئي به قصيدة حسان التي يستهلها بقوله ^(٦) :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلَتْ مَاقِيها بِكُحْلِ الأَرَمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٠٥/١٤ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .

(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص ٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكنى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسرى سيوله تندفع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّتْ أضواء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قضى على الوثنية في أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبغيرهم ، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخيراً من السماء فتخطفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عيالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردوهما عن غيئهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَآخة ، فنكّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تميم ومتنبئتها سَجَاح فلم تلبث بعد مناقشات صغيرة أن أذعن له ،

وقُتِلَ حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع، ولأخيه متم فيه مرث رابعة^(١). واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في اليمامة ومنتبهاً مُسَيَّلَمةً ، فالتقى بها في «عقربة» ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحر فيها القتل ، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط منتبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت «البحرين» بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ، حيث التف الناس هناك حول متنبى يسمى الأسود العنسى ومنتبى آخر يسمى قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني عامر^(٢) :

بني عامر إن تَنْصُرُوا الله تَنْصُرُوا وإن تَنْصِبُوا لله والدين تُخَذَلُوا
وإن تُهْزَمُوا لا يُنْجِكم منه مهربٌ وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن بجير الطائي في موقعة بَزَاخَة^(٣) :

وليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما تَخْتَلِي من أذُرْعٍ ورقابٍ^(٤)
ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصبُّ على الكفار سَوَاطِ عذابٍ
وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم^(٥) .

(٢) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع

في أشعار أخرى الإصابة ٢٧٤/١ ، ٣/٢ ، ١٢٢/٥ ، ١٥٢/٢ .

(٣) الإصابة ٥٥/٢ .

(٤) تختل : تقطع .

(٥) تاريخ الطبري ٤٩٤/٢ والإصابة ١٢٥/٣ .

(١) انظر في متم وراثته لأخيه الأغاني

(طبعة الساسي) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء

(طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والخزانة

٢٣٤/١ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي)

ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف)

ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه ، فرأى أبو بكر بئاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون في سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المنفى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرجيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوْفِّئْ مُسْلِمًا وَلِخَفِيِّ بِالصَّالِحِينَ »^(١) ، وبكاه كثير من الشعراء^(٢) ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت^(٣) :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالى الثانى المحمودَ سيرته وأولَ الناس منهم صدقَ الرسلا
وثانى اثنين فى الغار المُنيف وقد طاف العدو به إذ صعدَ الجبلا
وكان حُبَّ رسولِ الله قد علموا خَيْرَ البرية لم يغدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورتّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رتّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمَّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما فى الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبرى ٦١٥/٢ .

٣٦٢/٣ .

(٢) الطبرى ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسَس الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون للمعركة الأخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومضى الفرس بهزيمة شديدة ، وقتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرق دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويخيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البريق بن عياض الهذلى ، إذ يقول (١) :

وإن أُمِّس شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبح قوى دون دارهم مضر (٢)
أسائل عنهم كلما جاء راكبٌ مقيماً بأملحٍ كما رُبط اليعر (٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلفهم بستة أبيات كما نبت العتر (٤)
وكان عمر ينتهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برأ بهم ، ويروى أن الخبيل السعدى جزع جزعاً شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشدته أبياتاً يقول فيها :

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .
(٣) أملح : موضع . اليعر : الجدوى الكبير .
(٤) العتر : شجر له ورق صفار .
خلافهم : بعدهم .

إذا قال -جبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيان أن لن يعقني تعقُّ إذا فارقتنى وتُحوبُ^(١)

فرقاً له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل
عنده حتى مات^(٢) . وليس المختل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد
فزع إليه أيضاً أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب
الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا^(٣)
إذا هتفتُ حمامةً بَطْنِ وَجٍّ على بَيَضَاتِهَا ذَكَرًا كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه وأَمَكَّ ما تُسِغُ لها شرابا
فأمر بإشخاصه إليه^(٤) . ومن فزع إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته^(٥) .

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يتراى شباب العرب على الجهاد
في سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء
الدنيا والغنائم^(٦) لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم
قول النابغة الجعدي لامراته ، وقد أظهرت تأثيرها لهجرته في فتوح فارس^(٧) :

يا ابنة عمى كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أَمْنَعُ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فَرَبُّ الناس يرجعني وإن لحقتُ برَبِّي فابتغى بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فيعذرني أو ضارعاً من ضَنَى لم يستطع حَولا^(٨)

(٦) راجع تاريخ الدولة العنبرية لقلهوزن

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥

والعقيدة والشرعية لجولد تسيهر ص ١٣٧ .

(٧) الشعر والشعراء ٢٥١/١ وقد ظلت هذه

الروح مسيطرة على الفاتحين في العصر الأموي ،

انظر الطبري ٤١٣/٥ .

(٨) ضارعا : ضاويان حيل . ضنى : مرض .

(١) تحوب : تأثم .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٠/١٣ .

(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء

والبر بهم .

(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزافة ٥٠٥/٢ .

(٥) أغاني (سامي) ٦٩/٢١ وديوان الهذليين

١٧٠/٢ وانظر في حالات مشابهة الأمال

٣٠٩/٢ وذيله ص ١٠٩ .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبي لؤلؤة المجوسى الآثمة في الظلام ، قطعته بنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين ونشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرّاء بن ضرار أخى الشماخ^(١) :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَزْقِ^(٢)
فَمَنْ يَسْنَعْ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحِي نَعَامَةٍ لِيُذَرِّكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْصَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فضى ينفذ سياسة عمر في إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولّاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفي مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فلن عمر رأى أن يترك للجيش خمّس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالقسّ وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ١٥٩/٩ (٣) البوائق : الدوامى . تفتق : تنشق عن والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ . ثمرها . والاستمارة واضحة .

(٢) الأديم : الجلد .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْرِكُوا الدولة في الفئء ، ولكن صوته لم يرتفع في عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التدمير يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدَّى إلى قتله في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة ^(١) ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيْم ^(٢) :

ضَحُّوا بِعُثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضَحَّى وَأَيُّ ذَنْبٍ حَرَامٍ لَهُمْ ذَبَحُوا
إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لَاقُوا أَثَامًا وَخُسْرَانًا فَمَا رَبَحُوا
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بَسَفَحَهُمُ لِلدَّمِ الزَّكَى الَّذِي سَفَحُوا
وكان على يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرَضْ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سحقهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فترل في الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على في موقعة الجمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان على قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولياً دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه على بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية في صِفِّين الواقعة على الضفة النجى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَسَبَ لعلی ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده تَرَفَعُ المصاحف على أسنَّةٍ رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووقَّف هذه الحرب المبيرة للمسلمين ، وتنبه على للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وقَّف القتال والدخول مع معاوية في مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكيمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبي موسى الأشعري عن على ليحكمما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنَعَ أبا موسى بخلع على ومعاوية

٤٤٧/٣ وما بعدها .

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣ .

المبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبرى

معاً . ولم يلبث مركز على أن تزعزع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرع منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حرّوراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حريهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النهر وان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيّن منه فرصة ، وقتله غيلة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه ^(١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول ^(٢) :

أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت بأنك خيرها حسباً وديننا

وقد كشرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض التأثيرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة ^(٣) ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياً ويهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم ^(٤) :

وإنا وإياكم وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرابضة
وقد مضى يحرض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة ^(٥) . وتطورت

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(٥) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبري ٤٤٩/٣ .

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ - ٤٨٦ والطبري ١١٦/٤ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢ والطبري ١١٦/٤ وخيسها في البيت الثاني : ذلها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

الأمور . ونشبت وقعة الحمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة^(١) من مثل قول القائل^(٢) :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجملِ ننعى ابن عفَّانَ بأطرافِ الأسَلِ
ننازل الموتَ إذا الموتُ نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلِ

والتقى علي بمعاوية في صفين ، وحمل وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطُّفَيْلِ عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علي^٣ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتٌ معشرٍ على الخيلِ فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سِما النبيِّ ورِايةٌ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدُها
وردَّ عليه خزيمة الأسدي يصف جيش معاوية^(٤) :

ثمانون ألفاً دينُ عثمانَ دينهم كتائبُ فيها جبرئيلٌ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمِتْ ففي النارِ سُقياهُ هناكِ صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبية القبلية^(٥) ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في تاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزل على الألسنة من أشعار ملتهبة^(٥) . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يَسخُدُ له أُوَّار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربي إذكاءً وأشعلتها إشعالا .

نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ،

(١) تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها .

٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفي مواضع متفرقة .

(٢) الطبري ٥٢٧/٣ .

(٣) انظر الطبري ١٦/٤ وما بعدها

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩/١٥ .

(٥) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون)

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي
الفرس والروم . ففقدوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن
نعرِّض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف
قليلاً عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم
أبي محنجن الثقفي^(١) ، وكان مولعاً بالحرر فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى
إذا احتدمت المعركة توسَّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى
قيده - ليسبهم في شرف المعركة ، فأطلقتها وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد
إلى سجنه وهو ينشد^(٢) :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرُ بآننا نحن أكرمهم سيوفنا
فإن أجبسٌ فقد عرفوا بلائنا وإن أطلقَ أجرعُهم حُتوفنا
وكان حول أبي محنجن فرسان كثير ون قصفوا الفرس وأطاحوا بروس أبطالهم ،
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معديكرب الزُبَيْدِي^(٣) ، وكان
من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك
ونهاوند ، ومن شعره^(٤) :

والقادسية حين زاحم رُستَم
الضاربين بكل أبيض مخدَم
كنا الحماة بهنَّ كالأشطان^(٥)
والطاعنين مجامع الأضغان^(٦)

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة
الخليج) ص ١٥ ومعهام التنصيص ٢٤٠/٢
والعيني ٣٧٩/١ .

(٤) ذيل الأمالي ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخدَم : القاطع .
مجامع الأضغان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي محنجن الأغاني (طبع
السائي) ١٣٧/٢١ والشعر والشعراء ٣٨٧/
والإصابة ١٧٠/٧ والخزانة ٥٥٠/٣ وما بعدها
والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني
(دار الكتب) ٢٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٣٣٢/
وذيل الأمالي ص ١٤٥ والخزانة ٤٢٢/١ ،

ومنهم بشر بن ربيعة الحشعمي، وله بصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية^(١) :

تذكرُ - هداك الله - وَقَعَ سيوفنا بباب قُدَيْسٍ والمكرُ عَسِيرُ^(٢)
عشيَّةً ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَنَاحِي طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ دَلَفْنَا لأخرى كالجبال تسير^(٣)
تري القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأَحمالٍ لهنَّ زفير^(٤)

ومن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح الماردى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك، وله بصور ذلك^(٥) :

جلبتُ الخيلَ من صَنَعاءَ تَرْدَى بكل مدججٍ كالليث سامى^(٦)
إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ إلى اليرموك فالبلد الشامى
وجئتُ القادسيَّةَ بعد شهرٍ مسومةً، دوابرُها دواى^(٧)
فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى وأبناء المرازبة الكرام^(٨)
فلما أن رأيتُ الخيل جالتُ قصدتُ لموقف الملك الهمام
فأضربُ رأسه فهوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام^(٩)
وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطَيْبة، وله فيها أشعار كثيرة^(١٠)، وعمرو بن

(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .

(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب .

دواى : ملطخة بالدم .

(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .

(١٠) الإصابة ١/ ١٠٨ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤٣/ ١٥ .

(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها .

(٣) دلفنا : تقدمنا .

(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع

كظم الغيظ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .

شأس الأسدى^(١)، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكركر قتل
رستم^(٢) :

قتلنا رُستَمًا وبنيه قَسْرًا تشير الخيلُ فوقهم الهَيالا^(٣)
وفرَّ الهَرْمُزَان ولم يحامى وكان على كتيسته وبالا^(٤)
وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الحيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله^(٥) :
برزتُ لأهل القادسية مُعلِّمًا وما كلُّ من يَغشَى الكريهة يُعلم
ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبى^(٦) ، وقد ختم
الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكرفيها بلأه حيثنذ ، يقول فيها^(٧) :
وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارسَ بَيضُها كالأعبل^(٨)
مُسْرَبلى حلقِ الحديد كأنهم جُرْبُ مقارفةٌ عَيْنَةُ مُهْمِل^(٩)
والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه ، وهو فيها يتحدث بجانب
صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الحمامين ويفخر بأنه يسقى
صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع
بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى
الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم
له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لَعَبْدَة^(١٠) بن الطيب ، وهو من الشعراء
المجيدىن الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، وفراه يستهلها بقوله^(١١) :

(٧) الحيوان (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧ .
(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .
(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من
القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء
للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل :
الذى يهمل الإبل فى المرعى .
(١٠) انظر فى ترجمته الأغاني (طبعة الساسى)
١٦٣/١٨ والشعر والشعراء ٧٠٥/٢ والإصابة
١٠١/٥ والموشع ص ٧٥ .
(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة
دار المعارف) ص ١٣٥ .

(١) انظر ترجمته فى الأغاني (طبعة
دار الكتب) ١٩٦/١١ والشعر والشعراء
٣٨٩/١ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب
ص ٥٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .
(٢) الطبرى ٥٠/٣ .
(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .
(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .
(٥) الأغاني (طبع الساسى) ٥١/١٦ .
(٦) انظر ترجمته فى أغاني (ساسى) ٩٠/١٩
والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والإصابة ٢٢٠/٢
والخزافة ٥٦٦/٣ .

هل حبل خَوْلَةٍ بعد الهجر موصولٌ أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولٌ
ويعمى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رعوَسَ العُجَمِ ضاحيةً منهم فوارسُ لا عَزْلٌ ولا مِيلٌ^(١)
ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضِلَ ربٍّ سَبَّبهُ حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهو مقبول
ولكننا نُصَدِّمُ في آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثمَّ كنّا
نقطع بأن للقصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجتمع كثيراً من الأشعار التي نُظِمت في
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل
الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغزيرة التميمي يرثى بها من
أصيبوا في معارك الطَّائِلَقَانِ وجُوزَجَانَ لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول^(٢) :

سَقَى مُزْنَ السحابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُوزَجَانِ
وما بي أن أكون جَزَعْتُ إِلَّا حنينَ القلبِ للبرقِ اليماني
ورُبَّ أَخٍ أَصاب الموتُ قبلي بكيّتٍ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامّة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر
فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس .
العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
الميل : جمع أميل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٨/١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازي الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين^(١) ويروون أنه كان لأوس^(٢) بن مَغْرَاء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم في الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّد خيرٌ من يمشى على قَدَمٍ وكان صافيةً لله خلصانا
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما اتُّمِنُوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق . فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الحراج ، يقصُّ عليه كيف أثاروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازي ، وفيها يقول^(٣) :

نُؤَبُّ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا فأنَّى لهم وفْرٌ وليس لنا وفْرٌ
وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعازل والحصون والحيوان كالقيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين^(٤) .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رُويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المانة مبلغ الأشعار التي نُسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجوِّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجنود . ومن ثمَّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرَف من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

(١) طبري ١٠٨/٣ . مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة) (٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١٣٧/٤ والإصابة ١٤/٣ ، ٦٠/٥ .

دار الكتب ٨/٥ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفي

ذلك في عامة بلاد العرب^(١) ». وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعينهم أن يذكروا أو يمجِّدوا ، إذ هم آخرون يهتم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الحاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به في سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لخيلة القصاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك ، مقصدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصمدون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المَعْلَى في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهذيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله (١) :

شهدتُ بآن وعد الله حقاً وأن النار مشوى الكافرينا
وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تمّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صِرْمَة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة (٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا
وقول أبي الدرداء (٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

(٢) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٣) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

وتحوّل شعراء قريش منذ فتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما
قدّمتم ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن
الزبّعري^(١) :

يا رسولَ الملّيك إنَّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور^(٢)
إذ أجازى الشيطان في سنن الغيِّ ومن مال مَيْلُهُ مَثْبُورٌ^(٣)
آمن اللحمُ والعظامُ بما قلَّدتَ فنفسي الفِدا وأنت النذيرُ
وقد حسَّسُ إسلامهم ، ومضوا يصمدون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل
الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول
أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتْ مُصِيتُنَا وجَلَّتْ عشيَّةَ قيل : قد قُبِضَ الرسولُ
نبيُّ كان يَجْلُو الشكَّ عنا بما يوحي إليه وما يقولُ
وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبادي وجدنا بينهم
كثيرين يَتَقَبَّسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا في الجزيرة ولم يُتَّح لهم تقدم سنهم شرف
الاشتراك في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
الشهرة ، ولعل أول من ينبغي الوقوف عنده عبيدة بن الطبيب الذي تحدّثنا عنه
في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه في شطر
كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبرِّ الوالد والحذر من التَّمَام الذي يزرع
الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آي الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتقَى الإله فإنّه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ
وبرِّ والدكم وطاعة أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوَعُ

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

واعصوا الذي يُزجى النّمام بينكم متنصّحاً ذاك السّام المنقّع^(١)
يُزجى عقاربهُ ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدع^(٢)

وهو القاتل في رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحّمَا
فلم يكُ قيسٌ هُلكهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قوم تهدّمَا

وواضح ما في البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد^(٤) بن أبي كاهل اليشكري فسرى المفضل الضبي يروي له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخرأً جليداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخرأً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ لَهُ سَعَةً الأخلاقِ فينا والضَّلَعُ^(٦)
وإِبَاءٌ لِلدُّنْيَا إِذَا أُعْطِيَ المكثورُ ضَيْمًا فَكَنَعُ^(٧)
وبِنَاءٌ لِلْمَعَالِي إِنْ مَا يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وَضَعُ
نَعَمُ اللهُ فينا رَبُّهَا وصنِيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَعُ^(٨)

ويعمى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) يقول :

٥٤٦/٢ وحديث الأربعماء لطف حسين
(طبعة الحلبي) ١٩٠/١ .
(٥) المفضليات ص ١٩٠ .
(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
(٧) المكثور : المغلوب . كنّع : خضع .
(٨) ربها : أمها . صنع : صفة ، لا فعل ،
أى قادر على أن يصنع .

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السام : المم .
المنقّع : القاتل .
(٢) الأخدع : عرق في العنق إذا ضرب
أجابه العروق .
(٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .
(٤) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ١/٣٨٤
والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن
سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
وَيَحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعُ^(٢)
وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍّ كَبِيرَةٍ الْخَصَيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيِّدِ بَنِي مِرَّةٍ الذَّبْيَانِيِّنَ ،
وَلَهُ أَبْيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبِسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَاكَ إِلَّا التَّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا
أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزَلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ أَعْمَالَهَا
وَخَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
(واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
يَحْزَنُونَ) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى
يَحْيِي وَيُمِيت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ) (وإنْ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوله عَزَّ شَأْنُهُ : (إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
زِلْزَالَهَا) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما
هاويةٌ وما أدراك ما هيه نار حامية) (ووفيت كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم
بما يفعلون) .

وأقرأ فى النَّمْرِ^(٧) بِنِ تَوَلَّبَ ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد عُلِّتْ سَنُهُمْ ،

- | | |
|---|---|
| (١) وخم : غير مرى . يدرع : يلبس . | (٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع
مواقمها . |
| (٢) رتع : أكل بهم . | (٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧
ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨ |
| (٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٣٠ | وابن سلام ص ١٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب)
١/١٤ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد
الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٧/٢ |
| (٤) أغاني ١٤/١٤ . | (٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع . |

فَسَتَرِي فِي شَعْرِهِ آثَاراً مِنْ تَلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ ^(١) :

وَمَتَى تُصِيبُكَ خَصَاصَةٌ فَارْجُ الْغِنَى
وإِلَى الَّذِي يُعْطِي الرِّغَابَ فَارْغَبِ
وهو القائل ^(٢) :

أَعِذْنِي رَبُّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ
وَمِنْ حَاجَاتِ نَفْسِي فَاعْصِمْنِي
وَأَنْتَ وَلِيُّهَا فَبِرِّئْتُ مِنْهَا
وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجاً
فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا ^(٣)
وَأَنْتَ وَلِيُّهَا فَبِرِّئْتُ مِنْهَا
إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجاً ^(٤)
وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَنْشَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا ^(٥) :

لِللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالشَّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى
وَمَرْتُ بِنَا اسْتِجَارَةُ الْمُحْبِلِ ^(٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَانَهُ
لِلغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّهَ عَلَيْهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَةٍ لَهُ رَوَاهَا الْمُفَضَّلُ الضَّبِّي ^(٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ
وَكَانَ فِي الشَّهْمَاخِ ^(٨) شَرَكْثِيرٌ ، وَهُوَ مِمَّنْ شَارَكُوا فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ وَمَعَارِكِ
أَذْرَبِيجَانَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَجِدُ فِي دِيْوَانِهِ شَيْئاً وَاضِحاً عَنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَكَأَنَّمَا عُنِيَ الرِّوَاةُ بِشَعْرِهِ الْبَدْوِي وَإِحْسَانِهِ فِيهِ لَوْصَفِ الْقَوْسِ وَحِمَارِ الْوَحْشِ ^(٩) ،
وَمَا يَتِمَثَّلُ بِهِ مِنْ شَعْرِهِ ^(١٠) :

لَيْسَ بِمَا لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ بَأْسٌ وَلَا يَضُرُّ الْبَرَّ مَا قَالَ النَّاسُ

-
- (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني ١٦١/١٩ .
(٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ .
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغاني ١٥٩/١٩ .
(٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١٠ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ والإصابة ٢١٨/٢ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح ص ٧٥ .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ .
(٩) الشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٨/٩ والخزانة ٥٢٦/١ والإصابة ٢١٠/٣ والموشح ص ٦٧ .
(١٠) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع الحيوان ٧٩/٥ .
(١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مراثية أخيه جَزءَ لعمر بن الخطاب ،
واشتهر أخوهما مزرد^(١) بهجائه وخاصة للأضياف ، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن
الهجاء . كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنْزَلْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنَى لَا يَنَادَى وَلِيَدَهَا
وَمِنْ شِعْرَاءِ هَذَا يَلُ الْبَارِعِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَبُو ذُو وَيْبٍ^(٣) الْهَذَلَى ، وقد قدم
المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلاً
من أبيات^(٤) :

كُسِفَتْ لِمَصْرَعِ النُّجُومِ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفْدِحِ
وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْلِ ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل ،
وقد خرج يغزو في سبيل الله ، وفراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحَ
الذين فتحوا قرطاجنة ، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين
له بفتحها . وعاد إلى مصر ، ولكن حدث أن توفي له — قبل وفاته بعام —
خمسة بنين في وباء ، فراثهم بعينيته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع
التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بَنَى وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ السُّرْقَادِ وَعِبْرَةً لَا تَقْلَعُ
فَغَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالَ أَنَّى لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعٌ^(٦)

ومعاهد التنصيص ١٩٥/١ ومعجم الأدباء
لياقوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح
شواهد المنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)
ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
المصرية) ١/١ وما بعدها .

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب .
مستتبع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
٢٧٤/١ والخزانة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص
٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٥/٦ .

(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠
والشعر والشعراء ٦٣٥/٢ والأغاني ٢٦٤/٦
والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
والخزانة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وإذا النية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبته وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى
أبا عبيد^(١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقترب الوعيد والحساب
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهلهم وأقربائهم .
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شئس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح ،
فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها
بقطعته المعروفة^(٢) :

أردت عِراراً بالهوان ومن يُردُّ عِراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وكان ينحو هذا المنحى معن^(٣) بن أوس المزني في عتابه لابن عمه الذي
أساء إليه إساءة كبيرة . وظل يسيء إليه وهو يوالى أشعاره في صفحه عن
زلاته براً به وبقرابته مع تجنيبه عليه وتجريمه ، يقول^(٤) :

وذى رحمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بعلمي عنه وهو ليس له حِلْمٌ
فما زِلْتُ في لِينٍ له وتَعْطُفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأمُّ
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى
البر بالأقرباء والصفح الجميل . ويمرض عمرو^(٥) بن أحمر الباهلي فيتوجه
إلى ربه داعياً^(٦) :

-
- (١) أغاني ٦/٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١/٨٩ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢/٥٤ والإصابة ١٧٩/١ والخزانة ٣/٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والهامسة للمرزوقي ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص . وقد نشرت أشعاره في ليبزج .
(٤) أغاني ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج)
ص ٥ ٣٦٠ .
(٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١/٣١٥ والإصابة ٥/١١٤ والخزانة ٣/٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠ .
(٦) الشعر والشعراء ١/٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكيمة يقول فيها :
والحى كالميت ويبقى التقى
والعيش فنان فحلو وممر

إِلَيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ أَرْفَعُ رَغْبِي عِيَاذًا وَخَوْفًا أَنْ تُطِيلَ ضَمَانِيَا^(١)
فَإِنْ كَانَ بُرَّةً فَأَجْعَلِ الْبُرَّةَ نِعْمَةً وَإِنْ كَانَ فَيْضًا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضِيَا^(٢)
وَمَنْ نَحَسَّ عِنْدَهُمْ أَثَرَ الْإِسْلَامِ وَاضْطَحَّ نَهْشِلُ^(٣) بَنِ حِرْرِي فِي مَرَاتِيهِ لِأَخِيهِ
مَالِكٍ ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ بِصِفَتَيْنِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي إِحْدَاهَا^(٤) :

أُنَاسٌ صَالِحُونَ نَشَأَتْ فِيهِمْ فَأَوْدَوْا بَعْدَ الْفِ وَاتَسَاقَى
أَرَى الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَعِثُ فِيهَا مَوْلِيَّةٌ تَهَيَّا لَانْطِلَاقِ
أَعَاذَلْ قَدْ بَقِيَتْ بَقَاءً قَيْسٍ وَمَا حَيُّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقِ
وَكَانَ بِجَانِبٍ مِنْ قَدَمَانَا شُعْرَاءُ عُرِفُوا بِرَقَّةٍ دِينِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَحِينَ نَنْتَقِبُ
شَعْرَهُمْ نَجِدُ فِيهِ خَيْوْطًا إِسْلَامِيَّةً تَظْهَرُ فِي نَسْجِهِ مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ ، مِنْهُمْ
عَبْدُ^(٥) بَنِي الْحَسْحَاسِ ، وَكَانَ يَتَغَزَلُ غَزْلًا مَفْحَشًا جَعَلَ قَوْمَهُ يَقْتُلُونَهُ لِعَهْدِ
عُثْمَانَ وَنَرَاهُ يَقُولُ :

عُمَيْرَةُ وَدَّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
وَيُرْوَى أَنَّهُ أَتَشَدُّ هَذَا الْبَيْتَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ : لَوْ قُلْتَ شَعْرَكَ
مِثْلَ هَذَا لَأَعْطَيْتَكَ عَلَيْهِ . وَمِثْلُهُ النَّجَاشِيُّ^(٦) قَيْسُ بْنُ عَمْرِو ، الَّذِي حَدَّثَهُ عَلَى بَنِ
أَبِي طَالِبٍ فِي شَرْبِ الْخَمْرِ بِرَمَضَانَ ، وَقَدْ تَهَاجَى مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَى
رَأْسِهِمْ تَمِيمُ بْنُ أَبُوبَيٍّ بَنِ مَقْبِلِ الْعَجَلَانِي ، وَفِيهِ وَفِي قَبِيلَتِهِ يَقُولُ :

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لَوْمٍ وَدَقَّةٍ فَعَادَى بَنِي الْعَجَلَانَ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلِ^(٧)
قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغني
١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
(٦) راجع في ترجمة النجاشي الاشتقاق
لابن دريد (نشرة الخانجي) ص ٤٠٠ والشعر
والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة
٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بني العجلان ، وواضح
أن النجاشي يرميهم بأن أحسابهم لثيمة خسيصة .

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان في جسده
من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥
والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغاني ٩/٢٧٠
والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالي المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بني الحسحاس في
أغاني (سامي) ٢/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجأهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن^(١) مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية»^(٢) ومع ذلك نددت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله^(٣):

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمَنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكْذَحُ
وكلتاها قد خُطَّ لى فى صحيفة فلا الموتُ أهْوَى لى ولا العيش أَرْوَحُ
وهو يصُدر في البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن ننبئَ رَآها) وما يُروى له قوله^(٤):
النَّاسُ هَمُّهُمْ الحِياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالٍ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
ومن يُسلك في هؤلاء الشعراء الذى عُرِفوا برقة دينهم الخطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية^(٥)، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير وليبد والخطيئة والناطقة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سنرى عند ليبد والناطقة الجعدى.

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣.

(٤) طبرى ٢٩/٥.

(٥) راجع مثلاً تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لنانينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥.

(١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء

٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة

١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب

١٩/١.

(٢) ابن سلام ص ١٢٥.

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حَرَامِ الْخَزْرَجِي « من سادة قومه وأشرافهم » ، وكانت أمه « الْفُرَيْعَةُ » خَزْرَجِيَّةٌ مِثْلُ أَبِيهِ ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) . وهو يُسَلِّكُ في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سنٌ تقريبية ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خَزْرَجِيًّا فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

ونراه قُبَيْلَ الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسَلْتِ^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته^(٤) .

وبهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيدِّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عايبهم من

المغنى ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والهند وبيروت ، وسنعمد في المراجعة على طبعة ليدن .
(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .
(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .
(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٥٧/١٤ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبَلُ » ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى » . ومرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبعى لأنهم كانوا مشركين فعلاً ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهم وجبريل معك » ^(١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ ^(٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهِ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنَامِلِي
ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجدّاً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيِّضَةَ الْبَلَدِ ^(٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بميزة رفيعة ، حتى ليُروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطْمِهِ حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته

في كتب الصحابة والأغانى ١٣٧/٤ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار .

تزن : تهتم . غرَّتِي : جائعة . يريد أنها لا تغتاب

النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصناًراً

لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل

من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلُّونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه تَعَمَّى بِأَخْرَةٍ .

وبحقَّ سُمِّيَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْصِمَةٍ . وقصته مع الحارث بن عوف المُرِّي حين قُتِلَ في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ^(١)
وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفَّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزُّبَرْقَان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ^(٢)
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَذْنَى سَبْقِهِمْ تَبِعُ
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمين قاطبة . وقد خَلَّفَ ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : « تُنْسَبُ إليه أشياء لا تصح عنه »^(٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضت (تشاطعت) قريش واستبست وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْقَى »^(٤) . وكان ممن حَمَلَ عليه غُثَاءً كثيراً ابنُ إِسْحَق في المغازي ، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يَرَوِي عنه السيرة النبوية ، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبير : شجر ، ومن أمثالهم : ركب

فلان السخبير إذا غدر . (٢) الاستيماب ص ١٣٠ .

(٣) (٤) ابن سلام ص ١٧٩ : (٤) الذوائب : الأعلى في الشرف . فهر :

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُشَبِّتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام لنعلم مدى ما وُضِعَ على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثالثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدبلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحت في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بُدَيْل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصِرمَة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

(٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك الجاحظ في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .
(٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ .
(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .
(٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .
(١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ .
(١١) راجع الديوان ص ٤٢-٤٣ وقارن بالأغاني ١٢٠/١٤ .

(١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء خبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، ٤٦ وكذلك مقطوعة بائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ .
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ .
(٣) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ .
(٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ .
(٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذمّاً قبيحاً^(١) ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التى نظمها حسان فى هجاء أسرته حين كان أبوسفیان وغيره من رؤوسها يقودون الحيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار فى مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً فى وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لأن وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره فى الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة^(٦) ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التى يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه التى يقول فيها :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا
ولاميته التى يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نُبْعِدَ منه ما اتهمه الرواة وأن لا نقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأبيام والأنساب ، ومن ثمّ كنّا نرتضى ميميته (تَبَلَّتْ فَوَادُكَ فى الْمَنَامِ خَرِيدَةً) التى يعيّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره فى يوم

عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .
(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه
أشعار فى هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر
الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١/ ٣٠ .

(٦) انظر الأغاني (ساسة) ١٤/ ١٢٥-١٢٧ .

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان فى هجاء بنى الحماس الحارثيين
قوم النجاشى ص ٤٧ ، ٨١ ، وكذلك انظر مقطوعة
رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر فى الاستيعاب ص ٤٩٢
حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه فى رثاء

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النوم بالعشاء المموم) التي يهجو فيها ابن الزُبَيْرِي ويفتخر بقومه فخرًا عفيفًا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبيداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) . ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم والدك العبد^(٢)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السَّقْبِ من رَأْل النِّعام^(٣)
وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهزلية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزئين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) . وهو يمتد في الجزء الثاني متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفَاءُ^(٥)
وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيّرُها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتَّبِعُهُ حتى الممات ونصُرُّ غير محدودٍ
مستعصمين بحبلٍ غير مُتَعْجِزٍ مُسْتَحْكِمٍ من حبالِ الله ممدود^(٦)

الإل : القرابة .

(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجذم : منقطع .

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي

وهي أم عبد الله وأبي طالب والزبير بن عبد المطلب .

(٣) السَّقْب : ولد الناقة . الرَأْل : ذكر النعام .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مراث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية انضاحاً على نحو
ما يلقانا في مراثيه التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مراثيه البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجّعنا فيروزُ لا درَّ درُّه بأبيض يتلو المُحكّمات منيب^(١)
وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين
الحنيف وهدية الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله
بنى مُرة الذُّبيانين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيَّر
ومثل الحُطَيْثَة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيُلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه^(٣) تمريناً له وتدريباً . على صَوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤/٢٤٠
والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٢٣٠ والخزانة ١/٣٧٥ ، ١١/٤ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٥/١٤١ وأمالى
المرتضى (طبع الحلبي) ١/٩٧ .

(١) لا در دره : الدر : اللين وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن فقاء صحيفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغاني (طبع الساسي)
١٥/١٤٠ وابن هشام ٤/١٤٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »^(١) ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلْقَوافي شَانِهَا مِنْ يَحْكُوكَهَا إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوْزَ جَرُولُ^(٢)
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْرٌ ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله^(٣) :

أَلَا أَبْلِغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ وَيْحَكَ - هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمُأْمُونِ كَأَسَا رَوِيَّةً فَأَنْتَ هَلَكَ الْمُأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّاكَ^(٤)
وَنَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَتَبِعْتَهُ عَلَى أَيْ شَيْءٍ - وَيْبَ غَيْرِكَ - ذَلِكَ^(٥)
عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفِ أُمًّا وَلَا أَبًا عَلَيْهِ وَلَمْ تَدْرِكْ عَلَيْهِ أَخًا لَكَ
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْرٌ فيما أجابه به بقوله^(٦) :

مَنْ مَبْلَغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
وما زال كعب على وثنيته حتى فُتِحَتْ مَكَّةُ وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع)

دار الكتب ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سامي)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر .

النهل : الشرب الأول . اللعل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : هلكك غيرك ،

ويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يتقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه « فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسّر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهّمته الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحبّت المهاجرة أن يسلم ويؤمنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنه رسول الله »^(١)، وأنشده مدحته الخالدة:

بانَتْ سُعاد فقلبي اليوم مَتَبُولٌ متيمٌ إثرها لم يُفدَ مَكْبُولٌ^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم برُدة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣). وقد اكتسى بها كعب حُلّة مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة. وراه يستهلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتن عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤):

وفارقتك برهنٍ لا فِكاك له يوم الوداع فأَمسى الرهنُ قد غَلِقاً^(٥)

وُيْلُحٌ في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمير، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبتة لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل. وما زال ينعت ناقته حتى قال بصور خوفه وفزعه من رسول الله:

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١ والإصابة ٣٠٢/٥.

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣.

(٥) غلق الرهن: لم ينفك أبداً.

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤.

(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة

دار الكتب المصرية) ص ٦. ومتبول: مغرم.

وبانت: فارقت. ومكبول: مقيد.

وقلت خلّوا طريقي - لا أبأ لكم - فكلُّ ما قدّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ يوماً على آلهِ حذباءَ محمولُ
أنبئتُ أنّ رسولَ الله أوعدني والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هذاك الذي أعطاك نافلةً لا قرآن فيها مواعيطُ وتفصيلُ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويلُ
إن الرسول لنورٌ يُستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلول^(١)
في عُصبةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا^(٢)
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل^(٣)
ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضربٌ إذا عرَدَ السودُ التنايل^(٤)
يعرض بالأنصار لغلظهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصار :
من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل في مقنبٍ من صالحى الأنصار^(٥)
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون - كأنه نسكٌ لهم - بدماءٍ من علقوا من الكفار^(٦)
صلحوا علياً يوم بدرٍ صدمةً دائتٍ لوقعتها جميعُ نزار^(٧)

(١) المهند: السيف المطبوع من حديد الهند

وهو خير السيوف .

(٢) زولوا: هاجروا .

(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف .

الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف

في القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان .

معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل في الحرب

عن صحبه ومن يستغيث به .

(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن .

التنايل : القصار .

(٥) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٦) علقوا : قتلوا .

(٧) يريد بعل بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام همُ بنو الأخيار
وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواظ وحكم يستهدى
فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سَعَى الفتي وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتي لأمرٍ ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشرٌ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ
ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيم
الذى يَفْضَلُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعْلَمُ أَنى متى ما يأتني قَدَرى فليس يَحْبُسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقُ^(١)
والمرء والمال يَنْمى ثم يُذْهِبُهُ مَرُّ الدهور ويُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ
فلا تخاف علينا الفقر وانتظري فَضْلَ الذى بالغنى من عنده نَشِقُ
إِنْ يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق
وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
الشخص منهم في رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر .
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فَأَقْسَمْتُ بِالرَّحْمَنِ لا شَيْءَ غَيْرِهِ يَمِينُ امرئٍ بَرٍّ ولا أَتَحَلَّلُ^(٢)
لَأَسْتَشْعِرَنَّ أَعْلَى دَرِيَسَى مسلماً لوجه الذى يُحْيِي الأنام ويقتل^(٣)
هو الحافظُ الوَسْنان بالليل مَيِّتاً على أنه حَيٌّ من النوم مُثْقَلُ^(٤)
من الأسودِ السارى وإن كان ثائراً على حَدِّ نابيه السَّامُ الْمُثْمَلُ^(٥)

(٤) الوسنان : النائم .

(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير
ليلاً . الثائر : الطالب بشار . المثمل : المجمع

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أتحلل : لا أستثنى .

(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن
حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

وهي نمت عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ،
الحافظ الذي يكلاً عباده و يقيم الأذى ، ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة
على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره في
إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ
متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني
الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لنراه في الهجاء نفسه
يعلم لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من
الحكم ، ما يحاول به أن يكف أذاه عنه ، يقول^(١) :

إن كنت لا ترهب ذمي لما تعرف من صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذ أنا منصتُ فيك لمسموع خناً القائل
فالسامع الدائم شريك له ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالهُ السوء إلى أهلها أسرع من مُتحدِرِ سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذمه بالحق وبالباطل
ولا تهج إن كنت ذا إربة حرب أخى التجربة العاقل^(٢)
فإن ذا العقل إذا هجته هجت به ذا خبل خابل

فهو ينهأ أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على
نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى سماً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء
سرعان ما يرتد عليهم هجاء أقذع وأمر ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو
في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح
ومن التفرغ لمن يهجو به بدلاً من الطعن في الأعراض سنتهم القديمة .

(٢) الإربة : الدهاء .

(١) الخزائن ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

ليبد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوهريرة وأعمامه الطُفَيْلُ وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيع المُقْتَرين » وقد قتله بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقَّب بمعوذ الحكماء . وأم ليبد تامة بنت زنباع العبسية .

وقد نشأ ليبد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها وفاداتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثًا ، فهم يروون أن وفدأ من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفدأ من بني عَبَس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العباسيين وبني عامر قبيلة ليبد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط ليبد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزاعة ١/٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هو بر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعته في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة ليبد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ٢٣١/١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦١/١٥ وطبعة السامى ١٥/١٣٠ وطبقات ابن سعد ٢٠/٦ وأسد الغابة ٤/٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأما المرتضى (طبعة الحلبي) ١٨٩/١ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٤/٦

مقدع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامرين . وسواء أصبح هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه في أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَّتْ الديار محلُّها فقامها » أخذ يظهره . وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه ^(١) ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم يُعلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله ، أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فترها وأقام بها إلى أن توفاه الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً ، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شعبه واليه على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ؛ ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه ^(٢) . فن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجـلي حتى كسانى من الإسلام سِرْ بالـا

(طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦٩ وانظر الاستيعاب
ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

(١) أغاني (طبعة السامى) ١٥/١٣١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كـنفسه والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمتضى مفاخرًا فخرًا عنيقاً بآبائه وفتوته معتدًا اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلَّثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطَيْبَةَ الفزاري^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرًا بقومه وشجاعتهم وبلاهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشَّمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعها . وخرج من ذلك إلى تشبيهه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم بجوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنَّه لهم آبائهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا ليزارُ عظيمةٍ جشَّامها^(٢)
ومقسَّمٌ يُعطى العشيرة حَقَّها ومُعَذِّمٌ لحقوقها هَضَّامها^(٣)
فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على الندى سَمَحٌ كسوبٌ رغائبٍ غَنَّامها

(٣) منذر : لايمطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

(١) أغاني (ساسي) ٥٢/١٥ .

(٢) اللزاز : الملازم للشيء ، جشامها :

من التجشم وهو ركوب الخطر .

من مَعْشَرٍ سَنَتْ لَهُمُ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
فَبَنُوا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
فَاقْنَعْ بَمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه ،
حتى ليس قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراء ما لم نَرَوْه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً في
ألفاظ متناهية في الإغراب ، ومن ثمَّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بَزْرٌ^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع ، وقال الأصمعي ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطَّلَاوة ، ومن ثمَّ يقول فيه ابن
سَلَامٍ : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أُرَيْد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفي
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجعْ إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة
قوله^(٢) :

بَلَيْنَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالُحُ وَتَبَقَّى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(٣)
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلَّ فِتًى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعُ^(٤)

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .
وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمرزباني ص ٧١ .
(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .
(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رَماداً بعد إذ هو ساطع^(١)
وما البر إلا مُضمرات من التقى وما المال إلا عاريات ودائع
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ
الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام في ضميره . فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ،
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرار
وإلى الله ترجعون وعند الله ورْدُ الأمور والإصدار
كل شيء أحصى كتاباً وعِلماً ولديه تجلّت الأسرار
إن يكن في الحياة خير فقد أُنْظِرْتُ لو كان ينفع الإنظار^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأبرِّ أم إلا يرمرَّم وتعار^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحصى كل شيء في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . ويمضى في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى في لاميته التى تؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهيّة تصفرُّ منها الأنامل^(٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء .

٢٣٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .

(٦) يريد بالدويهيّة الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبيد ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧ .

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرَّم وتعار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّكَ ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدَّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأئم ، ومن ثَمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرِّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضَّلِ وله العلا وأثيْتُ كلِّ مُؤثِّلِ^(٣)
لا يستطيع الناسَ مَحْوَ كتابِهِ أنَّى وليس قضاؤه بمبدِّلِ
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّلَ عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شئٍ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى لببدي القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسَّره وأبرهته وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إضْبَعَا بالخير والشر بَأَى أُولعَا^(٥)
يملاً له منه ذنوباً مُتَرَعَا وقد أباد إِرَمَاءً وَتُبَعَا^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثَّرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسبُ إليه منها يدل على أن

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيْتُ : موطأ عظيم . مؤثِّل : مؤصل ،
(٤) ذنوباً مترعاً : دلوا على .
(٥) الديوان ص ٣٣٧ .
(٦) الإصبع : الأثر الحسن .
ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، ففضى بحيلها أحياناً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضْلُ
فَاكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبْنَهَا فِي التَّقَى وَاخْزُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد شعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الخطيئة^(٤)

اسمه جرّول : ولُقّب بالخطيئة لقصره أولدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضّراء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموراً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعف جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تفتحمه العيون . ولم يكن فيه

والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة
٦٣/٢ والخزانة ٤٠٨/١ وحديث الأربعماء
لطه حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها.
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جولد تسيهر
والشنقيطي ، وكذلك نشره نمان أمين طه بمطبعة
الحلبي ، وسنعمد على نشرته .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان
ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .

(٣) اخزها : سبها واقهرها .

(٤) انظر في ترجمة الخطيئة ابن سلام
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عبس » على نحو ما صنع عترة من قبله . ومن ثمّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمى يعلمه إحكام صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الخطيئة كان يروى شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الخطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنى بالمعاني ودقها .

ويضيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرةً ، إذا مات ، بعده فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهر
على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الخطيئة بجشعاً سؤولاً ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ، رثاً الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في الجاهلية من أمثال عبيّنة بن حصن الفزاري وزيد الخيل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٤٧٧/٢ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ١٦٣/٢ .
الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغاني ١٥٧/٢ .

بينهم من خصومات ومناورات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل^(١) . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعة ، فقد كان الأعشى وليد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّته على داره حيث زوجته وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفرع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالفوا في إكرامه ، وانطلق يُشقي عليهم ثناء راعياً معرضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبُغَيْتِهَا واقْعِدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي^(٢)

ورفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاء حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبيانه المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٌ^(٣)

أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعَرٍ مُظْلِمَةٍ ، فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ

ولأن له قلب عمر ، فعفاه عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤) .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزبرقان وجدناه لا يُقنّذ في هجائه ، إنما يحسّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامداً إلى التّهمك والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفّف من حدة لسانه ، ونراه يصرّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المظوم المكسو .

(٣) ذومرخ : واد بالهجاز . الأفراخ :

صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل :

(٤) الديوان ص ٩٨ .

لم يثبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقومون على الطيران .

(٥) انظر في القصة الأغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .

ولمَّا أَن مَدَحْتُ الْقَوْمَ فَلَمْ هَجُوتَ وَلَا يَحِلُّ لَكَ الْهَجَاءُ
أَلَمْ أَكُ مُسْلِمًا فَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ
وَلَمْ أَشْتُمْ لَكُمْ حَسْبًا وَلَكِنْ حَدَوْتُ بِحَيْثُ يُسْتَمَعُ الْحَدَاءُ

فهو يذكّر حرمة الإسلام ، ويتذمّر بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء ، لمدحه خصوصهم . ونراه يولّي وجهه نحو علقمة بن علاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيسجنزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عتبة واليه على الكوفة ، ويذود عند حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشيّة معرة لسانه . والمطزون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير بُعِثَ بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولُ المحكَّك » فهو ممن كان يتأثّنون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثّر من المقطّعات ، ونراه في مطوّلاته يشبّب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُدُّ
أولئك قومٌ إن بنّوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقّدوا شدّوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنف والأذنبُ غيرهمُ ومن يُسوّى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُروى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي
ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لئراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لى وجهها شوه الله خلقه . فقُبِحَ من وجهه وقُبِحَ حامله
أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ،
وبقصيدته « وطاوى ثلاث »^(١) وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله
من حوله يتصورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عنت له أتان
وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والتقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم
العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقته ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في
الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله للمدح
على ما يقدم له من بره على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فليجزه الله خيراً من أخى ثقة وليهده بهدى الخيرات هاديه
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاع وضرار
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت
الحطيئة^(٢) :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حسن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على
ذلك قوله في وصف التقي والعدل الصالح^(٣) :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للاتقى مزيد

(٣) أغاني ١٧٥/٢ والديوان ص ٣٥٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٣/٢ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يُنال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الخطيئة ، بل أخذ يُرسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النابعة^(١) الجعدى

هو عبدالله^(٢) بن قيس من بنى جَعْدَةَ العامريين ، ولد بالفَتْح جنوبي نجد ، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّي النابعة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنابعة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبّنه فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد شعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشدته قصيدة يقول فيها :

(١) انظر في ترجمة النابعة : الشعر والشعراء

١/٢٤٧ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة

٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨

وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والمعمرين ص ٦٤ والخزانة

١/٥١٢ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ما ربا

ناليو أشمارة ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله

ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس .

(٣) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ والديوان

ص ١٢٣ .

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُودُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ : فَأَيْنَ الْمَظْهَرِ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ فَأَجَابَهُ : الْجَنَّةُ . وَاعْجَبَ الرَّسُولُ بِشَعْرِهِ وَمَنْطِقِهِ ، فَقَالَ لَهُ : لَا يَنْقُضُضُ اللَّهُ فَالَكَ ^(١) .

وَيُظَنُّ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، بَلْ أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْفَتْوحُ خَرَجَ مَعَ الْعَرَبِ مِيَمًا نَحْوَ الشَّرْقِ وَالْفُرْسِ مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَشَّرَ الدَّعْوَةَ الْمَحْمُودِيَّةَ . وَقَدْ أَخَذَ يَضِيفُ إِلَى رَائِعَتِهِ الَّتِي أَنْشَدَهَا الرَّسُولُ أَبْيَاتًا كَثِيرَةً ، تَصُورُ حَيَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءَهُ رِضْوَانَ اللَّهِ بِجَهَادِهِ وَتَقْوَاهُ جَمِيعًا يَقُولُ ^(٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا ^(٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالَحَ ثُمْتُ غَوْرًا ^(٤)
أَقِيمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا ^(٥)

وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَشَوَّقَ إِلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ فِي الْبَادِيَةِ ، فَاسْتَأْذَنَ عُثْمَانَ فِي الْإِلْمَامِ بِهِمْ فَأَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا نَشَبَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَ عَلَى وَمَعَاوِيَةَ وَجَدْنَاهُ فِي صَفُوفِ عَلَى بِصِيفَيْنِ ، يَرْجُزُ بِخُصُومِهِ وَيَنْظُمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَجَاءِ مَعَاوِيَةَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ ^(٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنْ عَلِيًّا فَحَلُّهَا الْعِتَاقُ ^(٧)
إِنَّ الْأُلَى جَارُوكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمْ سِيَاقُ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرِّفَاقُ سُقْتُ إِلَى نَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النِّفَاقُ ^(٨)

(٥) أَوْجَر : خَائِفٌ .

(٦) أَغَانِي ٣١/٥ وَالْدِيَوَان ص ١٣٣ .

(٧) الْمِصْرَانِ : الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ . الْعِتَاقُ : الْكَرِيمُ .

(٨) الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ : الَّتِي لَا تَعْرِفُ لَهَا غَايَةً .

(١) أَغَانِي ٨/٥

(٢) أَغَانِي ٩/٥ وَالْدِيَوَان ص ٣٣ وَمَا يَبْدُو .

(٣) الْهَجْرَةُ : مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ الصَّغِيرَةِ يَنْتَشِرُ

ضَوْوُهَا فَيَرَى كَأَنَّهُ بَقْعَةٌ بَيْضَاءُ .

(٤) غَوْرُ النُّجُومِ : غَابَ .

وأهل هذا هو الذي جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية .
ويُروى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كُتب إلى مروان عامله على
المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيْصُطَرَّ أبو موسى الأشعري
والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصيته
الجاهلية . ولا نشك في أن هذه البقية فيه هي التي دفعته إلى الاصطدام بأوس
ابن مَعْرَاء ، ويقول ابن سَلَّام إنه غلب عليه ولم يكن إليه في الشعر ولا قريباً .
ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوَّار بن أوفى القشيري ،
وتتصدى له زوجه ليلي الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا
إليه في الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام في نفسه أثر في تلك الهزائم ،
إذ كان يتخرج من المضي في الهجاء المقتدع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل
هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه في أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم
عليه في مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها ^(١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلَيْتَنَا وَعِثَانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتَا حَ مَعْدُمُ
وَسَوَّيْتُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ
وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن
توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن
الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عمير مائة وثمانين
سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله ^(٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذَرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا
والمُنْذَرُ بْنُ مُحَرَّقٍ هو المنذر بن ماء السماء الذي قُتل في بعض حروبه مع
الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك في أن هذا الشعر مصنوع عليه .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آتاء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله (١) :

مَنَعَ الْغَدْرَ فَلَمْ أَهْمُ بِهِ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هَمَّ فَعَلْ
خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ إِنَّمَا ذِكْرِي كِنَارٍ بِقَبْلِ (٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول (٣) :

عُمِّرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَقَوَارِعُ تَتَلَّى مِنَ الْقُرْآنِ
وَلَبِسْتُ مِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ سَيْبٍ لَا حَرِمٍ وَلَا مَذَانٍ (٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرّد على هذا النمط (٥) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَا
الْمَوْلُجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ لِي نَهَاراً يُفَرِّجُ الظُّلُمَا
الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْماً (٦)
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصُورِ فِي الْأَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دِمَا
مِنْ نُطْفَةٍ قَدْهَا مَقْدَرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الْأَبْشَارَ وَالنِّسَا
ثُمَّ عِظَاماً أَقَامَهَا عَصَبٌ ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فَالْتَمَا
ثُمَّ كَسَا الرَّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبْ شَاراً وَجِلْدًا تَخَالَهُ أَدَمًا (٧)

عطاء . حرم : مناع .

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/٥٠٤ .

(٥) الشعر والشعراء ١/٢٥٣ وانظر الديوان

(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك

ص ١٠٢ .

ورأس كل أكمة أو جبل .

(٦) دعم : دعائم وعقد .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأما المرتضى ١/٢٦٦ .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

وَالصُّوتَ وَاللَّوْنَ وَالْمَعَايِشَ وَالْأَخْلَاقَ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
 تُمَّتَ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ وَاللَّهُ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا
 فَاتَّبِعُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ وَاعْتَصِمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا عِصْمَةَ مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَا
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى فَارَسٍ بَادَتْ ، وَخَدَّهَا رَغِمًا^(١)
 أَمْسُوا عَيْدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمًا
 أَوْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ يَبْتُنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
 فَمَزُقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا الْهُونَ وَذَاقُوا الْبِأْسَاءَ وَالْعَدَمَا^(٢)
 وَبَدِّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَاكَ بِهِ الْخَمَطَ وَأَضْحَى الْبُنْيَانُ مُنْهَدِمًا^(٣)

والنابغة في مطلع هذه العظة يُبْنَى على الله بما هو أهله ، مقررًا لإيمانه
 بوحْدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو
 يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا
 يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن
 نظام الكون المنبئ عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،
 مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جَلَّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . .
 بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) .
 وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ
 ترؤنها) . وخرج في البيت الرابع من خَلَقَهُ للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم
 مثل قوله جَلَّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في
 قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة علقة فخلقنا العلقة مضغعة فخلقنا المضغعة عظاماً
 فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وهو
 يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بشمه . الخمط :

شجر الأراك أو هونيت مر .

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .

(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

القرون والأمم البائدة مكملًا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ وأقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبادية كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامي ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قد مت يدها ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمعة والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(٢) . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى في غمرة ، ولا تأخذنى في غيرة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »^(٣) . ولا تُفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولاهما سبع تكبيرات وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سجع الكُهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تُفقد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارِد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخرأً بقومه ،

(١) انظر في صلاة الجمعة والعيدين كتب

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

وقد نَدَّب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١) .

ونمضي في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشَّعَث الذي كاد يُودى بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكمن خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قد منّا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلّونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحضُّ على الجهاد ونَشُر الدين الخفيف في أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخدافيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يُفْتَحْ إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شُعْبَةَ في القادسية^(٢) وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣) ، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة ، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤) :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولّتْ حذاءً^(٥) مدبرة ، وقد آذنتُ أهلها بصُرْمٍ ، وإنما بقي منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبها^(٦) صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبي بكر

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢ . (٤) البيان والتبيين ٥٧/٢ .
(٢) الطبري ٣٧/٣ . (٥) حذاء : سريّة الإِدبار .
(٣) الطبري ٥٩٢/٢ . (٦) يصطبها : يشر بها . والصبابة : بقية الماء .

فى استشارة أصحابه فى كل مهمم^١ ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره ، وفَسَحَ عمر لخطابة الوفود فى مجالسه ، تَسْتَمِيع لآقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه^(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسلمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردّ دونها ومن يحسنون حوكمها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة^(٢) :

«أصدقُ الحديثُ كتابُ الله ، وأوثقُ العرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحَدَّثَاتُهَا ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألّهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمَاعُ الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب فى ديوان المحسنين من عَمِلَ عُفَى عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الحمدَى هَدَى الأنبياء » .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه فى الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولّى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضْطَرُّ على أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ٢/ ١٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٥٦ .

المشهوره ، وفيها ينتصر على ^١ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبل هذه الموقعة وفي أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صوحان وأخوه سبيحان .

وانتدب على ^٢ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوهاً . وكان بجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي^٣ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثاً تحاول الوفود لم الشعث ، ويُقَضَى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فياجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسننة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . ويُغْمِد القُرْأء في جيش على سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على ، فيهددونه بأن يُصْبِح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُخْشِتار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع على بجيشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خُدعوا ، ويتلّوون علياً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبّي التحكيم ومنقري منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه ويتزلون معسكراً خاصاً بهم في حَرّ وزاء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذي جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول على^١ وعبد الله بن العباس أن يردّاهم إلى سواء السبيل ، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يعرف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجر وتفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبري ، وهو يجري على هذه الصورة^(١) :

« راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نقيم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل : (إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما)^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حُكْمَهُ إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو لإيهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : (يحكمكم به ذوا عدل منكم)^(٣) . فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد والحدّث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟ ! . وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدّك عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حرّبه ، وقد حكمتم في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حُكْمَهُ في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا^(٤) وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عز وجل فأبوه . ثم كنتم بينكم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينكم وبينه المودعة والاستفاضة^(٥) . وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإمن أقرّ بالجزية . ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرّ على إلى حربهم ، وفنك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان . وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً ، يدفعهم إلى ذلك

(١) الطبري ٤/ ٤٧ .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتماها : (وإن غنم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) .

(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم ، وتماها : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما

قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) .

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تغي حتى تنفي إلى أمر الله فإن قامت فاصلحوا بينهما بالعدل) .

(٥) الاستفاضة : المودعة .

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي . وحرر قوص بن زهير السعدي والمُسْتورد بن عُلْفَة ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تنقد حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويسئبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا – التي الرضا بها والركون إليها والإيثار إليها عناء وتبار (٢) – آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإنْ مَنَّ (٣) وضُرَّ ، فإنه من يُمَنَّ وَيُضَرَّ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود في جناته » .

وينتهي التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدي الخوارج إليه في الظلام ، فقطعته طعنة نَجَلَاء ، ويُسَلِّم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرَّتْها وذللَّها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنَّة في كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمَّون كل خطبة تخلو منه بَسْرَاء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهَاء (٤) .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٦/٢ .

(١) الطبري ٥٤/٤ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلقونه على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب ^(١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه في نفوس سامعيه صَبّاً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار ^(٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تتقدّم على الخلفاء ، يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » ^(٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبيّة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عدّاً على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » ^(٤) . وما يُروى له — إن صحَّ — قوله ^(٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحياً ، ومن وحشة خلائكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لو بكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابته ، وكان يستنفر منه حين يلهم به أحد محدثيه ^(٦) ، كراهية لنتشبه بالكهّان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جدّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبّسى حين قدم عليه من غزو مكرّان الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سهّلها جبل ، وماؤها وشلّ ^(٧) »

(١) الطبرى ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة العثان

ابن عفان في البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون

الأخبار ٢٣٥/٢ .

(٢) زهر الآداب ٣٢/١

(٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١ .

(٤) الحيوان ٨٩/٤

(٥) الطبرى ٤٩٨/٢

(٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥

وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .

(٧) وشل : قليل .

وتمرها دَقْل^(١) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثُر الجند بها جاعوا ، وإن قَلَّتْ بها ضاعوا . « وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجَّاع أنت أم مخبر^(٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُشْكرون السجع على محدِّثهم . وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلوخلوًّا تامًّا من السجع إلا ما جاء عصوا في الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لارابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يحول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها الثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولّدون ويفرّعون . ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي وسّعت جَسَنَات الثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من اللسانِ

والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(١) دقل : ردى .

(٢) انظر في هذا الخبر الطبري ٣ / ٢٥٧

والفصاحة ما مَلَكَ به أزمّة القلوب ، وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنّغى له الأفتدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريرش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، لِيَسْجُزَى بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة - كما قدمنا - في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُدَلِّم . وفي أخبارة أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات ^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خُطْبِهِ وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثرُ هذه البقايا مما خُطِبَ به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهي تمضي على هذه الشاكلة ^(٢) :

« الحمد لله أحمدده وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودُنُوٍّ من الساعة وقُرْبٍ من الأجل . مَنْ يَطْع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غَوَى وفرطَ وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل وخافة من ربه ، عَوْنٌ صِدْقٌ على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : (ما يُبَدِّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) ^(١) وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكشفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم . »

والخطبة موعظة رائعة ، يستلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . لتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشقى على الهلاك ويجمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنن في الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعجب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، لينشروها في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهي تقف

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينباع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير ، وهو خير تطبيع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط (١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عباد الله — بتقوى الله ، وأحشاكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيت لكم ، فلمني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم . كسحرة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول ربا أبدأه ربا عمي العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة (٣) والسقاية (٤) . والعمد قود (٥) ، وشبهه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد ينس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحفرون

(١) البيان والتبيين ٣١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤ .
 (٢) السدانة : خدمة الكعبة .
 (٣) السقاية : سقاية الحجاج .
 (٤) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل
 (٥) الموضوع : ساقط ومحرم .
 القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسيء ^(١) زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يحذونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فترّد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جُمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطئنَ فرشكم غيركم ، ولا يدْخلنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ^(٢) وتمجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ^(٣) . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عَوَان ^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلّتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئٍ مسلمٍ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله اتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ^(٥) ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مؤاليه فعليهِ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه

عاماً ، ويحلّونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلوه .

أى هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٤) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة ،

(٥) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر الحجر :

أى أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجما .

لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ^(١) ولا عَدْلٌ^(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
 وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب بِلَيْمٍ بالحمد لله والشهادة
 والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها
 الدين الخفيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد
 كانوا مفسكين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال .
 وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغِي بعضها
 على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دم القتل إلى الدولة
 فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ
 بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين
 وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردّها على صاحبها ، وأن على
 كل مسلم أن يصرّعي أخاه في ماله ، فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرّم
 الربّا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب
 المدنيين له رِبَاء . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم
 أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن
 عبد المطلب . ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ،
 وأوجب في قتل العمد القسود ، ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضى
 الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بغير .
 كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ،
 واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حرّم : ذو القعدة
 وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها ،
 فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يَحْفَظ لها كرامتها كما
 يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق
 وإحسان .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . ولإنه لعهدٌ مِّنْ نَّمَتَـهُ عاد كافرين آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاجر . فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عندنا ولا عربى قحطاني ، بل لا عربى ولا أعجمي ، فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهي معيار التفاضل . وبلغت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبته : وأن للمورث أن يوصي بالثلث من ماله . ويُرسى قاعدة مهمة في شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر : فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخثولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبين في خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغي أن يأخذوا أنفسهم به ، في سلوكهم حتى تزكون نفوسهم ، وفي عبادتهم لربهم وتقواهم حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا في مراقى الكمال الإنساني .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران في دقة حسن منطق الرسول في خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برأه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعمته وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التعقيب ^(١) ، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القص ، وهجر الغريب الوحشي ،

(١) التعقيب : التفسير وهو التكلم بأقصى

ورغب عن المجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسْتَر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه الحجة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قديم ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقْصُ له خصم ، ولا أُنْفِجَ خطيب ، بل يبدؤ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفساجج^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لنظماً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فَحْوَى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رَسَمها ، وفجَّرَ يابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحسٌ دقيقٌ تنبيهاً فيما رَوَى عنه من قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبِثَتْ نفسي ولكن ليقل : لَنَقِيسَتْ نفسي »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الظاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُسْتَكْره ، اللفظ الذي يحبب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقاؤه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في الذروة من الفصاحة والبلاغة ؛ إذ سَرَى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(٤) الحيوان ١/٣٣٥ ولقيست النفس : غشت .

(١) الفلج : الفوز .

(٢) فحوى : دلالة .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه به ، وقد نوّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسنه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه — لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمِت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبى أنت وأمى طيبتَ حياً وطبتَ ميتاً . وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة ^(١) التي قال فيها : « من كان يعبُدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كلُّ نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه) . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدٍ لم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة في ستقينة ^(٢) بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراع ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطبَ في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمّد الله وأثنى عليه وقال ^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حقٍّ فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطلٍ فسدّ دوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٤٤٤/٢ وزهر الآداب ٣٠/١ . (٣) عيون الأخبار ٢٣٤/٢ والطبري ٤٥٠/٢ .

(٢) الطبري ٤٤٥/٢ وما بعدها .

الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأخذت تتجلى موافقه العظيمة وآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعوني عقالاً ^(١) مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه » . وجاهدكم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم . وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله فى خطبة له ^(٢) :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرت به ، وضرائب أدتدوها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قدركوها لمن خلفهم ، فذلك مساكنهم خاوية : وهم فى ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ^(٣) . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرٌ بخير بعده النار ، ولا شرٌ بشرٌ بعده الجنة » .

واستن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو فى وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمشلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا ، إلا

(٣) الركز : الصوت الخفى .

(١) المقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

لما كلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول ^(١) :

« أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغفلوا ^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمشلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقفروا ^(٣) ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثّلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يظنّ أن التني مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله ^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفيّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّ به منه ويتخذ موضع مشورته ، حتى توفّي وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في راحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم ، مجنداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتسمّ فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكألى والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شِدْقِه شاء ^(٥) ، فما هو إلا

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(١) الطبرى ٢/٤٦٣ .

(٢) تغلوا : تخونوا في الفىء .

(٣) تقفروا : تستأصلوا وتقطعوا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواعظه (١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرركم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسّم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفسدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسَبِّحُونَ خَلْقُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتوح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمشاركة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الخفيف في أقطار الأرض ، وهو ان ينتشر إلا بالقوة التي تُعَزِّزُ الحق وتُعَلِّي سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبْرِزُ هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصحبوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢) :

« أين الطُّرَّاء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومُؤَلِّي أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ » .
ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبرى ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبرى ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يَصْلُحُهَا إلا الرجل المَكِيثُ (١) الذي يعرف الفرصة والكف » .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرْتِجَ عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتِجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس (٢) :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ (٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّيتُمْ . ألا وإن الدنيا طُوبِتْ على الغرور ، فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جيدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ومَتَّعُوا بها طويلاً ؟ ألم تَلَفْظْهُمْ ؟ ارموا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : (واضربْ لهمْ مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرياح) وكان الله على كل شيء مُقْتَدِرًا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » .

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحَدِّثُوا فَتَنَ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِرَهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

ولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلَّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

(١) المكِيث : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

(٣) الطبرى ٣٠٥/٣ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفيين . ثم كانت خدعة التحكيم : وخرج عايه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً منوهاً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواظبه قوله ^(١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وأذنتْ بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلتْ وأشرفتْ باطلاع ، وإن المضممار ^(٢) اليوم والسباق غدأ . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أملة قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أملة ، ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله خسر عمله ، وضرَّه أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حاثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة ^(٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغيير على أطراف العراق :

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف ^(٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شئت عليكم الغارات ... فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يُرمى وفيتاً يُستهَب ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَوْنَ ولا تغزُون .. قد ورَّيتم ^(٥) صدرى غيظاً ، وجرَّ عتmoni الموت أنفاساً ^(٦) ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان . »

(٥) ورَّيتم : ملائم ، وأصله من وري القمع

جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء ونحوه .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المضممار : الزمن الذي تضمّر فيه الخيل

للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خَلَّفَ على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما يُنسَبُ إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبَّه إلى ذلك السابقون^(١) ، واختلفوا في وُضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٤) ، وأقرَّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسَّمه باسمه : نهج البلاغة^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات^(٦) الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليٍّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمئة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس^(٧) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت مياديتها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن خلكان، وراجع مرآة الجنان للياقعي ٥٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٣ . | (٤) كتاب الرجال (طبعة بومباي) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ . |
| (٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢٠١/٢ . | (٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ . |
| (٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٢٢٣/٤ . | (٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ . |
| | (٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ . |

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلَّ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق : خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسّم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطور وكتاب مسطور فى رق منشور) . وتردّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس) وقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة^(١) ، وقد حثّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تدّأيتنم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقله كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفظوه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته — كما قدّمنا — بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأُبَيّ بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهمم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عتبة الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع مواعيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورها مما لا يرقى إليه الشك . وهي تفتتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطوُّرها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطَوَّى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي)

يعلموها سلطان الله الذى يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التى تربط بين أفرادها ، وهو يوضح هذه العلاقات فى داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التى يُشرف عليها الله ورسوله ، وهى علاقات وثقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الدينى الجديد ، الذى يُلغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالتأثر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا تأثر يجر تأراً بل عقاب عادل بالمثل فى القتل وغير القتل .

ونخاضى فى تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التى كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتى نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوكة يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، ومن دعاه النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمراءها وولاة شرق الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدته مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغنائهم وشاهدتهم وعشيرتهم وببيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبى بكر وعمر التى كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم فى

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى

والنشر) ص ١٣ .

والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدّي تعاليم الدين الخفيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش وبيعت مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعِين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمّنهُ نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّاً وعدلاً فذلك علمي به ورأى فيه ، وإن جار وبدلاً فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتَحُ كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

عن مراسلتهم في كل ما بهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضوع مشهور ، وفيه يقول (١) :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها : أنه لا تُسَكَنُ كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُسْتَقَصُّ منها ولا من حيزها ولا من صليهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْرَان . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُنْثِرَ عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضي في البيان والتبيين على هذا النحو (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسُنّة متبعة ، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك ، فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حَيْفِكَ ، ولا يخاف ضعيف من جَوْرِكَ . البيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر . والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً حَرَمَ حلالاً أو أحلَّ حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهُدَيْتَ فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يَبْلُغَكَ في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرفِ الأمثالَ والأشباهَ وقِسِ الأمور عند ذلك ، ثم اعمدْ إلى أحبّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعلْ للمدعى حقّاً غائباً أو بينةً أمدأ ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك

(٢) البيان والتبيين ٤٨/٢ وما بعدها .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عُذولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حَـدٍّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظَنِيناً^(١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرَأَ عنكم بالبيِّنات والأَيِّمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذَّى بالناس والتنكرَ للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجرُ ، ويُحسن بها الذُّخْرَ ، فإنه من يُخلَص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكفِّهِ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتَكَ الله سِتْرَهُ وأبدى فعله . والسلام عليك . »

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضاائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أملاً ينهى إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تستنفي عدالته فلا تصح شهادته . ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذَّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده تُعَدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخِّدوا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا فصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيّاً بعيداً لم نكن مغالين . إذ وسَّعت كل الحاجات السياسية التي جدَّت ،

(١) ظنينا : متبهاً .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٦ .

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بمآسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلام . وخلفه على فكثر الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيقة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي نُذِّل لها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمري من بينهم في ذلك القيدُ المعلى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا فصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي^١ ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودمائة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع ومادخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلّفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا في تجميلها وزخرفتها^(١) ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليرى عن الزبير بن العوّام مثلاً أنه خلّف وحده ألف عبد وأمة^(٢) . ومنذ أن دوّن عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً^(٣) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعدّ لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة . (٣) الفخري ص ١٢٧ واليعقوبي ٣٥٨/٢
باريس) ٢٥٤/٤ .
والأغاني ٢٢/٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .

الانتفاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة^(١) وراجلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣) ، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلى والجواهر^(٤) .

وطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في هوا برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُني بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التي نقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هي الثقيل الأول والثقل الثاني وخفيف الثقيل والرّمّل وخفيف الرمل والهنّزج ، وميّزوا مسجّري الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبابة وخفيف رمل بالبنصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة اقتراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يؤثّرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسي بجانب غنائهم العربي^(٥) ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربي نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة . وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي وُلدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسي . وكانت العادة أن يبدأوا

٢٧٨ .

(١) ابن سعد (طبعة أوروبا) ١٢٦/٤ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ،

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٣/٦

٣٢١/٨ .

والمعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ .

(٦) أغاني ٣٧٨/١ .

(٣) أغاني ٢٦٢/٩ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ ،

بالغناء العربى ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا أَلحانَه فى غناء العرب . ومما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التى يتردد ذكرها فى هذا العصر تديم مثل الصَّنَج والمِزْهَر والقَضِيب والدَفَّ والطبل والمِزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرفت فى العصر الجاهلى .

على كل حال نهضت المدينة فى هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها فى ذلك مكة كما سئرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُسبقا إلا قليلا للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التى استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك فى ذلك عامتهم وخاصتهم وعبيادهم وزهادهم ^(١) وقضاةهم ^(٢) ، حتى لتؤثر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنى بها فى إمارته لهم ^(٣) . وكان من أشرفهم مَنْ جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء ^(٤) ، وقد تخرج فى هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة فى هذا العصر طُوَيْس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن ^(٥) وأول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام ^(٦) ، وسائب خاثر مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربى ^(٧) ومعبود وهو إمامهم فى الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائى وعطرد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب فى الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وجميلة وسلامة القيس وحباة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٤٢٣٨/٨٠٢٢٢/٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٤) السعوى ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، ويَعُدُّ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات^(١) ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار ، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالحوقات الكبيرة^(٢) ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة^(٤) ، ويقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنميته وترقيه ، ورقبه إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرّفه والنعيم . وكان يلتقي في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لابنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشارات وحركاته . وتطّفق كتب الأدب بدعاياته وفكاهاته^(٦) .

ولم في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدن المرح فيه والظرف وعلمن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْنَةُ بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصفيف لحمة شعرها . كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جممتها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تنفسح في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المذهب . ولعلنا الآن نفهم

(٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي)

٨٣/١٧ .

(٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤

وما بعدها .

(١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ .

(٣) أغاني ٢٢٦/٨ .

(٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ .

(٥) أغاني ٢٠٩/٨ .

حزن أبي قَطيْفة الأموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول^(١) :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَاءُ بينهما أَشْهَى إلى القلب من أبواب جَبْرُونِ
ويقول^(٢) :

أَقْطَعُ الليلَ كُلَّهُ باكتِئابٍ وزَفِيرٍ فما أكاد أنامُ
إلى أشعار كثيرة^(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرّباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسريّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقهاء المشهورين عروة ابن أدينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أُرطاة وابن هرّمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .
(٣) أنظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .
الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرَى في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترفة في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة انتهت بهما ، ولا تَبَقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بني أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحرص^(٢) وموسى شهاب^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وترف البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثَمَّ طبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغاني تُصَحَّبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع في جوانب كثيرة من حيث الكم ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنيةً يوقعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحَسِّن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامه القس ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

-
- (١) أغاني (سأسي) ١٤٤/١٣ . (٤) أغاني ٤٠٨/٤ .
 (٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٧/١ و ٢٤٨/٤ . (٥) أغاني ٢٣٨/٢ وطبعة السأسي ١٠٧/٢١ .
 (٣) أغاني ٣٦٥/٣ . (٦) أغاني (سأسي) ١٠٩/٢١ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الحديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تغرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجورهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فرض لأهلها من أعطيات ورواتب في دواوين الخلافة وما قَسَم فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُنْفَى عليهم كل سنة بما يسدُّ خَلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن تقلُّ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرقط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنائين من الفرس^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته^(٣) . وقد عني كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أثروا في الفتوح باستنباط العيون فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجَرِّى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قَصَب من رصاص انتهى بفواره تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم^(٥) .

ولم تغرق مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخرز والسندس والديباج والخلل المشاة

ص ١٦٤ و الأزرق ٤٤١/١ وما بعدها .

(٥) يعقوب (طبعة أوروبا) ٣٥١/٢ .

(٦) أغاني ٦٦/٥ .

(١) أغاني ٢٨١/٣ .

(٢) أغاني ٢١١/١ .

(٣) الأزرق ٣٩٢/١ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)

على كل لون^(١) ، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم^(٢) . وبالع النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلي وصنوف الجواهر^(٣) .

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرقيق الأجنبي الذي نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدّمهم وكبارهم في مكة ابن مسنّج الذي اشتهر بأنه أول من غنّى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب » ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطيّة والأسطوخوسيّة ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبّحه من الثبرات التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد^(٤) . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة ، ومن أنبهم وأشهرهم ابن مُحَرَّر ، وهو أول من غنّى الرَّمَل^(٥) ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيْس وغيره من مغنّيه^(٦) ، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربي ، والغريّض وكان لا يسأحق في الندب والنياحة ، والأبجر ، والهذلي . ومن مغنيات مكة سُمَيَّة ، وبَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة . ومكة إن لم تُعرَفْ بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادي الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشغَفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٦) أغاني ٣٢١/٨ .

(١) أغاني ٦٤/٥ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن

سعد (طبعة أوروبا) ٣٤٣/٨ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جُريّج وقضاتهم من مثل الأوقص^(٣) المخزومي . وتبعت ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح ، وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثُريّا^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعَقِّدُ فيه ندوات يؤمّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغريص ويحيى قَيْلَ وسميّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كلّ ليلة على أوتار العيذان والطناير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدّ هذا كله شعراء مكة لأن يجري جمهور شعرهم في الغزل والحب ، وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالهجاء والمديح عبید الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذته مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومدّاحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر . ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غرار العرجي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة ، ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنّه غناء ابن سُريّج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تبرّقصه^(٦) » .

وكل ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبّ انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ٢٠٩/١ وما بعدهما

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تهادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونُظائرهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشَمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالتقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يُروى عن العسرجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفيند^(١) . ويلقانا هناك شاعران كلنا بالغزل هما محمد بن عبد الله النيمري ويزيد بن ضبّة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يقدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٢) الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدًا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشطّاف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٧/ ٨٥ .

(١) أغاني ١/ ٣٩٣ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نتهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بنى أمية في نجد وبادي الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبت ظهور بعض قطّاع الطرق من أمثال طهّمان^(١) بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبت غير قليل من شعر الفخر والمجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البرصاء الدُبَيّاني لعقيل بن عُلمة وأرطاة بين سُهَيْبَة ، ومهاجاة^(٣) ابن مَيْسَاة الدُبَيّاني للحكم الحُضْرِي .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثم كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُسعد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تنسّذ به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدلين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الديني راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُثمّال الصدقات كان يقسوفى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إمانة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سَعَرَت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حيّدته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار المصوص للسكري ١٠٠ . (٢) أغاني ٢/٢٩٨ . (٣) انظر جهمرة أشعار العرب (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٠٥ . (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/١٢ .

بِرمَّتْهَا . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعفاً في مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بني عُدْرة وبني عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُروة بن حزام وقيس ابن ذَرِيح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكاً في حقيقته ، وهو يصور بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبياً ، وكان عرب نجد وبوادي الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهِ صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسب الأدباء والمؤرخون إلى بني عُدْرة ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرى وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرتهم وأهلبيهم ، ودائماً يُصنّف الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجِي حقاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادي الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تترجح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلى واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتبها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَـتَحَت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حبَّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفَر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث وانفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامة ابن بَحْدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارت قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَج رَاهُط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْر بن الحُباب السُّلَمي ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَيْر ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان^(١) . ووالى قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين^(٢) وكان بين مَن أسرتَه قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشاك إلى جانب نهر الثرثار . ويثار له زفر في موقعة مَرَج الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيس الجزيرة رجاء أن تحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل احتجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففضى عليه . وبذلك أنقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السُّلَمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائرٌ بقتلى أُصِيبَتْ من سُليْمٍ وعامرٍ^(٤)

(١) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٢١/٢٠

(٢) أغاني ١٢٨/٢٠

(٤) يريد الأخطل اليوم الذي قتلت فيه بنو

وما بعدها .

تغلب عمير بن الحباب السلمي .

(٢) أغاني ١٢٧/٢٠

وكان الجَحَافُ ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحُباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سَوْفَ نَبْكِيهِمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ وَنَبْكِي عُمَيْرًا بِالرِّمَاحِ الْخَوَاطِرِ^(١)

ومضى الجحاف ، فأغار بقومه بني سُلَيْمٍ سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البِشْشَرُ ، فنكَّل بها تنكيلاً فظيعاً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَرَ بطون
حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل ، أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير
أنه موَّه على بني سُلَيْمٍ حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلوه وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمَّنته ،
غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْشَرِ فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألَّه
الجَحَافُ بعد ذلك وَنَسَلَكَ^(٢) .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جَدَّةٌ بين
قيس من جهة وكلب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثَّارُ ، حتى أصبح
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار ، واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبليَّة على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء . ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْلِ والثُّبُورِ ،
ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري ينشدها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها .
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤) ، فقد تراص شعراء كلب من أمثال جِوَّاسِ
ابن القَعَطِلِ وعَمْرُو بنِ الْخَلَّاءِ ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ،
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجِثْمُ

(١) خطير الرمح : اهتز في يد فارسه . (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٨ / ١٢

(٢) أغاني ١٩٨ / ١٢ وما بعدها . وما بعدها و (طبعة الساسي) ١١١ / ١٧

(٣) الطبري ٤١٨ / ٤ . وما بعدها ، ١٢١ / ٢٠ وما بعدها .

القشيري وابن الصنّار المحاربي ، وأخذ كل فريق يسيّس سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب الهجاء والفخر التهاوبا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بني شيبان ونابعهم ، وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يُبَسِّئَ لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية . حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطِّطَت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شَرْقِيَّهَا والعدنانية في غَرْبِيَّهَا ، ولم تلبث أن حُسِّدَت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سُبْع لكتانة وخلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغَسَّان وبَحْجِيلَة وخَشْعَم وكِنْدَة وحَضْرَمُوت والأزد ، وخطة أو سبع لمدحج وحمير وحمّادان وخلفائهم ، وخطة أو سبع لتميم وسائر الرِّبَاب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومحارب والنَّسِير وضبيعة وتَغْلِب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هَجَر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع^(١)

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي* ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْنُفُ الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والحوَرَنق والسَّدير والغَرِيَّان ومتنزهات ودِيَرَة كثيرة^(١) . وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الحيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيهم يسمى دِيَلَم ، فنُسبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، وقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحـنٌ لأهل الكوفة . ويخرج على بحروشه إلى لقاء معاوية في صِفِّين ، وتستخدم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفتتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُستورد ابن عُلَافَة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلقه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرَّ حجر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، ف وقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت . المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة (٣) طبرى ١٤٣/٤ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجْرًا وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضةً شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة التشيع لعلّ وبنه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحّاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بآبى عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطرّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخذلوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبني هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غايته فيقتل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكربلاء على نهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطرّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نصّرتهم ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربٌ من قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُموّ التّوابين ، وولّوا أمرهم سليمان ابن صُرْد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عَمَيْن الوردية (رأس العين) في وسط الجزيرة بجيش أموى على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

ينكّل بمن كان هواهم مع بني أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السّلولي (١) :

دَعَا يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبَلْتُ كَتَائِبُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيعِ (٢)
وَأَبِ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مُسْتَقَرِّهِ بِخَيْرِ إِيَابِ آبِهِ وَرَجُوعِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمُهْتَدَى بِهِ فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعِ
وَلَا اسْتِجْمَعُ الْأَمْرُ لِلْمُخْتَارِ أَعْدَاءَ جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَقَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازَر» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّبْرِ ، وَدَارَتْ الدَّوَائِرُ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيَوْلَى ابْنُ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مُصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنْشُبُ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعْلُو كِفَّةُ مُصْعَبٍ ، فَيُقْتَتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةُ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

ونعني بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج
وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على
بني أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية (٣) . وكان سادة هذه
البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولادة بني أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة
وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة
على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه
كثير من الموالى والقرّاء . وتنازله الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم
وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل
إلى ملك الترك مستجيراً ، وقتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين
وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة
منشئاً نظرية شيعية جديدة نسبت إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته
يستعدونه على بني أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

(١) طبري ٥١٠/٤ .

زرارة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس

(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .

الكندي وبيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت

(٣) من بيوت الشرف العريقة في الكوفة بيت

ذو الجدين الشيباني .

القتال يستحضرُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد ، وصُلب بسوق الكُنَاسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن ساداتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يَكُونُون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطَّرمَّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان بجوارهم من يُقبَلون على اللهو والخر ، أمثال الأقيشسر الأسدي ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إلياس وحلَّته .

ولم تنورط الكوفة في العصبية القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر الهجائيين في العصر هو الحكم بن عُبَّاد . وقد مضى كثير من شعرائها يُعَسِّى بمدح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطَّط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثرت مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعت القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لقيم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت العين تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولأهل هجر بخطة عبد القيس ، ولأدت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق المِرْبَد ، وقد تحولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقة .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذى جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزيدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الرّط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصهبانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيناً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيناً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل الهيرات الكثيرة التي اشْتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلّة ومعقل .

وأخذ نزلها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشَخِّنون بقيادة الأحنف بن قيس التميمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلی ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفتين ، وظلت والية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي ، ونراها تُدْعَن للمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجتراح العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عُثْمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشَغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغِلَت الكوفة ،

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري (٢) طبرى ٣/١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .
 (٣) طبرى ٣/٣٥٨ وما بعدها .
 (٤) طبرى ٣/٥١٠ - ٥١١ .
 (١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري ٣/٣٥٨ وما بعدها .
 (٢) طبرى ٣/١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .
 (٣) طبرى ٣/٣٥٨ وما بعدها .
 (٤) طبرى ٣/٥١٠ - ٥١١ .
 والغفرزدي ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الخصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بآسَرهم إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدتين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويباع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضطرَّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أَرْزِه قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد و تميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسنِكمته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتتبعُ البصرة ابن الزبير ، ويولّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجهُ إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تنغلى بالعصبيات القبلية . وولّيتها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده علا شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجئحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي . ومعروف أنه كان يُنِيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . وولّى على أصحابان ختَنَه مالك بن أسماء الفزاري . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فيعظم شأن قبيلة الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، لما يستتبع من المغام السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، ف عزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولّى عليها عدى بن أرطاة الفزاري ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ، فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما وآتى عليه عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُشِرْ عليه الأزد وربيعه وحدهما ، فقد أثار عليه أيضاً تيمماً وشاعرها الفرزدق . ويكلى الخلافة هشام ابن عبد الملك ، فيعزل ابن هبيرة ، ويولّى خالداً القسري لنحو خمسة عشر عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطّر الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ، وعادت إلى سابق مكانتها . وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية ، ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحليّين اللذين تحدّثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربّعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبقى عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تنمّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نمت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضيتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . وبلغنا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . وبلغنا أيضاً شعراء يتغنون بالخمير مثل حارثة بن بدر الغداني التميمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جُند البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحو خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان ، فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

ضراوة في نفوسهم أن قوَّاد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسَنَدُ إليه ولاية يخصُّ قبيلته بالغنم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهي موجدة أدَّت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلو فيها القبيلة كما كان يعلو الثَّار على كل شيء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس الموقف الذي كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشَغَلُونَ أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريعة ، وهي حرب عادت فيها العصبية جَدَّةً .

وقد بدأت هذه العصبية تَسْتَعْرِ هناك في نفس الوقت الذي بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزدي وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعاة عبد الله ابن خازم السُّلَمي القيسي . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلناً ولائه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخُلَ في طاعته على أن يُطْعِمَهُ خراسان سبع سنين ، وأتى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التميمي ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتِل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بني أمية ، وولَّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي . وضمَّها إلى الحجاج ، فولَّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة ، فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذي طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان بمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبِيبِئ التميمي ونهار بن تَوْسعة اليَشْجَرى البكرى وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ ، فيولَّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويعزله الحجاج لعصبية الشديدة للأزدي

وأحلافها من اليمن وربيعه ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، ففضى يفتح في طخارستان وأرض السُغند وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك ولى الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حانقاً على الحجاج وعُمّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفرّاً من آل الأهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبي سُود . وتزعّم وكيع حربه ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغیظة منذ عزّل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حسيان النبطي ، وأخيراً خذلته قيس إلا نفرّاً من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبي سُود ، فأخذ الناس بالعنف ، فعزله ، وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يتّبع سياسة قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وجبسه لتأخره في أداء الفتيء ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه ، فقال إن الفتيء في بعض حروبه كان قناطر من الذهب ، وزعم أن حُمُسه بعد أن أخذ كل محارب حقّه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أدائه جبسه حتى يؤدي ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجم الأزد ، وقد ولي عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُطْلَها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسري وإلى انعراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبيات القبلية التهاباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُلَمي القيسي ، وخلفه عليها الجعيد بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي . وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالي ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمي هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالي . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسَمري للمرة الثانية فضيَّقَ الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وعبثاً يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بني أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتدمت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية ، وحيثما وجدت المضرين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن مَعْدان الأشقري ونهار بن توسعة وثابت قُطْنَة والمغيرة بن حَبِيبَة . ولعل من الطريف أن نعرف أن مَن هُولا الشعراء مَن كان فارساً مقداماً مثل ثابت قُطْنَة وكعب بن مَعْدان ، وكان من هولا الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتمغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة الشكري^(٢) ، وأعشى همدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون يحنّون إلى ديار

(١) طبري ٣٦/٦ وما بعدها والأخبار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ٣١٩/١١ ، ٣٢٥ .

(٣) أغاني ٣٤/٦ وما بعدها .

للدينوري ص ٣٦٠ .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلَمُّ بهم وهم ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الربيع في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمّنونه حبسهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضّة على نحو ما نجد عند الصمّة القُشَيْرِي^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما أنبت منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبته بيئة الشام في هذا العصر هو عدىّ بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَجٍ راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

وبما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعر الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين بمدحهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابنُ قيس الرُّقِيَّات ونَصَيْب والأحوص وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (ساسي) ١٦٢/١٩ وذيل الأمال (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ وما

بعدها

ص ١٢٦ .

ابن يسار النسائي وطَرْيَحُ الثَّقَفِي ويزيد بن ضَبَّةَ وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعِي والعُجَيْرُ السَّلُولِي وأرطاة بن سُهَيْبَةَ وعقيل بن عُلْفَةَ وابن ميسادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمي وعبد الله بن الزبير الأسدي وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا في الشام ، إنما كانوا يُلْمَتُونَ بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم يُجَرِّحُونَ الحَقَائِبَ . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر في هذه البيئة هي العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره في موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة في حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام البينية ، ولذلك لم يكثر الشعر في هذه الحروب ، غير أن نفرًا من المضربين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به في بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبي العيال الهذلي حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان في جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموي القرشي نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر البينية

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المضرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار ، فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذي لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تنهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظم من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبثوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى ززمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا تترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان بمدحونه لأخذ نواله ، وكان بجرأ فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصِيبَ جميل وأيمن بن خُريّم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان، يَرَحَّلُ إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحت قبايل
يمنية، ومن ثم لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعى أن يكون النشاط الشعرى في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التى تدلّع ألسنة الشعراء على نحو
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء
لمديح ولاتها على شاكلة أبى دَهْبَل الجهمى الذى اشتهر بمدح ابن الأزرق
المخزومى والى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعر يجرى على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدى الذى ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ١١/٢١ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٢٨/٧ .

الفصل الثاني

مؤثرات عامة في الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرُّبها وأثر ذلك في اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها في الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه في العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرَّب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يَعُدَّ اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيا لتعرُّبها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتنسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تَمَّت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ، فإن العرب اختلطوا فيها وفي غيرها من المدن بالأجانب الذين قدَّموا لهم خدماتهم في الحرف والزراعة والتجارة ، وغصَّت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم في حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إماءهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسَّراى والحوارى . وظهر أثر ذلك في أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهمات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثراً الموالي به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من السنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشِيَّة وضُحَاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن نُحِيت إلى حد كبير — بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية — فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضرّين ويمَنّيين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسّطة ، حتى يفهم عنهم الموالي ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعربون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويَعْرَضُ علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على السنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملئى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِشَاء «خياراً» والمجدوم «ويَندى»^(١). وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»^(٢). «لعمر بن عبيد الله بن معمر و«سُوَيْدَان» لسويد بن منجوف السَّدُوسِي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلَبان» لآل المهلب. ومما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يُروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاها نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المُزْرِيَّة، فتجمّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيس؟ أي ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم^(٣):

آبَ اسْتِ نَبِيذِ اسْتِ عَصَارَاتِ زَبِيبِ اسْتِ
سُمِيَّةَ روسِيِ اسْتِ

واست: من أفعال الكينونة، وآب: ماء. وسُمِيَّة: أم زياد. وروسِي: الخنزيرة. أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسُمِيَّة الخنزيرة، ويريد البَغِيّ. ويلاحظ الباحث أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس، ولذلك سمو البطيخ «الْخِرْبِز» والسَمِيط «الرزق»، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء^(٤).

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريير اللذين عاشا في البصرة، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البيذق والبياذق» المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْمِذَق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً، يقول مخاطباً جريراً^(٥):

(١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها. (٤) البيان والتبيين ١٩/١.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما (٥) نقائض جريير والفرزدق (طبعة بيثمن) بعدها.
(٣) ص ٧٨٧.
(٢) البيان والتبيين ١٤٣/١.

ونحن إذا عدت تميم قديمها مكان النواصي من وجوه السوابق
منعتك ميراث الملوك وتاجهم وأنت لدرعى بيدق في البياذق
فهو يجعله بيدقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم في إحدى أهاجيه
للفرزدق كلمة « الروذق » الفارسية بمعنى الحمل المتوف وبره بعد سلقه ،
ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول في
جعثن أخت الفرزدق^(١) :

لا خير في غضب الفرزدق بعدما سلخوا عجانك سلخ جلد الروذق
سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهر جعثن مثل حر البيذق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا
كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه
شعراء من الزنج مثل رباح^(٢) ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكنات هؤلاء الموالى ، فإن
كثيرين منهم كانوا يجردون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد
في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجرى على
اللسنة عامتهم من هذه اللُكنات ، حتى لتُفسد العبارة العربية إفساداً ، فن
ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُسُد السلطان ؟ فأجابه :
« شر يكاننا في هواها وشر يكاننا في مداينها ، وكما تجيء تكون » . ولم يفهم
الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تعنى ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع
الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا
بالأهواز وبالمداين يبعثون إلينا بهذه الدواب » ، فنحن نبيعها على وجوهها^(٣) .
ومن ذلك أن أم ولد لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجرُدان في عِجان أمكم »

رياح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان

(١) النقائض ص ٨٤٥ .

فك هامش ص ٣٦ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٦١ .

للجاحظ وأما ابن الشجرى (طبعة كرنكو)

١٩٤ / ١ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو

فأبدلت الذال من الجرّذان دالاً ونطقت العجّين عجّاناً . وقال بعض الشعراء
في أم ولد له يذكر لُكنّتها :

أَوَّلُ ما أسمع منها في السَّحَرِ تذكيرُها الأُنثى وتأنيث الذكر
والسوءة السوءاء في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر^(١) . وكانت آثار من هذه اللكنات تَجَرى على
ألسنة فصحاء الموالي ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي ، حتى
أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الحُلّص ، نذكر من
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكنّة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين
همزة والطاء تاء والسين شيناً^(٢) ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةً إذا غيّر السُّلطانُ كل خليل
فقال : « زاده الشلتان^(٣) » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً
ينشد شعره^(٤) . وكان أبو عطاء السندی وهو ممن عاشوا في العصرين :
الأموي والعباسي يبذل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب
ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبّي غلاماً ينشد شعره^(٥) .

ولم تجر هذه اللكنات على ألسنة الموالي وحدهم ، فقد تسربت منها بعض
الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،
على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد وإلى العراق ، إذ استبقاه
أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبذل الحاء هاء
والقاف كافاً ، فإذا قال : أَحَدَرَوْرِيُّ أَنْت ؟ قال : أهروري أَنْت ؟ وإذا قال
قلت لك قال : كلت لك^(٦) . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سلُّوا
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله^(٧) :

-
- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ٧٣/١ . | (٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ . |
| (٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة
السامي) ٩٩/١٤ . | (٥) الشعر والشعراء ٢/٢٧ وراجع الأغاني
(طبعة السامي) ٧٩/١٦ . |
| (٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكامل للبرد
(طبعة رايت) ص ٣٦٦ . | (٦) البيان والتبيين ٢/١ . |
| | (٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ . |

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أَضَعْتَ وكلُّ أمرك للضياع
ويُروى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته:
« إن ابنك كما وصفت ولكن قَتُومٌ من لسانه »^(١)

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترن بهذه اللكنات
لحنٌ كثيرٌ بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرتُ كمن ليس غادٍ ولا رائجُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائجاً »^(٢) . ويظهر أن اللحن شاع
على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، ومما
يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لص » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين
قُتِل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتِل أبي فديك » وقال مرة :
« يا غلام ردُّ الفرسان الصادِّان عن الميِّدان »^(٣) .

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لَنرى الحجاج المعروف بفصاحته
ولسنته ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعمر : أسمعني
الحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أسمعني
الحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك
أشنعُ له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ
ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .
وكأنه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع
لي لحناً أبداً^(٤) . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُروى

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبیون فإننا رمضانیون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل ^(١) :

وَالْحَنُّ النَّاسِ كُلَّ النَّاسِ قَاطِبَةً وَكَانَ يُؤْلَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطْبِ

وَيَرْوَى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبى بُرْدَةَ والى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلُ به واقصد لحجَّتكَ ^(٢) ، ومن عُرِفَ فى خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم ^(٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك فى دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّمُ اللحن كما يفخِّم نافع بن جبير الإعراب ^(٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة فى البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحوياً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ، واشتهر فى هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحدِّثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعها حتى قال فيه بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكنَّ عبد الله مولى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال ^(٥) .

على أن الفرزدق لم يُعرِّفْ بضعف فى الحسِّ اللغوى لأنه نشأ فى البادية، إنما الذى عُرِفَ بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن مثل الطُّرُمَاح والكُمَيْت . ويسجِّل الرواة على الطرماح أنه كان يستخدم الألفاظ البدوية الغربية فى شعره استخداماً غير دقيق ^(٦) وأنه كان يستكلف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين فى شعره ^(٧) . ولم

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢١٧ .

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .

(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغاني (طبعة دار

الكتب) ٣٦ / ١٢ .

(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميّ يسلك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يَشْرِكُ الطرمّاح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية^(١) ، ويُرَوِّى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيّه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما تقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبت أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميّ بوجهة نظره واعتلّ^٢ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له^(٢) ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرمّاح في اللغة^(٣) .

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضر ولم يتغذّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطاً فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولّدين وهو خط فصلوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعتدّ به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدّوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفراً من العرب أمثال الطرمّاح والكميّ متخذين النشأة في الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفّى والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عُبّير وعظهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغاني (دادا الكتب) (٢) أغاني (ساسي) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والتوب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطُهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة . مما هيأ لظهور الغزل العذري بل لشيوعه ، وكأنما أضفت الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعباً أى صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشفّ عن ألمه وعذابه في حبه ، وهى شكوى يَضُرَع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جميل^(١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيبٍ يروِّعُ
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرّع
فياربِّ حَبِيبِنِي إليها وأعطني الـ مودةً منها أنت تعطي وتمنع
ونرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبى ربيعة^(٢) :

فديتُكِ أطلقِي حَبْلِي وجودي فإن الله ذو عَفْوٍ غَفُورُ
وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصّل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول^(٣) :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةٍ إننى أخشى عليك بَنِيَّ إن طلبوا دى
فإذا حلفتِ هناك أنك من دى لبريئة فتَحَلَّلِي لا تَأْتِمِي^(٤)
فلئن سفكتِ دما بغير جريرةٍ لتُحَلِّدَنَّ مع العذاب الألامَ

بيت د .

(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ٧٧٨/٢ .

(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار

ص ١١٧ .

(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠

ولئن حملتِ دمي عليك لتَحْمِلِنِ ثِقْلًا يكون عليك مثل يَلْمَمٍ^(١)

وإذا كان الفرزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمين يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخّص في التسميم ، يقول^(٢) :

إذا قلت يوماً نَوَّلْنِي تَبَسَّمْتُ وقالتُ معاذَ الله من فعل ما حُرِّمُ
فما نَوَّلْتُ حتى تضرَّعتُ عندها وأعلمتُها ما رخصَ الله في اللَّمَمِ

وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يمانلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تمتزج بمعاني الحب والأفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول في كثير من جوانبه إل تصوير الفضيحة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عنهما ، ففضي الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخواارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن نلدوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حَقّاً للحاكم الأموي التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيْبٍ^(٣) :

وصدّقتَ بالفعل المقالَ مع الذي أتيتَ فأمسى راضياً كلُّ مسلمٍ
وقد لبستَ لبسَ الهلوك ثيابها ترأى لك الدنيا بكفٍّ ومِعَصَمٍ
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتبسمُ عن مثل الجُمان المنظَّمِ

(١) يللم : جبل على مرحلتين من مكة . (٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٣/٢ .

(٢) أغاني ٣٢٨/٦ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمَ^(١)
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْفَا وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمَمٍ
 وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
 وهو لا يَصُورُ فِي عَمَرِ التَّقْوَى فَحَسْبُ ، بَلْ يَصُورُ فِيهِ أَيْضًا الزَّهْدُ
 وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِهَا وَمَتَاعِهَا الزَّائِلُ الَّذِي يَغُرُّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ . وَتَتَسَعُ
 هَذِهِ الصُّورَةُ فِي مَدِيحِ الشَّيْعَةِ لِأَتَمَّتْهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُتُبِ
 وَفِي شَعْرِ أَيْمَنِ بْنِ خُرَيْمٍ إِذْ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ^(٢) :

نَهَارَكُمُ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلَيْلَكُمُ صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ
 وَلَيْتَمُ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكَّى فَاسْرِعْ فَيْكُمُ ذَاكَ الْبَلَاءُ

وَعَلَى نَحْوِ مَا تَأَثَّرَ الْمَدِيحُ بِالْإِسْلَامِ وَمِثَالِيَّتِهِ الرُّوحِيَّةُ تَأَثَّرَ الْهَجَاءُ ، إِذْ أَخَذَ
 الشُّعْرَاءُ يَهْجُونَ خُصُومَهُمْ بِانْحِرَافِهِمْ عَنِ الدِّينِ ، فَأَطَالُوا فِي وَصْفِهِمْ بِالْفُسُوقِ
 وَالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ كَقَوْلِ جَرِيرٍ فِي آلِ الْمُهَلَّبِ^(٣) :

آلُ الْمُهَلَّبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَغَوْا كَمَا فَعَلَتْ ثُمُودُ فَبَارُوا
 وَدَائِمًا يَرْمِي شُعْرَاءُ الشَّيْعَةِ الْأُمَوِيِّينَ بِالظُّلْمِ وَانْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ وَتَعْطِيلِ أَحْكَامِ
 الدِّينِ وَابْتِدَاعِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُمَيْتِ^(٤) :

لَهُمْ كُلٌّ عَامِرٌ بِدَعَاةٍ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِءْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
 تَحِلُّ دِمَائِهِ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

وَاشْتَدَّ لُحْبُ الْهَجَاءِ — كَمَا قَدَّمْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ — بِتَأَثُّرِ الْعَصَبِيَّاتِ ،
 وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَجِبُ مِنْهُ خَلِيفَةُ وَلَا وُلَايَ وَلَا شَرِيفٌ ، بَلْ حَتَّى الْقُرَّاءُ كَانَ يَتَرَضُّ لَهُمُ
 الشُّعْرَاءُ ، وَخَاصَّةً إِذَا رَأَوْهُمْ يَدَايِجُونَ أَوَّلَى الْأَمْرِ ، فَكَانُوا يَرْمُونَهُمْ بِالنِّفَاقِ وَأَنَّهُمْ

(٣) دِيوَانُ جَرِيرٍ (طَبْعَةُ الصَّوَاوِي) ص ٢١٩ .

(٤) الْمَاشِمِيَّاتُ ص ١٢٣ .

(١) مَدُوفًا : مَزِيحًا .

(٢) أَغَانِي (سَاسِي) ٦ / ٢١ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة
ساخراً من إحدى طوائفهم^(١) :

أما النبذ فلا يذْعرك شاربُهُ واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يُوارُونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداء
مشمِّرين إلى أنصاف سُوقهم همُ اللصوص وهم يُدْعَوْنَ قُرَاء

ولعلنا لا نُبْعِد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى في تأثيره بالإسلام من
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنْظَمُ أَكْثَرُهُ في الجهاد ، ومعروف أنه كان
دائماً في صفوف المحاربين قُصَّاصٌ ووعاظٌ يحثُّونهم على الاستشهاد في سبيل
الله ، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التي نُظِمت
في خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصر بن سيار^(٢) :

دَعْ عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تاركهم ما خَيْرُ دُنْيَا وَأَهْلٍ لا يدومونا
وَأَكْثَرُ تَقَى اللَّهِ فِي الْأَسْرَارِ مجتهدا إِنْ التَّقَى خَيْرُهُ مَا كَانَ مَكُونَا
وَعَلِمَ بِأَنَّكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَهَنٌ فَكُنْ لِدَاكِ كَثِيرُ الْهَمِّ مَحْزُونَا
وَامْنَحْ جِهَادَكَ مَنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةً وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لَا يَصِلُونَا
فَاقْتَلَهُمْ غَضَبًا اللَّهُ مُنْتَصِرَا مِنْهُمْ بِهِ ، وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَفْتُونَا

وواضح أن نصرأ يزهد في الدنيا ومتاعها الفاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو
إلى التقوى في السر والخفاء مذكراً باليوم الآخر وما ينبغي أن يُستخذ له من ذخيرة
الجهاد والذب عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغْمَسُ غَمْساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) (٢) طبرى ٤٣٣/٥ .

فى العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفى سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجى أن يُقتَلَ حتى يُكْتَبَ فى سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال فى الحرب وجهاد هذه الفرقة التى زاعت فى رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى فى ملحمة الطويلة التى وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم ^(١) :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَدُوا بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا
جاروا عن الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ
وكان كثيرون يُسْتَلُونَ فى هذه الحروب : فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،
مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد ، كقول الضحاك بن قيس يرثى بهلولاً
الصُّفْرِيَّ الذى خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقُتِلَ ^(٢) :

يَا عَيْنُ أَذْرَى دُمُوعاً مِنْكَ تَهْتَانَا وَابْكِي لَنَا صُحْبَةً بَانُوا وَإِخْوَانَا
خَلُّوا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا وَأَصْبَحُوا فى جَنَانِ الْخُلْدِ جِيرَانَا
وتعمُّ هذه الروح الدينية فى مرأى من قُتِلُوا من العلويين منذ على بن أبى
طالب ، وقد تحوّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان
من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح فى مرأىهم ، كقول جرير فى عمر بن
عبد العزيز ^(٣) :

حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ وَقَمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عَمْرَا
بل لقد طُبع الرثاء عامة بطوايع هذه الروح وما يُطَوَّى فيها من التسليم لله
والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حتمٌ فى رقاب العباد ، وعليهم
أن يتذرعوا إزاءه بالصبر الجميل .

(٢) الديوان ص ٣٠٤ .

(١) طبرى ١٢٥/٥ .

(٢) طبرى ٤٦٠/٥ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثر به الإسلام في الشعر الأدي ، فإنه فجر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على ألسنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر . ونقصد ينبوع الزهد وما يُطوَّى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسنرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا ينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرحيم^(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جراه الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدئون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثار أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظلاً يعظون الناس ويذكرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تحرّم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصوِّرين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح وبجانبه كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والحيانة ، والتحلّى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجلود والأمانة .

فإن الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والاندنيوية سيطرة تهمس على سيادى الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر . وبذلك فَرَضَ الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فتَوَلَّى عليٌّ ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه تائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتِلَ ، فتحوّلت الخلافة إلى معاوية وبنيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكم الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عَادُوا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعَدُّون مغتصبين للخلافة . وزاد في الحُنق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن مُحمَّاهم ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرَّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكوِّن حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقدِّم بثورة منظمة . على أنه ينبغي أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا يزيد . فاما أول الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدَّ دَعْلَى هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخْصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفَرَّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته ، فخرج وقتل بكر بلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعادَ بالبلد الحرام الذي لا يحلُّ فيه القتل وسفك الدم ، ولما يش يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلَح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرفها ، ولما مثّلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطنابير وتَضْرِبُ عنده القيّان ويلعب بالكلاب ويسامر الحرّاب والفتيان ^(١) » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي ونسبت بين الفريقين معركة الحرّة المشهورة التي استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون ^(٢) . وولّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفّي مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَيْر السَّكُونِي ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيّا ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير ، فإن الأمصار اضطربت على ولاية بني أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية (أحد أبناء علي من سيدة من بني حنيفة) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، وولّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُبَاع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة ماثلة في الطبري .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

معجم البلدان لياقوت .

(١) طبري ٤/٣٦٨ .

(٢) طبري ٤/٣٧٠ وراجع كلمة حرة في

عبد الملك. فيترث في القُدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . ويُشْعَلُ مصعب بعد المختار بالخوارج ، ويُقْدَمُ عبد الملك فيقضى عليه ، ويُرسَلُ الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فيهزمه ويقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاء فضالة بن شريك هجاء مرأ^(١) . أما مصعب فكان جواداً ممدحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر^(٢) :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشرف العرب الذين كانوا يعدُّون بني أمية غاصبين للخلافة . وسرَّ بنا في غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة^(٣) ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجَّل ذلك بعض الشعراء في أشعارهم^(٤) .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس في شيء إلى ثورات الخوارج التي امتدَّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وُحْمَان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقَّوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدَّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلاً هاجروا إلى حِمْيَرٍ وراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية . وسمَّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سمَّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٣) اليعقوبي ٢/٢٦٢ .
 (٢) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ . (٤) طبري ٣٣٨/٥ وما بعدها .
 والطبري ٥٩٢/٤ ، ٩/٥ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وَتَمَوُا أَنْفُسَهُمُ الشُّرَاقَةَ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَ : (ومن الناس من يَشْتَرِي نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذى أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً فى سبيل الله وسبيل دينه الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا علياً ، ولكنه نكّل بهم فى موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُسلم الماردى أن قتله لينال رضا امرأة منهم ^(١) . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأروا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغى أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهى ليست حقاً لقريش ، إنما هى حق لله وينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبه أن يجاهدوا الجماعة التى ارتضت الأمويين وما ثبتّوه من نظام الوراثة للخلافة فى بيّتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السّحَر فى كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . ونراهم يُغْمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج فى الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقْضَى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبَيّان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور فى الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان فى البصرة ، وهى لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله فضى فى سياسته ، وعُنف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أَدِيَّة ومن نسائهم البسّاجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج فى أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عِداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « أسك » فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة ^(٢) :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٢٢٢/٤ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

أَأَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هُمْ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَ

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعَةَ بن أسلم العاسري ، فلم يكن
حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة
فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقائده
فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبي بلال في خروجه
شعراً^(١) وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سَيِّسِيَّراً لابن الزبير
في مكة . فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام .
وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير .
إذ رآوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق
وعبد الله بن الصفار وعبد الله بن إياض . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يدعون
لمحاربة السلطان ، وساعدتهم في شغبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد
إلى الشام وانتفاض تميم وحلفائها على الأزد ومن آزرها . وانتهز نافع بن الأزرق
الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمال ابن زياد ،
وتخلف عنه نجدة بن عامر وابن الصفار وابن إياض ، إذ رآوه يغلو في آرائه ،
وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب
تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ،
وسلك ابنُ الأزرق معهم القعدةَ من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة
الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لِمَسْكِهِم بالتوحيد
والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحلُّ التزوج منهم كما يحلُّ التوارث
بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير ^(١) .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أبا فُدَيْلِكَ سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُفْرىة في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعّاظهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزأماً متواليه ، غير أنه لم يلبث أن قُتل في إحدى الوقائع ، فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزالة وأمه جَمَهِيزَة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج في الكوفة ، فهُرِعَ إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جَسَلَهُ بالعار . وفي إحدى حروبه نفرّ به فرسه ففرق في نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكره بقيت خالدة في ذاكرة الخوارج . وظل صُفْرىة الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة شوذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر ثُوَّارهم الضحّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلّياً خلفه فقال شُبَيْلُ بن عَزْرَة الضُّبَيْعِي ^(٢) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ وَصَلَّتْ قَرِيشٌ خَلْفَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ ثُمَّ نَازَلَهُ بِنَفْسِهِ فَقَضَى عَلَى ثَوْرَتِهِ .

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ - ٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والتبيين ٣/١ و ٣٤٣ وانظر في الأحداث الطبرى الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباحية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القرى وهزمه هزيمة ماحقة فترّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بني أمية جهراً وسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويضطرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلاً وحرّاً لا دعة^(١) . ثم تكون حركة التوابين بزعامة سليمان بن صُرَد ، ويُقتضى عليها ، وببكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بني أمية^(٢) .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة في الكوفة ، فيخرج عنها والي ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كيسان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلي ، فهي ليست مفوّضة للأئمة ، بل هي تنتقل بالوصية في علي وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ٦١ ومقاتل ص ١٢٦ .

الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني (طبع الحلبي) (٢) طبري ٤/٧٢ : .

ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزباني

يغلو في تصور على ، حتى لقد زعم أن به قيساً إلهياً ورثه عن الرسول ، وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر ، وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن علياً سيعود فيملاً الأرض عدلاً وعلماً ونوراً ، وبذلك وضع أسس فكرة الرجعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية^(١) وزاد المختار عليها شعوزات^(٢) كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبداء على الله أي أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدث شيء ، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يخلص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياعه كرسيًا غشاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وهو منكم بمنزلة الثابت في بني إسرائيل . وكان يكثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفي ذلك يقول سُرَاقَة^(٣) البارقي وقد فتر عنه^(٤) :

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البلق دُهمًا مصمتات^(٥)
كفرت بوحىكم وجعلت نذرًا على قتالكم حتى الممات

الطوال للدينوري ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبري ٥٢٧/٤ وأغانى ١٣/٩ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمتات : لا يخالط دهمها لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبندادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستاني ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) انظر في ترجمة سُرَاقَة الطبري ٥٢٦/٤ وما بعدها وأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦٩/٦ والأخبار

ويقول أعشى همدان (١).

شهدتُ عليكم أنكم سَبِيَّةٌ وَأنى بكم يا شُرْطَةَ الكُفْرِ عارفٌ
وأقسم ما كرسبكم بسكينة وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائف (٢)
وإن لُبِسَ التابوت فُتْنًا وإن سمِتَ حمامٌ حواليه وفيكم زخارف (٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوزُ إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوَّزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية في نشأتها - من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً (٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش يردُّ نظريتها الكُشَيْت ، وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تقدّم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر في سبيل

(١) الميوان ٢٧١/٢ .

من ربكم).

(٢) فتن: جمع فتن وهو الفناء.

(٤) أنظر في الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل

ص ١١٥ .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التي كان يقصدها

المختار في اتخاذ كرسيه : (وقال لهم نبيهم

إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حَمدَ أداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير في المصلحة العامة للشعب وما ينبغي أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون في الخلافة ومن أحقُّ بها من سواد ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسَفَّك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهما وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تَرَوَى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، وانخذله الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصر والأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون وتأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفَيِّى وغنائم الحرب وما رُسِمَ لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بلَّ سرعان ما تُتَرَفَّوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطَعِمُوا فى أوانى الذهب والفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعطَّروا بالمسك وغيره من أنواع الطَّيب . وكان الموالى من ورأهم يهيتون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، إذ اكتظَّت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة . فقد حُكِّى أنه قدَّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجبتهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مِهْنَتِهِمْ وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المتهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخزائن^(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية^(٢) .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يَمَصِّرُوا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من آثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطْر ، ثم توزَّعها في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنَّ لهم ذلك معاوية الذي كان يَرِدُ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْبٍ^(٣) ، ويؤثر عنه أنه كان يقول إننا تمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً^(٤) . ويظهر لثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرِف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويعزف بالطناير وتَضْرِبُ عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناءؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفُسُيْفُساء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيئها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله ، وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبسته التي تُعَدُّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والفُسُيْفُساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها^(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحاله تحفة رائعة^(٦) . ومما يَدُكِّرُ له من مآثر أنه عَمَّ بعطائه المجدِّمين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخرقى : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البية

(٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبي ٣٤٠/١ .

بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٢٩٨/٤ .

(٤) طبرى ٢٤٧/٤ .

الناس، وأعطى كل مُتَعَمِّدٍ خادماً وكل ضريح قائداً^(١). وتفنن الناس لعهدده في بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثَّره الناس لعهدده تأثراً واسعاً^(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى ، فقال : إنه « يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُومَت بألف دينار... حَبَابَة عن يمينه وسِلَامة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قَدَّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال : ألا أُطير »^(٣) وقد أرسل في طلب مغنى الحجاز ، فجاءه منهم كثيرون .

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق ، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر والآلىء كما يحدثنا الجهشيارى^(٤) ، ويَرْوَى الطبرى أن يوسف بن عمر حَمَلَ إلى هشام بن عبد الملك لآلىء حَبَبُها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف ، قُوم بثلاثة وسبعين ألف دينار^(٥). وقد بلغ الترف أقصاه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء ، حتى تحوّل قصر الخلافة في عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو ، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ، ويغيرها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً^(٦) » .

ومن المؤكد أن أفراد العرب في الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه في هذا الترف الآثم ، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتُرفوا ، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية . وبالمثل تحضر من نزلوا في القسطنطينية والقيسروان والأندلس ، وكانت كثرتهم من عرب الشام ، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً في تلك البيئة المتحضرة .

ص ٢٧ ، ٣٤ .

(١) طبرى ٢٦٥/٥ .

(٥) طبرى ٥١٩/٥ .

(٢) طبرى ٢٦٦/٥ .

(٦) أغاني ٥٩/٧ .

(٣) البيان والتبيين ١٢٣/٢ .

(٤) نظر الوزراء والكتاب للجهشيارى

وإذا ولَّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرّون تحضرّاً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياّتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحوّلت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب^(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة نهوله كثرة القطائع التي تملّكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفيروز حصين وحسّان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليسرّوى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموالى . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام آعّين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زربي مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكرّة وقصر ابن الأصهباني وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزاردر» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدلّ على مبلغ التأنق في بناء هذه القصور ما يُروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعيّنه في بناء داره باثني عشر ألف جِذْع^(٢) ، وكذلك ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات^(٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين^(٤) .

وتبع ذلك كله الرّفّة والترّف في المطعم والملبس ، حتى لَنرى نفراً من الأتقياء يلبس الديباج والقلائس^(٥) ، ونراهم يَكْنُسُون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ . (٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان

(٢) طبري ٢٤٦/٤ . والتبيين ٨٢/٢ .

(٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة أ . (٥) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ ق

البيضاء وانظر الطبري ٤٠٢/٤ . ١٥٣/١ .

طعموا الجَرْدُق وليسوا النَّمْرُق^(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَل إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُروى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خلّار^(٢) ، من السَّحْل الأبكّار ، من الدَّسْتَفْشار^(٣) ، الذى لم تَمْسَهُ النار^(٤)». وما يصور هذا الرفه في العيش والتنعّم ما يُروى من أن عبید الله بن زياد هياً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها^(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبعی أن يُعْمَنُوا في ثنایا هذه الحیاة الرّغدة بكثير من أسباب اللّهُوكسباق الخیل^(٦) والصید^(٧) والقَسْنَص ولعبي^(٨) الشطرنج والردوسرى أن كثيرین تورطوا في لثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعْنى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُنين^(٩) الحيرى وأحمد^(١٠) النَّصْبى ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار^(١١) ابن رامین . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد في القسقاط ابن أبجر^(١٢) مغنى المدينة .

ونعیم العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفَتَح الغنائم ، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إني قد رت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم^(١٣) ، ويُروى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عثا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

-
- (١) طبرى ٢٨٠/٥ . والنمرق : مفرد نمارق
وهي الطنافس
(٢) خلّار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل
(٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المصنوع باليد
(٤) البيان والتبيين ١٠٣/٢ .
(٥) طبرى ٤١٥/٤ .
(٦) البيان والتبيين ٢٥٧/٣ .
(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشعر والشعراء ٥٨٨/٢ .
(٨) نقائص جرير والفرزدق ص ٧٨٧ .
(٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ .
(١٠) أغاني ٣٣/٦ .
(١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ .
(١٢) أغاني ٣٤٦/٣ .
(١٣) الجهشيارى ص ٢٩ .

وأخضر ، وقد قومت بألف دينار^(١) . ويُروى أن الإصْبَهْد في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرنس ، وعلى البرنس طيلسان ولحام من فضة وسرقة (شُقَّة) من حرير^(٢) . ويُقال إن الجراح الحكمي واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقْرًا يملؤها ذهباً وفضة ويوزعها على من يدخل عليه من أصحابه^(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرًا من فضة وقصرًا من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة^(٤) . وكان الولاية بيد ورهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدَّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارهة وأباريق الذهب والفضة وتمائيل الطباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب^(٥) .

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أُتُروا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاية يقول إن فَيْسَى خراسان لا يني بمطبخي^(٦) ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطعم عليها الناس^(٧) . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطبائسة والقلائس القصيرة والطويلة^(٨) ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلَفوا إلى سماع الطبول والمزامير^(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضْطَرَّ بعض الولاية لتفشيهِ في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل^(١٠) .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسُرفون على أنفسهم في شراب الحمر لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

- | | |
|--------------------------------|---|
| (١) الجهشيارى ص ٤٤ . | (٧) طبرى ٢٨٨/٥ . |
| (٢) طبرى ٢٩٥/٥ . | (٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ، |
| (٣) بلاذرى ص ٤١٥ . | فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن |
| (٤) طبرى ٤٦٥/٥ . | سعد ١٣٩/٥ ، ١٣٩٢/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٢٥٥/٦ . |
| (٥) طبرى ٥٣٣/٥ . | (٩) طبرى ٤٣٧/٥ . |
| (٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤ . | (١٠) طبرى ٢٨٣/٥ . |
| وطبرى ١٣٢/٥ . | |

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من المختشين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تضيف الشعر وتصفيفه وصيغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُسْزَلَ بهم عقاباً صارماً^(١).

وطبيعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن في قلوب الرجال ، فتفنن في زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين. ويروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حببات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة: لقد كان النوم أحبّ إليّ^(٢). ويروى الأغاني أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سنّينها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواذج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى^(٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي و جدول إسلامي و جدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها . (٣) أغاني ١١/١٨٨ .

(٢) أغاني ١١/١٨٢ .

أقبل العرب يعبسون من هذا الجدول عباً ، وكأنما صُفِّمُوا عليه صفوفاً ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةَ راوية الأخبار الثمينة ، ودَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابَةِ والنَّخَّارِ بْنِ أَوْسِ الْعُدْزِيِّ وزيد بن الكَيْسِ التَّمَرِيِّ وشهاب بن مذعور وبنى الكَوَّاء وغيرهم كثيرون . وفي أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمي (١) :

وَحَكْمٌ دَغْفَلًا وَاِرْحُلٌ إِلَيْهِ وَلَا تُرْجِحِ الْمَطِيُّ مِنَ الْكَلَالِ
تَعَالَ إِلَى بَنِي الْكَوَّاءِ يَقْضُوا بِعِلْمِهِمُ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ
هَلُمَّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ يُنَبِّئُ بِالْبُؤَافِلِ وَالْعَوَالِ
وَعِنْدَ الْكَيْسِ التَّمَرِيِّ عِلْمٌ وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب على وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعْنَى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتمامهما بمغازي الرسول ، وكان هناك من عُنُوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه . وشعبة دينية تُعْنَى بقراءات القرآن وبالحديث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه ، وقد أَلَفَ أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أذينة والزُّهْرِيُّ وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعْبِيُّ وسعيد بن جبَّير وشُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْقَاضِي وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعي وبمصر الصابحي ويزيد بن عبد الله البرقي .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما . وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة^(١) من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبد الصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلّمين بالطائف . ومن هؤلاء المعلمين الكُـمَـيـتُ بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرىّ الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهده هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء^(٢) » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبى جاء العرب من ملابتهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرّفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة استغلال الأرض وشق الترع والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأوليين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك : إذ عُرِّبَت تلك الدواوين . وقد دفعهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعنى بهذه الثقافة مدرسة جُـنـدُ يَسـاـبـور فى إيران ومدارس أخرى فى الرها ونصيبين وأنطاكية وقنسرين وحرّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين الخاصة ومن يليهم

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٣ .

٣٥١/١ البيان والتبيين

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن أشهر منهم في هذا العصر «سويرس سيديوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوى وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَمَّنُونَ بالمنطق الأرسطاطاليسى والفلسفة اليونانية^(١).

وطبيعي أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقي الذي كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثرُونَ من جداله ، وله مصنفات مختلفة ، منها محاوراة مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة^(٢). وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعند القوم من وجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغي أن نلاحظ أن كثيرين من حاملة هذه الثقافة الهيلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلاً هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تَسْرُجَمَ ، فقد كان أهلها يعرَّبُونَ تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومي يسمى ماريانس ليُعلِّمه الكيمياء^(٣) ، كما استعان بأصطفى القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء^(٤) » ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك^(٥). وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهْرَنَ بن أعين^(٦) ، وقد ذكر الحكيم بن

-
- (١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » في التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ص ٥٣ وما بعدها .
 (٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٣١٤/٢ .
 (٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) ٢٤٦/١ .
 (٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .
 (٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ .
 (٦) ابن أبي أصيبعة ١٦٣/١ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع ليزج ص ٣٢٤ وانظر نقولاً عن ماسرجويه في الحيوان ٣/٢٧٥ ، ٣٦٤/٥ .

عبدل الكوفي أهرن وطبة في بعض شعره^(١). ويروى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس^(٢). كما يروى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية^(٣).

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كي يتم ، أو كي تم دورته ، فقد كان كل شيء في هذا العصر الأموي يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربي دُعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دُعم نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الحوارج فستجدهم يثيرون الجدل في كل مكان ، وجداهم مع علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويروى أن عبد الملك بن مروان أُنقِى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قوهم ويزين له من مذهبه بلسان طسلق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله على من الحجة وقرّر في قلبي من الحق^(٤). وهذا رجل من عامتهم فما بالنا بزعمائهم ، ويشيد المبرد في كتابه «الكامل» بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين^(٥)، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصادق نشأت (٥) الكامل ص ٥٦١ .

ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْدِيَّة وصُفْرِيَّة وإِبَاضِيَّة ، وشَكَازِيْد
بن جُنْدَب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال ^(١) :

كُنَّا أَنَاساً عَلَى دِينٍ فَفَرَّقْنَا طَوَّلُ الْجِدَالِ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالاً ضَلَّ سَعْيُهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون
وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه
للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد
تحول شاعره الكميّ بأشعاره الملقبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب
وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله
وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

ولذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلاً في
مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، وتروى من
ذلك مناظرة ^(٢) بين قَتَادَةَ والزُّهْرِيَّ في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى ^(٣)
بين ابن شبرمة وإيَّاس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويروى
أن الشَّعْبِيَّ الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه ^(٤) . وقد كثرت
هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب
السَّخْتِيَّاني يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف ^(٥) » ،
وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى
نشأ بينهم من سُمُّوْا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم ^(٦) .

وقد تجادلوا طويلاً في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور
وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبرية والمُرْجِيَّة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل
التي أثارت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ٤٢/١ .
(٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) البيان والتبيين ٣٢٢/٢ .
(٥) البيان والتبيين ٩٨/٢ .
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

نَجْبَر مَسِيرٌ ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصري يدافعون عن الرأي الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعَدُ الله وعيده .

واصطفَ أمام القدرية أصحاب مذهب الجَبَر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر . وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين ، لأنه يتصرف الناس عن التفكير في ولايتهم وتديبرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثم نرى شعراءهم يرددون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان^(١) :

الله طَوْقُكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى وَاللهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجئة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فال مؤمن مسلم وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، إذ المعول في الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أفعال الناس وتركه إلى الله جلَّ جلاله ، ومن ثم رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ في نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين^(٢) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عَوْن بن عبد الله بن عتبة الهذلي ، وناظرهم في آرائهم^(٣) . ونرى عَوْناً يرجع من عنده ، فيبرأ منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك في أبيات تُنسب إليه تجرى على هذا النمط^(٤) :

وَأَوَّلَ مَا نَفَارِقُ غَيْرَ شَكٍّ نَفَارِقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجُؤُنَا
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِنَا
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ وَقَدْ حَرُمَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَا

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٤٧٤ .

(٢) ابن سعد ٢١٨/٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٤) طبري ٥/٣٤٠ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلُّون دماء المسلمين مما كان سبباً في تعقب الأمويين لهم ، وقتلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغسيلان^(١) الدمشقي .

ولم يُعرَف هذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنَة وهو من مُرجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في نضاعيفها^(٢) :

المسلمون على الإسلام كلُّهم والمشركون أَشْتَوْا دينهم قَدَدَا^(٣)
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا مِ النَّاسِ شِرْكَاً إِذَا مَا وَحَدُوا الصَّمدَا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدُّ وما يَقْضِ من شيءٍ يَكُنْ رَشَدَا
كلُّ الخوارج مُخْطِ في مقالته ولو تعبدَ فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمانُ فإنهما عبدان لم يُشْرِكَا بالله مُدَّ عَبدَا
ويتوقى ثابت ، ويظهر هناك جَهَنَّم بن صفوان أحد رءوس الإرجاء^(٤)
ويضع يده في يد الحارث بن سُرَيْج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقَضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثق عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصري ومن تابعوه من القدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالاً عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسنُ عمرو بن عبَّسَ ليجادله فيه ، فأقنعه واصل برأيه^(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيَا هما ومن

- (١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤ والمعارف ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان قدريا ولكن في الفهرست ص ١٧١ والملل والنحل (طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم فداده في مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .
- (٢) أغاني ١٤/٢٧٠ .
- (٣) أَشْتَوْا : فرقوا . قَدَدَا : طرائق وفرقا .
- (٤) انظر الملل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية نبيناً بعض أصول مقالاتها .
- (٥) انظر في ذلك أمالي المرتضى ١/١٦٥ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،
تَسْنِدُهُمَا فِي ذَلِكَ دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل دُعَاهَا بِالْمَنْطِقِ وَأَدْلَتُهُ
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

ولنأملنا في هذا الجانب لندل على أن العقل العربي في عصر بني أمية أمدّ تهراً وافداً
كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين
في الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك
مجادلة بين ذِي الرُّمَّةِ ورُوْبَةَ في القدر ، وكان أولهما قديراً وثانيهما جبرياً^(١) . وبتأثير
هذه المجادلات تحوّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنيفاً في عشيرتهما
من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما ،
وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل
النحل . وكل ذلك من آثار هذا التطور الذي أصاب العقل العربي ، والذي
جعله يندفع في البحث والمناظرة والتدرب على جَسَمِ البراهين والأدلة في أي
موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية
تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْتِ والطَّرِمَاحِ يحشدون
في أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرُّجَّاز
وعلى رأسهم العجاج ورُوْبَةُ أن قدّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالي

لا ريب في أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً في حياة الإنسان ، وبالتالي
في كل ما ينتج من أعمال وآثار . ولذا أخذنا ننظر في حياة الشعراء لهذا العصر
وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

المادى الصريح فى مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف فى نجد وبيئات البوادرى إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان يتسعم به سكان تلك المدن من ثراء عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادرى من شطف العيش وخشونته ، ولا ننكر أثر الإسلام فى نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة الاقتصادى ومدى عمله فى النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح فى العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة فى الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من مديح ، يقول ذو الرمة^(١) :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مائتم
ولكن عطاء الله من كل رخلصة إلى كل محجوب السراق خضرم^(٢)

وقد مضى كثير من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف مما أدّى ، وخاصة فى أواخر العصر ، إلى ذبوع شعر الخمر والحجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتعمق النزاع السياسى الحاد الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأينا يعود فى كثير من جوانبه إلى بواعث اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة ينثرونها على أنصارهم ومن يلودون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل البينية التى جعل لها الأمويون معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد علوية تحمل الناس على الحادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أوليائه الصالحين ، ومضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً .

(٢) الخضرم : كثير الخير والحدود .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بني أمية ومن كانوا يقيمهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاّ ولا ذمة ، فلمهلب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم^(١) ، بينما احتجن ابنه يزيد حين صرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم^(٢) ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفي لنفسه - بوسائل غير مشروعة - ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقفى حين وليّ بعده العراق سبعين ألف ألف^(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغداني التميمي حين ولي على سرق إحدى كور الأهواز^(٤) :

أحار بن بدرٍ قد وليت إمارةً فكن جُرذاً فيها تخون وتسرق

وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعى التى وجه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجدية أصابت قومه بنى تميم . ومع ذلك ففرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبَّوْا عليهم السَّياط وأرهقوهم من أمرهم عُسْراً ، ومن قوله في تلك الشكوى المريرة^(٥) :

أخليفةَ الرجبين إنا معشرُ حنفاء نسجدُ بكرةً وأصيلاً
إن السَّعاةَ عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغوياً
فادفعْ مظالمَ عيَلتْ أبناءنا عنا وأنقِذْ شِلُونَا المأكولا^(٦)

(٤) الحيوان ١١٦/٣ والشعر والشعراء ٧١٥/٢.

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

(طبع المطبعة الرجانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيَلتْ : أفقرت . الشلو : العضو .

(١) طبرى ١٣٥/٥ .

(٢) طبرى ٣٠٣/٥ وانظر ٣١٢/٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا)

٣٨٨ ، ٥٥/٢ .

وإذا كان هذا يحدث في نجد والبادية فما كان يحدث في العراق وخراسان أدهى وأمر ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعترضون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً والنفوس سخطاً ووجعاً ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهد بني أمية فحسب ، بل أيضاً في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي وجهه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا ابنَ الزُّبيرَ أميرَ المؤمنين أَلَمْ يبلغك ما فعل العُمالُ بالعمل
باعوا التُّجَّارَ طعامَ الأرضِ واقتسموا صُلبَ الخراجِ شحاحاً قسمةَ النِّفلِ (٢)
وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لخبايا نهم في الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحمسين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وليَ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحط الجزية عن أسلموا من الموالي . وبعث على العراق وخراسان عملاً جديداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابك واستحلّ المحرمُ
طُلُسَ الثياب على منابر أرضنا كلُّ يجورُ وكلُّهم يتظلم (٤)
ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تجلّد بالسيوف رقابُ

(١) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها . عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم

(٢) النفل : غنائم الحروب .

(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .

(٤) طلس : غبر ، وهو يكتى بغبرة الثياب

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

حقه : يظلمه إياه .

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالى ، ويتولّى هناك نصر بن سيار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالى مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالى ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يبرعون لهم أخوتهم في الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالى السواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردّهم إلى قُراهم ونَقَشَ أسماءهم على أيديهم حتى لا يبرحوها ^(١) وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضطرراً إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان. يُنفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شؤون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمي الموالى ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صوّر فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالى لعصر بني أمية إساءة بالغة ^(٢) . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطَهِدون أحرارهم ولا أرقاعهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نسبُهم شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف ^(٣) . أما ما يلاحظه قلهوزن من أنهم كانوا يحاربون في جيش المختار رجالة لا قُرْساناً ^(٤) فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حُرَيْث بن قُسَيْبَة وأخيه ثابت وحيّان التبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبري ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية (٣) المحرر ص ٣٤٠ .
 لقلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .
 (٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .
 (٤) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسْتَعْمَلُ في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلّفة بالقياس إلى العرب ، ولعلّ مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله^(١) بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة^(٢) ابن سنان مولى بني مسمع وكثير^(٣) بن سيار مولى بني سعد ومسلم^(٤) بن المسيب مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده في إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالموالي ذاكرًا أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول^(٥) :

أنا ابنُ الثّرى أدعو قضاة ناصرى وآل نزارٍ ما أعزّ وأكثرا^(٦)
وأبناء إسحاق اللبث إذا ارتدوا محامل موتٍ لابسين السّنورا^(٧)
فيوما سرايلُ الحديد عليهمُ ويوما ترى خزّا وعَصْباً مُنيرا^(٨)
إذا افتخروا عدّوا الصّهبذ منهمُ وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا^(٩)
ويصرّح بأن الموالي أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا أبٌ كان مهدياً نبياً مُطهّرا

ولا تهمنا صحة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالي شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) عدد الثرى .
ص ٢ :
(٢) الديوان ص ١٠٦ .
(٣) الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) الديوان ص ٨٨٧ .
(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوى)
ص ٢٤٢ .
(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم
- عدد الثرى .
(٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك
الفرس .
(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من
الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله
أهداب ووشى .
(٩) الصهبذ : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً في نفس القصيدة ينوّه بمولى من البربر يسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعَلِّماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بَرَبَرَا
والحق أن العرب اندمجوا في الموالى منذ الأيام الأولى في الفتوح ، فقد
ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام ،
إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلغاءً ،
فهم عربٌ ولأءٌ . واستشعر الموالى ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظْمَ
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح
أبنائها الأصليين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس
فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول^(١) ، ومثله هرون^(٢) مولى الأزْد وثرَوان^(٣)
مولى بنى عُذْرَة وشُقْران^(٤) مولى بنى سَلَامان . وكانت القبائل تبادلهن نفس
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به في السجن لم يقرر لقبيلته
حتى تُردَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من ابن مفرغ
حين زُجَّ به عَبَّاد بن زياد في سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند
الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه^(٥) .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ،
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس^(٦)
فإنه يعد شذوذاً في العصر : وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولاً الغضب من القبائل
التي تعادىها ، وكأن ذلك نبه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه
يفخر بأصله الفارسي .

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٨٩/١٣ ، (الكتب) ٣٠٨/٢ .
٣٨٠/١٥ وما بعدها . (٥) الشعر والشعراء ٣٢٣/١ .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبي) ٧٥/٧ . (٦) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب
(٣) البيان والتبيين ٣٠٩/٣ . ٤١١/٤ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغاني (دار

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم في هذا العصر ، وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعوبية في عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً عنيماً^(١) . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل ابن ميادة^(٢) ، ومثل أبى نُخَيْلَةَ الذى يقول^(٣) :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجَمُ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعمِّ
ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض في هذا العصر^(٤) ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولايتها من العرب ، ولكنها فسحت للموالى في شئون الخراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ، على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى لهذا العصر وأنها كانت تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبرزونهم ، حتى تصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله أن الموالى شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا يُعَدُّون فعلاً عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجر وآدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة القرآن الكريم التى ملكت أزمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٢ والديوان ٣١٦/١ ، (٢) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء

٥٨٣/٢ .

٢٥٠/٢ ، ٨/٢ .

(٤) فلهوزن ص ٤٧٢ في مواضع متفرقة .

(٢) أغاني ٢٦١/٢ .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنته في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض مُدَّاح الأولين في الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمديحه وتسرّ وروود الثناء فى طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين فى العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة^(١) بن بدر الغداني التميمي ومسكين^(٢) الدارمي ، وقد شُغِف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبيد الله^(٣) . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولّى عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفت حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى^(٤) همدان ودكسين^(٥) الفستيسمي . ويدخل العراق فى طاعة عبد الملك بن مروان فيولّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين^(٦) ولا يلبث أن يعزله ويولّى أخاه بشراً « وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدّحاً » ممدحه جرير^(٧) والفرزدق والأخطل

(١) أغاني (سأى) ١٩/٢١ وطبري ٤/١٦٨ (٤) أغاني ٦/٣٣ وطبري ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .

والمبرد ص ١٧٩ . (٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ . (٦) الحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبري ٥/٤٥ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ . حيث يذكر أنه وزع على الناس فى يوم واحد ألف ألف .

وكثير وأعشى بنى شيبان^(١) « كما مدحه نصيب^(٢) والأقيسر^(٣) الأسدي وأيمن^(٤) بن. خرّيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابهِ من مثل جرير والفرزدق وأعشى^(٥) بنى شيبان وحُمَيد^(٦) الأرقط وإيلي^(٧) الأخبيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون في يده بمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفرخ العجلى فيه^(٨) :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفهُ لكلِّ إمامٍ مُصْطَفَى و خليلُ
بنَى قُبَّةَ الإسلامِ حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسولُ
ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النخعي الثقفي^(٩) يهوى أخته
زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملؤه موحدة عليه : فيطلبه ويهرب منه إلى
اليمن ويركب البحر هناك : ثم يعود إليه : وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً
بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، وسنعرض لمدّاحه
عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك
ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو
نُخَيْلَة^(١٠) وأعشى^(١١) تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، والفرزدق

في الأغاني (سأسي) ١١/٢٠ والشعر والشعراء

٣٧٥/١ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة

٣٦٧/٢ .

(٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)

١٩٠/٦ ومعجم الشعراء للرزاني (طبعة الحلبي)

ص ٣٤٢ .

(١٠) انظر الأغاني (سأسي) ١٤٠/١٨ .

(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر في

ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٠/١١

وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٣٢/١١ ومجلة

المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣٤/١ .

(٣) أغاني ٢٧٠/١١ .

(٤) انظر ترجمة أيمن في الشعر والشعراء

٥٢٦/١ والأغاني (طبع سأسي) ٢٥/٢١

والإصابة ٩٤/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨٧/٣

والموشع ص ٢٢١ .

(٥) أغاني (سأسي) ١٥٦/١٦ .

(٦) طبري ١٩٠/٥ وانظر ترجمته في معجم

الأدباء ١٣/١١ .

(٧) أغاني (دار الكتب) ٢٤٨/١١ .

(٨) البيان والتبيين ٣٩١/١ وانظر ترجمته

فيه مدائح^(١) ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائح في خالده القسري الذي ولى بعده^(٢) ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . ومن مدحوا خالدا القسري جرير^(٣) ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وسجن :^(٤)

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان الذي ولى العراق بعده يوسف الثقفي . ونرى الكميته بمدحه تقيه وخوفاً من بطشه^(٥) . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جواداً مِعْطَاءً ، وهو ممدوح أبي عطاء^(٦) السُّنْدِي وبشار^(٧) بن بُرْد وخلف^(٨) بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نوابهم وأصحاب شرطتهم وعمالمهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفي نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق^(٩) وجرير^(١٠) ومثل مالك بن المنذر بن الجازود صاحب شرطة البصرة لخالده القسري . ومن مُدَّاحه الفرزدق^(١١) ، ومثل بلال بن أبي بردة ، نائب القسري على البصرة : وهو ممدوح ذى الرمة^(١٢) والفرزدق^(١٣) وحمزة^(١٤) بن ببيض . وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوايد البجلي صاحب الخراج في عهد القسري ، ومن مُدَّاحه الفرزدق^(١٥) . ومثل قطن بن مدركة الكلابي وإلى البحرين : وقد خصه الفرزدق

- | | |
|---|--|
| (١) الديوان (طبعة الصاوي) ص ٢٨٠ . | (١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ . |
| (٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ . | (١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغاني (ساسي) ٣٨/١٦ والمبرد ص ٢٥٩ . |
| (٣) الديوان (طبعة الصاوي) ص ١٧٤ . | (١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ . |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ . | (١٤) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي) ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ . |
| (٥) أغاني (ساسي) ١١٦/١٥ . | وراجع فهرس البيان والتبيين والحيوان . |
| (٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ . | (١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٣٠ ، ٨٧٦ . |
| (٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ . | |
| (٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ . | |
| (٩) الديوان ص ٢٣ . | |
| (١٠) أغاني (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها . | |

بعض مدائح^(١) ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً
ممدّحاً ، ومن مدّاحه جرير^(٢) وأبو نُخَيْلَة^(٣) وذو الرمة^(٤) . ومن ولاية فارس
الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مسعود ، وله أحاديث
كثيرة في جوده^(٥) وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم^(٦) وأبو حُرَابة^(٧)
ومن ولاية الرّىّ الممدّحين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان^(٨) .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك
يَكِيلُون الأموال والعطايا للشعراء كيلاً ، وهم بدورهم ينثرون عليهم
رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسرة لم تَحْظَ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن
أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم وليّ للحجاج خراسان
سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفّي سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى
أن صرفه عنها ولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر .
وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد
الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق .
ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه في أموال خراج خراسان ،
ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ، غير أنه لم يلبث أن
قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره
هلال بن أحوّز المازني .

ولعلنا لا نُبْعِد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسرة البرامكة
في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها بجورا فياضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلاً
في خراسان والعراق جميعاً ، ويؤثّر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن
يشترى الممالك بماله ولا يشترى الأحرار بمعرفة^(٩) » ونرى الشعراء مصطفين

(٦) أغاني (دار الكتب) ٣٧٩/١٥ ، ٣٨٥ .

(٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي)

١٥٢/١٩ .

(٨) أغاني (دار الكتب) ٥٦/٦ .

(٩) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ .

(١) الديوان ص ٧٠٠ .

(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٣) أغاني (ساسى) ١٤٥/١٨ وما بعدها .

(٤) انظر فهرس ديوانه .

(٥) المحبر ص ١٥١ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب^(١) الأشقرى وزباد^(٢) الأعجم
وحمزة^(٣) بن بيض والمغيرة^(٤) بن حبشنة التيمي ونهار^(٥) بن توسعة ، وله يرثيه حين
توفي بمرو الروذ :

ألا ذهب الغزو المقرب للغي مات الندى والحزم بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً ، وتوفى قبله بقليل ، فبكاه
الشعراء طويلاً على شاكلته قول زياد الأعجم في مراثية بدعية له^(٦) :

إن الساحة والمروعة ضمننا قبراً بمرو على الطريق الواضح
ولا يكاد يوجد شاعر في البراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه
به تنويهاً بعيداً ، ومن مدّحه الفرزدق^(٧) ونهار^(٨) بن توسعة وحمزة^(٩) بن
بيض وحاجب^(١٠) الفيل والعدّيل بن الفرخ العجلي وفيه يقول^(١١) :

يداه يَدُ بالعرف تنهب ماحوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنَةُ لا يفارقان مجلسه^(١٢) ، وفيه يقول ثابت
حين خذله أهل العراق في ثورته على بني أمية وفرّ واعنه ، فقتل قَعَصاً بالرماح^(١٣) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَإِنَّ قَتْلَكَ لَمْ يَكُنْ عَاراً عَلَيْكَ وَبِعُضُّ قَتْلٍ عَارُ

- (١) طبري ٢٢/٥ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغاني
(٢) دار الكتب ١٨٧/١٤ وما بعدها .
(٣) أغاني (دار الكتب) ٣٨٣/١٥
وما بعدها .
(٤) أغاني (ساسي) ٢٤/١٥ .
(٥) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٦٧/١
وأغاني (دار الكتب) ٨٤/١٣ والخزانة ٦٠١/٣
وفهرس الطبري ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٧٣
والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث
يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر
ميم في عصره .
(٦) انظر في ترجمة نهار بن توسعة وأخباره
الشعر والشعراء ٥٢١/١٠ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى
(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .
(٨) الشعر والشعراء ٥٢٢/١ .
(٩) أغاني (ساسي) ١٨/١٥ .
(١٠) أغاني (دار الكتب) ٢٦٤/١٤ وما
بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٦١٣/٢
وفهارس الطبري والبيان والتبيين والحيوان وأمالى
المرتضى (طبعة الحلبي) ١٠٥/٢ .
(١١) أغاني (ساسي) ١٣/٢٠ .
(١٢) أغاني (دار الكتب) ٢٦٦/١٤ .
(١٣) أغاني ٢٧٩/١٤

وكان أخوه المفضل ممدّحاً ومن أشادوا به كعب^(١) الأشقرى وثابت^(٢) قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة^(٣) بن بيض والكميت^(٤) . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول^(٥) بسكّير بن الأخنّس :

نزلتُ على آل المهلب شاتيا فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محلّ^(٦)
فما زال بي إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي^(٧)

ومن ولاية خراسان الممدّح حين قتيبة بن مسلم الذي ولّيا للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبني أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند . وقد تغنّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة^(٨) بن حبيبنا وكعب^(٩) الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول^(١٠) :

وما كان مذ كُنّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمٍ
أعمّ لأهل الشُّرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغمٍ

ولها لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكمي ممدوح الفرزدق^(١١) . ومن الأجواد الممدّح حين الذين ولوها لخالد القسري الجُنَيْد بن عبد الرحمن المرّي ممدوح جرير^(١٢) ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

(١) طبري ١٩٤/٥ . عن كثرة سؤالهم عنه واعتمادهم بأمره .

(٢) أنظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني (٨) طبري ٢٤٠/٥ .

(٣) طبري ٢٤٧/٥ وأغاني (دار الكتب) ٢٧٥/١٤ .

(٤) أغاني (ساسي) ١٩/١٥ .

(٥) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ .

(٦) البيان والتبيين ٢٣٣/٣ .

(٧) محل : مجلبة .

(٨) الديوان ص ٢٢٨ .

(٩) الديوان ص ٥١ .

(١٠) الافتقار : طلب الشيء عند غيبته كناية

به الفرزدق طويلاً^(١) . ولها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغيثاً مدبراً ، وهو آخر ولايتها للأمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق^(٢) وثابت^(٣) قُطْنَةُ ومن مُدَّأَحِه في ولايته أبو عطاء^(٤) السَّنْدِي . ومن قُودَاد الجيوش في خراسان هلال بن أَحْوَز المازني الذي أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَتهُم بن صفوان متكلم المرجئة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق^(٥) وجريير^(٦) .
ويلقانا في سَجِسْتَان من الممدَّحِينَ عبد الله بن الحَشْرَج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم^(٧) :

إِنْ السَّاحَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزَاعِي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حُزَابَة^(٨) وعُؤَيْف^(٩) القوافي والمغيرة^(١٠) بن حَبْنَاء ، ونُوَّه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفى رثاه بقصيدة بديعة^(١١) ومنهم عبيد الله بن أبي بكرة ممدوح الفرزدق^(١٢) وابن مفرغ^(١٣) ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبي جِلْدَةَ اليشكري ، وفيه يقول حين وافاه الموت^(١٤) :

كُنْتُ الشَّهَابَ الَّذِي يُرْمَى الْعَدُوَّ بِهِ وَالْبَحْرَ مِنْهُ سِجَالُ الْجُودِ نَغْتَرَفُ

ومن ولاية الحجاز الممدَّحِينَ سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وكان يَسْتَحِرُّ

-
- | | |
|---------------------------------|--|
| (١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، | (٨) أغاني (ساسي) ١٥٣/١٩ : |
| ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ . | (٩) انظر في ترجمة عوف أغاني (ساسي) |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٠٥/١٧ والخزانة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ٢٢٧ . |
| (٣) طبري ٣٩٩/٥ . | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ . |
| (٤) أغاني (ساسي) ٨١/١٦ . | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ . |
| ٥٥٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ . | (١٢) الديوان ص ٥٧ . |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ . | (١٣) أغاني (ساسي) ٧٠/١٦ وما بعدها . |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ . | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ . |

في كل يوم جزواً يطعمه الناس^(١)، ومن نوهوا به الحطية^(٢) والفرزدق^(٣). وكان ابن الأزرقي الخزومي والي ابن الزبير على اليمن جواداً معطاءً، وهو ممدوح أبي دَهْبل^(٤) الجمحي. ولعل واليا لم يُمدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بحراً سيالاً من بحور العرب، ومن مدَّ أحه نُصَيْب^(٥) وابن قيس^(٦) الرقيات وكثير^(٧) وعبد الله^(٨) بن الحجاج والأحوص^(٩) وأيمن^(١٠) بن خريم وأمية^(١١) بن أبي عائذ. ومن ولاها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزين^(١٢) الكناني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عبيد^(١٣)، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي^(١٤)، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عؤيف^(١٥) القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير^(١٦)، وأسماء بن خازجة ممدوح القطامي^(١٧) وأعشى شيبان^(١٨)، وعكرمة بن ربيع الفياض ممدوح الأخطل^(١٩) والعديّل^(٢٠) بن الفرخ العجلي، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق^(٢١) وأبي الأسود^(٢٢) الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر^(٢٣) الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العديّل^(٢٤)، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه

- | | |
|--|-------------------------------|
| (١) الحبر لابن حبيب ص ١١٥ | (١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٣/١٥ |
| (٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، ١٠١ وأغاني (سأى) ٣٨/١٦ | (١٣) أغاني ٤٢٥/٢ |
| (٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ | (١٤) أغاني (سأى) ١١٩/٢٠ |
| (٤) الحبر ص ١٥٢ | (١٥) أغاني (سأى) ١١٧/١٧ |
| (٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدها | (١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ |
| (٦) أغاني ٨٧/٥ | (١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ |
| (٧) البيان والتبيين ١٢/٣ وأغاني (دار الكتب) ٣٣/٩ | (١٨) أغاني (سأى) ١٥٧/١٦ |
| (٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ١٥٨/١٣ والبيان والتبيين ١/٣٩٠ | (١٩) ابن سلام ص ٤١٧ |
| (٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ | (٢٠) أغاني (سأى) ١٨/٢٠ |
| (١٠) أغاني (سأى) ٧/٢١ | (٢١) الديوان ص ٢٢٠ |
| (١١) أغاني (سأى) ١١٥/٢٠ | (٢٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣١/١٢ |
| | (٢٣) أغاني ٢٥٥/١١ |
| | (٢٤) أغاني (سأى) ١٩ ، ١٧/٢٠ |

في الإسلام اجتماعها على كليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدَّاحه ابن^(١) قيس الرقيات . وكان يجري على مثاله في الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل^(٢) بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى^(٣) شهوات ، وفيه يقول^(٤) :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثَّنا ويرى في بيَّعه أن قد غَبَنَ
وهو إن أعطى عطاءً فاضلاً ذا إخاء لم يكدره يَمَنُّ
وظلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ممدوح الحزين^(٥)
الكناني . ولعل من الخير أن نقف عند نقر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح
لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامي من الجزيرة وكعباً
الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب^(٦)

شاعر حجازي نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتاج للونه
كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :
فإن يك من لوني السَّوادُ فإنني لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة
وكان مُسْتَرْقِئاً لرجل من كنانة من أهل ودّان بالقرب من مكة ، وتيقظت
فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاة ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان
بمصر ، فردَّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فدبَّج فيه مدائح
رائعة من مثل قوله :

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .
(٢) أغاني ٤٠٨/٤ .
(٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني
(طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء
٥٥٨/٢ والخزانة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٢٨٦ .
(٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ .
(٥) المحرر ص ١٥٢ .
(٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب)
٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء
٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن
دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩
وشواهد العيني ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ .

فبَشِّرْ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أَتَاهُمْ
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلي
مع النَّبِيلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نِيلُ
ويفعل فوق أحسن ما يقول^(١)
وقوله :

لعبد العزيز على قومه
فبابك أسهلُ أبوابهم
وغيرهمُ مِنْ غامره
ودارك مأهولةُ عامره
وكفكُ حين ترى السائد
ين أندى من الليلة الماطره
وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قِفُوا خَيْرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي
لمعروفه من أهل ودٍّ طالبُ
فعاَجُوا فَأَتَنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
ولوسكتوا أثنت عليك الحقائق^(٢)
وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى
أوائل القرن الثاني ، وله مدائح في بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام
الخزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في العذريين .

القطايعي^(٣)

لقبَ غَلَمَبَ عَلَى عُثْمَيْنَ بْنِ شُعَيْبِ بْنِ التَّغْلَبِي ، وهو من بني القندوكس عشيرة
الأخطل ، ومن ثمَّ نشأ نصرانياً ، غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

٧٠١/٢ والخزاة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩
ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧ ومعاهد
التنصيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد
نشر ديوانه في ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار
الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة بغداد .

(١) ليلي : أم عبد العزيز بن مروان وهي
بنت زبآن بن الأصم الكلبية .
(٢) عاجوا : وقفوا .
(٣) راجع في ترجمة القطايعي أغاني (ساسي)
١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء

وأُسره أحد القيسيين في يوم ماكسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه
افتكته من الأسر ، وردّ عليه ما سُلِب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله
ينوء به وبصنيعه معه طويلاً ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثوىً فقد أحسنت ، يا زُفَر ، المتاعا ^(١)
أَكْفَرُ بعد ردّ الموت عني وبعد عطائك المائة الرّثاعا ^(٢)
ولم أر مُنعمين أَقلّ منّا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا ^(٣)
من البيض الوجه بني نَفِيلٍ أبْت أخلاقهم إلا اتساعا ^(٤)

وفي هذه القصيدة يَأْسَى للحروب الناشئة بين تغلب وقيس على ما بينهما من
صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووقف هذه الحروب المُبيرة التي
لا تتوقف راحا حيناً إلا لتعود أشدّ التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنك أن جبال قيسٍ وتغلبَ قد تباينتِ انقطاعا
وكُنّا كالحرّيق أصاب غاباً فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمورٌ لو تدبرها حلِيمٌ إذَنْ لنهَى وهيبٌ ما استطاعا

ووفدَ على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقبل له
إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد ^(٥) بن سليمان سيبرك إن مدحته ،
فمدحه ، وأضنى عليه كثيراً من بیره ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنّا محيوك فأسلمَ أيها الطَّلِلُ وإن بليت وإن طالَتْ بك الطَّيْلُ ^(٦)

(١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى :

الضيف المقيم . المتاع : الزاد .

(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجدها .

الرتاع : جمع راتمة .

(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم

لا يمتنون بما يصنعون .

(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بني عامر

ابن صمصمة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره

من الشيم الفاضلة .

(٥) انظر في تحقيق نسب هذا الممدوح

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو

عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص

الخزاعة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامي في الأغاني

وبالقصيدة الأولى في الديوان .

(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمّتها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائحه كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تقرُّ به عَيْنٌ . ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلق خيراً قائلون له ما يَشْتَهِي ولأَمِّ المخطيء الهبل
قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وَبُشَيْد في القصيدة بقريش ونُصِرَتْها للرسول صلى الله عليه وسلم وتشبيهاً للدعائم
الدين الخفيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام . يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتُوا الإسلامَ وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رسل
ومن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزاري . وله فيه أمداح رائعة
على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ فلا هطلتُ على الأرض السماء
ولا رجع البريد بغنمٍ خيرٍ ولا حملتُ على الطُّهر النساء
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعدوية أنغامه
وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفى في أوائل القرن الثاني للهجرة .

كعب^(١) بن معدان الأشقري الأزدي

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار
في حروب المهلب للأزارقة في فارس ولترك في خراسان . وله في المهلب ووصف
حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون
ملحنية . وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبري ثلاثة وثمانين بيتاً^(٢)
وهو في شعره يحسن حوْك اللفظ والمعنى جسيماً على شاكلة قوله يمدح المهلب
وأبنائه :

وراجع الجزء الخامس من الطبري في مواضع متفرقة .
(٢) طبري ١٢٢/٥ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء
٣٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرزباني ص ٢٢٦

براك الله حين براك بحرًا وفجر منك أنهارًا غزارًا^(١)
 بنوك السابقون إلى المعالي إذا ما أعظم الناس الخطارًا^(٢)
 كأنهم نجومٌ حول بدرٍ درارى تكمل فاستدارًا^(٣)
 ملوكٌ ينزلون بكل شغري إذا ما الهام يوم الروع طارًا^(٤)
 رزانٌ في الأمور ترى عليهم من الشيخ السائل والنجارًا^(٥)
 سجومٌ يهتدى بهم إذا ما أخو الظلماء في الغمرات جارا
 وتوفى المهلب ، فلزم ابنه يزيد. يمدحه ويصف حروبه مع الترك وبره
 ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَدَاكَ إِحْدَاهُمَا تَسْقِي الْعَدُوَّ بِهَا سَمًا وَأُخْرَى نَدَاهَا لَمْ يَزَلْ دِيمَا
 ولما عُزل يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلي وانتصر
 على الترك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به وبانتصاراته بمثل قوله^(٦) :
 دَوْخَ السُّغْدَ بِالْكَتَائِبِ حَتَّى تَرَكَ السُّغْدَ بِالْعَرَاءِ قَعُودَا
 فَوَلِيدٌ يَبْكِي لَفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مَرَجَعٌ يَبْكِي الْوَلِيدَا
 وجره ذلك إلى التخلص من عصبية لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ،
 ويقال إنه نال منه وثلبه . وكان قبل هذه الفترة من حياته يشتمع عصبية حادة
 للأزد ، وهي عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريباً مع شعراء قبيلة عبد القيس
 وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة
 سبباً في غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولي العراق وخراسان
 لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُمان ، وظل بها إلى أن ثار يزيد
 على الأمويين سنة ١٠٢ فأُتبعه من قتله .

(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ
 المهلب . السائل : الطباع . النجار : الأصل
 والحسب .
 (٦) طبرى ٢٥٤/٥ والسغد : جنس من
 الترك .

(١) براك : خلقتك .
 (٢) الخطار : المراهنة .
 (٣) نجوم درارى : مضيئة .
 (٤) الهام : الروس ، يوم الروع : يوم
 الحرب والخوف .

زياد^(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه
لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحَسِّن فَنَّ المديح إحساناً رائعاً ،
ومن ظلَّ يمدحهم طويلاً عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فما تَأَبَّى وأعطى فوق مُنَيَّتِنَا وزادا

وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنَا فأحسنَ ثم عُدْتُ له فعادا

أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلَّاتِ بساماً جوادا

ويُروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت
ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفَّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن
الحشرج والى سجستان ، وتوفَّى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيما سلف ببيت منه ،
وحدَّث أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبِئَاء ، فأمر
لهم بجوائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنَتَهُ في قوله :

فَتَى زاده السُّلطان في الخير رفعةً إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلٍ

إذ نطق السلطان « الثلثان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له
غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاز صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حَبِئَاء وكعباً ،
وانتدب له المغيرة ، فهاجيا طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق
عليه في عدة قصائد يقول في إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيْلَةُ خَيْرُهَا شَرُّهَا وأصدقها الكاذبُ الآثِمُ

وضيفهم وَسَطُ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً

وهاجى قتادة بن مغرب اليَشْكُرى : وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٢ وراجع أغاني (دار الكتب)
٨٩/١٣ وما بعدها وذي الأمال ص ١٠ والجزء
الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .

(١) انظر في ترجمة زياد أغاني (دار
الكتب) ٣٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧
والشعر والشعراء ٣٩٥/١ ومعجم الأدباء
٢٢١/١١ والخزانة ١٩٣/٤ والاشتقاق

وكان مُغَرَّرِي بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق هم بهجائه حين رآه يُكثِّر من هجاء المغيرة بن حَبِئْناء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق
وإننا وما تُهدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَ في البحر يَغْرِق

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والثناء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفي في حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التي اشتعلت - كما مرّ بنا - نيرانها في كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا - فيما يظهر - كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الردّة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية، على نحو ما يروى عن أبي شجرة السلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش. وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين عليّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من اليمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان في قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان في موقعة صفّين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه في الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصوات مُضَرِّيَّة كثيرة . وحدث هذا نفسه في صفوف خصومه ، مما نجد آثاره في الطبرى وفي

وقعة صِفِّينَ لنصر بن مزاحم . وعيناً حاول على* أن يُعَلِّي كلمة الإسلام الذي حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت في تولى قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشهرت سيوفها في وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة .

وما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحق قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحولّه من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استشعار العصبية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنات بنت الفُرافصة . وتزوج معاوية من مَيْسُون بنت بَحْدَل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زَبَّان بن الأصبغ الكلبي ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه لعل ذلك ، لأن الصَّهْر عند العرب كالنسب ، ووسّع استغلاله ، إذ ضمَّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرَى في أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفى يزيد وجدنا العصبية تستعر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها في أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيتهما بتغلب الرّبعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وسلَّ الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آبائهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومراً بنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرثق الفتق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلي طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلي حتى لنجد أبا نُخَيْلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخراً بانتصارهم على شاكلة قوله ^(١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المراق
ضرباً يُقيم صعر الأعناق بغير أطماع ولا أرزاق ^(٢)
إلا بقايا كرم الأعراق

ولم تستخدم العصبية القبلية في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُند البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالى بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبية ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالاً بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولئى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولَّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيس وتميم ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلى مثلاً رفعت قيس وتميم رؤوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً في اكتنازها ، وقرأ في أى شاعر من عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من مواليها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

عن الكبير والقطرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبَسَاء النخعي وقادة بن مغرَّب الشكري وابن عمه أبا جِلْدَة^(١) . وقد يرتفع صوت في أثناء هذا الضجيج با عتزال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسعة^(٢) :

أبى الإسلام لا أَبَ لى سواه إذا هتفوا ببكر أو تيمر

ولكن مثل هذا الصوت كان يضعف في غمار هذه العصبيات التي استعلت سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأُمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميث بن زيد الأسدي يشير معركة حامية مع حَكِيم^(٣) بن عياش الكلبي وهرون^(٤) مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا ولَّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي هجاء مريراً^(٥) ، ويقال إنه هجى يزيد بن معاوية وشبَّ بأخته رملة تشبيهاً أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف^(٦) :

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرار بن منقذ الأسدي ومُساوِر بن هند العبسي . ومن طريف ما للمرار قوله^(٧) :

-
- | | |
|--------------------------------------|--|
| (١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ . | (٦) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني |
| (٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ . | (سامي) ١٤٧/١٣ ، ١١٤/١٤ وما بعدها |
| (٣) أغاني (سامي) ١٢/١٥ ومعجم الأدباء | والشعر والشعراء ٤٥٦/١ وقد طبع له ديوان على |
| (٤) الحيوان ٧٥/٧ . | الحجر في دهلي ونشره كرئكو مع ديوان أبي |
| (٥) أغاني (سامي) ١٤١/١٣ والمبرد | بكر بن العزيز . |
| ص ٢٨٩ . | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ . |

شقيتُ بنو عَبَسٍ بشعرٍ مساورٍ إن الشقَّ بكلِّ حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرصاء الديباني وابني عمه عقيل بن علفّة وأرطاة بن سُهَيْبَة ومهاجاة ابن مَيْدَة والحكم الحُضْرَى ، وكان في ابن مَيْدَة ^(١) شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم البني وشُقْران مولى بني سلامان .

وعملتُ بجانب هذه العصبية أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصبُّ عليهم سُواطِئ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويسقط بغضبه على من فضله كما مر بنا في تهاجى المغيرة بن حَبَشَة ، وزباد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحزّين الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله ^(٢) :

مواعيدُ عمرو تُرهاتُ ووجهه على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذممٌ وأكذبُ خلق الله حين يقول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربّعي مع المتوكل ^(٣) اللّبيّ ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب)
١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب
البيت المشهور :
لاتنه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء
٧٤٧/٢ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار
الكتب) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧
والخزانة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥

(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قَدَّم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في هجوه على نحو ما صنع
الشَّمْرَدَلُ بهلال^(١) بن أحوز المازني فارس تميم في عصره غير مدافع . وقد
يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له بلفائه ، فيصب عليه نار هجائه ، على نحو
ما روى الرواة عن حجب مقاتل بن مسعم بن مالك لأبي جليدة الشكري ،
فقد تولَّى بهجوه بمثل قوله^(٢) :

قَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ابْنَ مِسْمَعٍ وَكَانَ لَثِيماً جَارُهُ يَتَذَلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ
ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ،
وكان على شرطة القُبَاعِ والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازور عنه
فهجاه وهجا عشيرته الحَبَّاطَاتِ طويلاً . وفيها يقول^(٣) :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبَّاطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم
والذين طالما مدحهم الشعراء يُهَجَّوْنَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد بهجوم
ابن مفرغ ، والحجاج بهجوه العُدَيْلِ^(٤) بن الفرخ العجلي ومالك^(٥) بن الريب
التميمي . وفيه يقول^(٦) :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفَ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادِ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُّ بِذُلِّهِ يَرَاوِحُ صَبِيَانَ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّالِ عصبيةً لقبيلته تميم

(١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ .

(٢) أغاني ٣٣١/١١ .

(٣) البيان والتبيين ٣٧/٤ والخزانة ٢٨٠/٤ .

(٤) أغاني (سامي) ١٣/٢٠ .

(٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء ٣١٧/١ ومجمع الشعراء ص ٢٦٥ .

(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجائهم عمر^(١) بن هبيرة الفزاري وخالد القسري^(٢) ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار^(٣) :

بكت المنابر من فزارة شجوها فالآن من قسرٍ تضح وتجزع
وكان المهالبة مدحاً حين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء
وعلى رأسهم الفرزدق^(٤) . ومن ولاية الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن
مسلم الباهلي والي خراسان ، وسرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله
العبيشي مهجوّ أبي حزابة^(٥) . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتاب بن
ورقاء والي الرّي وأصبهان حين جفاه بمثل قوله^(٦) :

ويركب رأسه في كل وحلٍ ويعثر في الطريق المستقيم
ويهجو أبو نضيلة المهاجر بن^(٧) عبد الله والي اليمامة . وفي الحجاز نجد
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن^(٨) حزم والي المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد
العرجي مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام الخزوي والي مكة لهشام بن عبد الملك .
ونحن نقف قليلاً عند ثلاثة من الهجائيين هم ابن مفرغ البصري والحكم بن عبيد
الكوفي وثابت قطنة الخراساني .

ابن مفرغ^(٩)

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترقاً للضحاك الهلالي فأعتقه . وكان يتقن
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأه أنه كان من حفدة
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبع .

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ . | (٧) أغاني (سأى) ١٨/١٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأى) ١٩/٢٣ . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٤/٢٣٧ . |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ١١/٣٧٩ . | (٩) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام |
| (٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ . | ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغاني |
| (٥) ٢٦٢ ، ٤١٢ . | (سأى) ١٧/٥١ والطبري ٤/٢٣٥ والاشتقاق |
| (٦) أغاني (سأى) ١٩/١٥٢ . | ص ٥٢٩ ومجمع الأدباء ٢٠/٤٣ والخزانة |
| (٧) البيان والتبيين ٤/٥٠ . | ٢/٢١٢ ، ٥١٤ . |

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي دلح لسانه فيها أن سعيد بن عثمان وإلى معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عَبَّاد بن زياد وإلى سجستان ، وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكبته ، فهبت ريح ، فنفضت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى كَانَتْ حَشِيشًا فَنَعْلِفُهَا دَوَابُّ الْمُسْلِمِينَ
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يحفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صحبته وتركه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إِنْ تَرَكِي نَدَى سَعِيدِ بْنِ عَثْمَا نَفَى الْجُودِ نَاصِرَى وَعَدِيدَى
وَاتَّبَاعَى أَخَا الْوَضَاعَةِ وَاللُّؤَى مَ لِنَقْصُ وَفَوْتُ شَأْوٍ بَعِيدِ
وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدى عليه دائنوه عَبَّاداً ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْدٌ وجارية تسمى أراكاة ، فبكاهما طويلاً بمثل قوله :

وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً (١)
يَا هَامَةً تَدْعُو صَدَى بَيْنَ الْمُشَقَّرِ فَالِيَامَةِ (٢)
الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ (٣)

وأخذ يهجو عَبَّاداً وأخاه عبيد الله وإلى العراق وأباهما زياداً هجاء مقذعاً ، وكان مما وقف عنده طويلاً استلحاق معاوية لزياد ، معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو اللد أي أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعث .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصنى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين وفجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً في الغمامة .

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغللة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زاني
وأشهد أن إلك من زياد كإلّ الفيل من ولد الأتان^(١)
وكان أهل البصرة يتغنون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،
فطلبه وألحّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائب عنها في وفادة
على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمندرين الجارود ، وكان عبيد
الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرَعْ جوار المندر ، وأخذ ابن
مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكّل به ، فأمر — كما مر بنا في غير هذا الموضع —
أن يُسْقَى نبيذاً ويُحْمَل على بعير مقروناً إلى هِرَّةٍ وخنزير ويُطاف به في أزقة
البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية
ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُمَيَّة هجاء مقذعاً .
ورُدَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً
ألياً ، فألّى به في غيابات السجون . وشفعت فيه اليمينة عند يزيد بن معاوية ،
وألّحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى بهجواً عَبَّاداً وأخاه عبيد الله،
وخاصة حين خلا له الجحوى بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن
معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقُط عليه بهجاء مريـر . وقد توفى سنة تسع وستين .

الحكم^(٢) بن عبدل

من بنى أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بنى أمية ،
فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك
وحظي عنده ، وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته
أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعري وليت ربما نفعت
هل أبصرن بنى العوام قد شملوا
بالذلّ والأسر والتشريد إنهم
على البرية حتفٌ حيثما نزلوا

الأدباء ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان
والتيبين والحيوان .

(١) الإل : القرابة .
(٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أغاني
(دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم

ولما دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلده، وكانت فيه فكاهاة جعلته يتصعلك في بعض مدائحه ، إذ نراه يصف لمدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان^(١) . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي ، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريري . وكان هجاء خبيث اللسان ، ومن هجاهم طويلاً محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلّمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجهِ فردّه ردّاً قبيحاً جعله يسأل لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رَأَيْتَ مُحَمَّدًا شَرِّهًا ظُلُومًا وَكُنْتَ أَرَاهُ ذَا وَرَعٍ وَقَصْدٍ
يَقُولُ : أَمَاتَنِي رَبِّي خِدَاعًا أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ
وذاعت القصيدة على السنة الكوفيين ، حتى كان المُكَارِي يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدَّ ، أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخطبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَمَا كَانَ حَسَّانُ بْنُ سَعْدٍ وَلَا ابْنُهُ أَبُو الْمُسْكَ مِنْ أَكْفَاءِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ^(٢)
خَذَى دِيَةً مِنْهُ تَكُنْ لِكَ عُدَّةً وَجِيئِي إِلَى بَابِ الْأَمِيرِ فَخَاصِمِي
وكان ذلك سبباً في نقض هذا الصُّهْر ، إذ أنفت للفتاة عَشِيرَتُهَا وردت ابن حسان ردّاً قبيحاً . ومن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدي صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جِئْنَا وَبَيْنَ يَدَيْهِ التَّمْرُ فِي طَبَقِي فَمَا دَعَانَا أَبُو حَفْصٍ وَلَا كَادَا
وَوَلِي إِمَارَةَ الْكُوفَةِ لِمُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي وِلَايَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ عَبْدُ الْحَمِيدِ
ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شُرطته مثله أعرج ، فدخّل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده في أبيات :

(١) انظر الحيوان ٢٩٧/٥ وفي مواضع متفرقة . (٢) يكنى ابن عبدل بأبي المسك عن ذن ابن حسان .

أَلْقَى الْعَصَا وَدَعَرَ التَّخَامِعَ وَاتَّشَمَّسَ عَمَلًا فَهَأَيَ دَوْلَةً الْقُرْجَانِ^(١)

فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :
« لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من
الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم
أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته .
ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قَدَّرَ وأوفر
مما أُمِّل ، فقال يحيى بن نوفل^(٢) :

عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ وَنَحْنُ عَلَى الْأَبْوَابِ نُقْصَى وَنُحْجَبُ^(٣)

وللحكم هجاء فكاه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها
متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفى في مطلع القرن
الثاني للهجرة .

ثابت^(٤) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتبيك الأزدية ، وقيل بل هو مولى لهم ،
ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك ، فذهب
بها ، فكان يجعل عليها قُطْنَةً . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في
ولاية يزيد بن المهلب الأزدي على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،
فيعحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون
فقال إلى قولهم واعتقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف
حديثنا عن الثقافة .

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء ،

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء ،

٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٧/٤ والطبرى

٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

والخرافة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

وكان مولداً بهجاء خالد القسري وعبد الملك بن

ويلتئم في ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب في حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بني الكوآء اليشكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبهري هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم واليشكُريون منهم أَلأمُ العربِ
وَيَمْضَى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له وُدَّةً ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تَنْزُو في الفساد وفي الوَغَى إذا راعها رَوْعُ جماميحُ بَرَوْقٍ^(١)
وَأَنْتُمْ عَلَى الْأَدْنَى أُسُودُ خَفِيَّةٍ وَأَنْتُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ خِزَانُ سَمْلَقٍ^(٢)

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزور عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاءه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

تَوَافَتْ تَمِيمٌ فِي الطَّعَانِ وَعَرَّدَتْ بُهَيْلَةٌ لَمَّا عَايَنْتْ مَعْشَرًا غُلُبًا^(٣)
تَسَامُونَ كَعْبًا فِي الْعُلَا وَكَلَابًا وَهِيَهَاتُ أَنْ تَلْقُوا كَلَابًا وَلَا كَعْبًا

وأهمُّ شاعر اعطدم به حاجب بن ذبيان المازني التميمي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

(١) تنزو : تثب . الروع : الفزع . جمع خُزَزَ وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .

الجماميح : ما ثبت على رؤوس القصب مما إذا دق

تطايير . بروق : ثبت ضعيف .

(٢) خفية : أجمة في سواد الكدية . خزان :

والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .

(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقبه في هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسماه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أضلك زَيْفُ وأنتك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وَأَنى لو أكثرْتُ فيك مقصّرٌ رَميتُك رمياً لا يَبِيدُ يدَ الدهرِ

وله أشعار كثيرة في مدح المهالبة وراثهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بنى أمية طويلاً ، وهو في مديحه وراثه لم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفي قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

٣

شعراء النقائض

هياً استعار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هياً لنمو فن النقائض نمواً واسعاً ، وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردّها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملامى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلي وإما باللهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت — كما رأينا في غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملامى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقبّلان على البناء وتجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى الهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرٌ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَويَّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمّع الناس من حوالهما يصفّقون ويهتفون ويصيحون^(١) . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سدُّ حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهي .

وتدخلت في صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردّها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النّحو السياسي والعقيدية وفي الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثّقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَدِ مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان^(٢) . وكان أولهما من عشيرة كُليب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفهما كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت السّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو^(٣) .

أجزاء ضخمة . ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوي سنة ١٩٣٥ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٢/١٠

وطبعة ساسي ١٠٣/١٩ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشعراء ، وحقق الشرح ونشره بيّن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع وإلى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجد في نقيضتين لهما يُعلنان نكيريتهما على هذا الوالي ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل^(١) . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مريير ، فاستغاث منه بالسبيث^(٢) المُجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليبٌ أن يحىء حديثها بخيرٍ وقد أعيا كليباً قديمها
فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شواط نار . وأفحش بنسائهم إفحاشاً
شديداً جعلهن يستغنن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فقسيمة التميميين معروفة ، ووَجَدَته عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة ، فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نساءك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يتشوى وجوههم ووجوه عشائريهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الراعى^(٣) ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيّ دنا الرّواحُ فسيراً غلب الفرزدقُ في الهجاء جريراً
وهجاء بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاء بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعيدُها « حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ٥٢/١١ .

(٣) انظر في ترجمة الراعي ابن سلام

ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفي مواضع متفرقة والشعر

والشعراء ٣٧٧/١ وأغاني (سأسي) ١٦٨/٢٠ وفي

ترجمة جرير، وفي الخزانة ٥٠٢/١ والمنوش

ص ١٥٧

(١) شرح التفاض لأبي عبيدة (طبعة بيثن)

ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف

للبلاذري ٢٧٨/٥ .

(٢) انظر في ترجمة البعيث ابن سلام

ص ٣٢٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر

والشعراء ٤٧٢/١ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن

بالمربد ، وكان له مجلس ، وللفرزديق مجلس ، فدعا بدهن* (طيب) فادهن وكف^(١) رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك نيسوتك تكسبهن المال بالعراق ، أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن يميني^(٢) يسوءهن ولا يسرن^(٣) ، ثم اندفع فأشدد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته المشهور :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخيزي والصغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير في نجد ، وهو يردد : فضمنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

ولنما أطلنا في هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النفااض في المربد ، وكيف كان يحتفل بشبابه وزينته : وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصباح والليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير في الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفاً ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم اندحر عمر بن لجأ التيسبي^(٤) ، وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريد
ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأذنون وهم شهود
لثام العالمين كرام تيم وسيدهم - وإن رغبوا - مسود

ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزفة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغاني والموشع ص ١٢٧ وما بعدها .

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .

(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .

(٣) انظر في هذا الخبر أغاني (دار الكتب)

٢٩/٨ .

(٤) انظر في ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل. وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يتبرى نبال الهجاء المصممة، وقد تبادل معه نقائض كثيرة، وظلاسين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يعترف من نبع لا ينضب في نفسه.

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها. فجيرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل. وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان، إذ دفعت تميها الحوادث هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السلتسي وإلى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب. كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك.

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما، بحيث تُعدّ وثائق تاريخية طريفة. وكان ذلك من غير شك يصعب عمل النقيضة، لأنها لم تكن هجاء فحسب، بل كانت أيضاً دراسة، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامي عنها فحسب، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها، حتى ينشر مخازيها في الناس.

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبية القبلية، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبية اختلطت في العصر الأموي بالسياسة، وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب، بل تحتوى كذلك مديحاً، كما تحتوى نسبياً وغزلاً. والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل، وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني. وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريبر عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

نحنُ بزوراءِ المدينةِ ناقى حنينَ عَجُولٍ تبتغي البوَّ رائم^(١)

وهو في غزها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر بما قد بدّر منه من أشعار تصوّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستُ بمأخوذٍ بلَغُورٍ نقوله إذا لم تعمّد عاقدات الغرائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ويمضي فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعِلَتْ لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وغَيْثُ الْمُغْبِرَاتِ الْقَوَاتِمِ^(٢)

وكان الحجاج لحج في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفّي قبل خلافته ، فنكّل بمن لحقوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرأى صورّه فيه طاغياً باغياً ، لقي جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلي وثورته على سليمان بخراسان ، واقتخر بأن تمها بزعامه وكيع بن أبي سُود هي التي قضت عليه . ومضى يكيّل لقيس وشاعرها جريبر هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسّم له جريبر كأنه قيس نفسه فيقول :

حقيقة .

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأيه أى تحن إليه ظناً منها أنه ولدها

(٢) المغبرات القوام : السنوات الجديدة .

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفَّيْكَ جِبِلَّ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةً مَهْدًى شَدِيدَ النَّقَائِمِ^(١)

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذي ضرب الله به مشركي قريش في يوم بدر . ويعتبر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف في يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخراً عارماً بتميم وأيامها في الجاهلية وأجنادها العريقة في الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراغة (الأتان) فهم ليسوا فرساناً ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبني وكانت كليبٌ مدَّرجاً للشنائم
ودائماً يصف كليباً باللؤم والدناءة ، ويُفحش في التَّيْل من نساءها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا ويُلَفِّح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كُلَيْبٍ نَجُومُ اللَّيْلِ مَا وَضَحَتْ لِسَارِ
ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لَدُنْسٍ لَوْمُهُمْ وَضَحَ النَّهَارِ
وما يغدو عزيزُ بني كليبٍ لِيُطْلَبَ حَاجَةً إِلَّا بِجَارِ
ووقف جرير في الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التي لخصناها آنفاً ، ففضى بعد غزهاً يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، يقول :

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا وَجَاءَتْ بِوَزَوَازٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ^(٢)
وما كان جارٌّ للفرزدق مسلمٌ لَيَّامُنَ قِرْدًا كَيْلَهُ غَيْرُ نَائِمِ
أَتَيْتَ حَدُودَ اللَّهِ مَذَّأَنْتَ يَافِعٌ وَشَبَّتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ^(٣)
تَتَّبِعُ فِي الْمَآخُورِ كُلَّ مَرِيْبَةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَائِمِ^(٤)

(٣) المهازم : أصول اللحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه

بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

ومضى يتصممه بأخته جيعشين . وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه المهجاء . كما وصمه بأنه قين ابن قيسن ، فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان لجلده قيون ، فرمى جدته بهم ، كى يغيظه ويحفظه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطقاً من الذل . وكان الذى قتل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيع بن أبى سود اليربوعى . فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثم يقول له :

فغيرك أدى للخليفة عهده وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم^(١)
فإن وكيعاً حين خارت مجاشع كفى شغب صدع الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا وریش الذنابي تابع للقوادم^(٢)

وبذلك استل منه الفخر بحادثة وكيع . وجعلها لقومه اليربوعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قتيبة القيسية وأيامها في الجاهلية . وعمم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة . وغير تغلب بمسيحيته وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين ؛ وكان عمر قبيل منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية . ثأباً وتعبيراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، يعددها . ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له . . وجاءوه بأسرى من الروم . فأمر بحز حلاقهم . وأعطى لبعض من صحبوه أسياف يضربون بها رؤوس هؤلاء الروم . وعرف بعض القيسيين أن سيطلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدسوا له سيفاً كايلاً لا يقطع . فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير ؛ فكان يكرر له هذا

(١) الأهاتم : من أشرف تميم
(٢) القوادم : الريشات الطويلة في مقدمة جناح الطائر ، والذنابي ما خلفها من ريشات قصيرة .

الحادث ليضحك أهل المربد عليه، بما يصور من خوره وجبته، ومن ثم يقول له الفرزدق في نقيضته السالفة :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم
أباً عن كليب أو أباً مثل دارم
ونرى جريراً يرد عليه بمثل قوله :

بسيف أبي رغوآن سيف مجاشع
ضربت به عند الإمام فأرغمت
يداك وقالوا مُحدث غير صارم
ولا تضربون البيض تحت الغمام^(١)
ضربت به عرقوب ذاب بصواري^(٢)
عنيف هز السيف قين مجاشع
رفيق بأخوات الفتوس الكرازم^(٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صوعر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربع مائة، فجعل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نبا في يده، عراقيب الإبل لا صدور الفرسان. ويقول له إنك قين لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتملع حين تمسك به، إنما تحسن الإمساك بالفتوس فهي صناعتك.

وواضح أن جريراً لم يقف بنو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد السلب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق. واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربي عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك غدوا
أبان المقرفات من العراب^(٤)
فأورثك العلاة وأورثونا
رباط الخيل أفنية القباب^(٥)

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب في أعلى الفأس. الكرازم : الفتوس ضخمة الروس .
(٤) المقرفات : الهجينات التي لا يخلص نسبها . العراب : الأصليات في العروبة .
(٥) العلاة : سندان الحداد .

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ الحاربيين . الغمام : أصوات الجيوش ، جمع غمجمة .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القَيْنِ لا قَيْنَ مثله لَفَطَحَ المساحي أَوْ لِيَجْدَلِ الأَدهمُ^(١)

وقوله :

ورَقَّ لَجَدَّكَ أَكْيَارُهُ وَأَصْلَحَ متاعك لا تُفْسِدِ
وَأَدْنِ العَلاةِ وَأَدْنِ القَدومِ ووسَّعَ لكِيرِكَ في المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ يُضحك عليه سامعيه في المرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهما على دين نصرانيةٍ لتَنَصَّرَا
وقوله :

يحبُّكَ يومَ عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْتِ شِيعَتُ اليهودِ

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن النقائص عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقصدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت تقاطع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فنّاً يُقصدُ به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين . ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية^(٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

ودو القيد .

(١) فطح المساحي : تسويتها وتعريضها

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٧٦٠٣٧/٨ .

الجدل أيضاً : التسوية . الأدهم : جمع أدهم ،

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سورياً ، وإذا نزلت بأحدهما شدة
أوحزبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون ، فإذا طُلِبَ جرير لحرب الأزارقة
تشفع له الفرزدق ^(١) ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القسريَّ وحسبه تشفع له
جرير عنده ^(٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه
ويطلقه ^(٣) . ونراه حين يُلسيَّ القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُرَّةً ولا ذاتُ حملٍ من نِفايسٍ تعلَّتْ ^(٤)
هو الوافد المحبُّ والراتق الثأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلَّتْ ^(٥)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في
عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة
الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم .
وواضح مما قدّمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة
إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشعاران أن حققا لهم كل ما
كانوا ييغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة
التي استضاء فيها بقدرة العقل العربي الحديثة على الجدال والتوليد في
المعاني . وارجع إلى أي فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيَّين أو فكرة ذل
بنى كليب فستري كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة ،
إذ ما يزال يولد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرّع ويشعب ، وكأنما يريد أن لا يُبْقَى
فيها بقية . وانظر في أي نقیضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء
كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صنّع المتناظرين من أهل اللادّ والخصومة في
المسائل العقيدية ، فهو يحاول بجاهد أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه
في هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثمّ كنّا نرى أن نقائض جرير والفرزدق
فن جديد ، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقدمات في العصور

(٤) تعلت : تطهرت .

(١) أغاني (ساسي) ٢٨/١٩ .

(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

(٢) أغاني ٤٢/١٩ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة ، وهي صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدل والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في انجاء القديم ، وهي ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته : حتى تُضحك المستمعين في المربد ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصباح والصفير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق في جرير :

يُهدى الوعيدَ ولا يحوطُ حريمُهُ كالكلبِ يَنبَحُ من وراء الدار
أو يقول في كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(١)
أو يقول :

أتعدل أحساباً لثاماً أدقّة بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكان جرير يلقيه بمثل قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً أبشُرُ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ
وهو يتفوق على الفرزدق في هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكايه .

وساقت الظروفُ الأخطلُ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميه المناضل عنها . وكان الأخطل - كما قدمنا - يهاجى قيساً في الحروب التي

(١) الأوتار : جمع وتر وهو النّار .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرَجَ راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فُيُنْجِمُهُمْ بأهاجيه المقدعة .

وشاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق في ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجريير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه ^(١) وطبيعي أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجْلِبُ عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشعارين . وإذا هما يَخْلِفَان طائفة كبيرة من النقائص، جمعها أبو تمام ^(٢) . وقد ظلا ينظامانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفى الأخطل حوالي سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَن هجوه ، ومدحوا فرفعوا مَن قدر مَن مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَن هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل » ^(٣)

وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة في نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَنِيَان بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبية بالسياسة . وقد ساقَت الظروف تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، كما ساقَت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستلهمها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُشَبِّعُهُمْ طرفه مولَّهاً ، حتى ليشبَّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمَّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نضارنيا ، فاتفرد بهذا الموضوع في شعره .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .
(٢) نشر صالحاني هذه النقائض في بيروت
سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة في الآستانة ، وقد
اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض
الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من
ديوافيهما نقائض أخرى لها .
(٣) البيان والتبيين ٨٣/٤ .

على أنه لم يُطَنَّب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعن الحبيبة ، مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوهاً بجوده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات ، وهي صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته . ويمضي فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه ينبغي أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكمُ فلا يبيتن فيكمُ آمنا زُفرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة ، ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحشاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الحباب وأن زُفر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لاقهراً من تغلب ، ولكن بُعد نظر . ومضى الأخطل بهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوعٍ فليس لهم
مخلفون ويقضى الناسُ أمرهم^(١)
وهمُ بغيبٍ وفي عماية ما شعروا^(٢)
يتفكُّ من دارمي فيهمُ أثرُ^(٣)
وكل فاحشة سُبِّت بها مُضرُ^(٤)
نَجْرَانٍ أو حُدَّتْ سَوْدَاتُهُمْ هَجْرُ^(٥)

لعزتها وشرفها .

(٤) أنايت : رجعت وتناهد .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ،

يهجوهم بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل .

الهدج : تقارب الخطو .

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ،

والإيراد : ورود الماء . والصدور : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبا بهم .

(٣) يقول إنهم يُلطَمون حيث يكونون في

مؤتمرات الحياض ، فتلطمهم دارم عشيرة الفرزدق

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْدَع فيه إقْداعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نيبال الذل والخسّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات، وكثيراً ما يضمُّ إلى ذلك فخراً بأيامها في الجاهلية ، كما يضم انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقص عليه كالصَّخْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم مأكسين الذي نكّل بها فيه عمير بن الحُباب أو في يوم الكُحَيْل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أو في يوم البِشْر الذي نكّل بها فيه الجَحَاف السُّلَمِيّ ، ضامّاً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً من حَوْمَةٍ لَمْ يَخَالِطَ صَفْوَهَا كَدْرٌ^(١)
 لَمْ يُخْزِرْ أَوَّلَ يَرْبُوعٍ فَوَارِسُهُمْ وَلَا يُقَالُ لَهُمْ كَلَّا إِذَا افْتَحَرُوا
 هَلْ تَعْرِفُونَ بَذَى بَهْدَى فَوَارِسَنَا يَوْمَ الْهَدَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسَرٌ^(٢)
 خَابَتْ بَنُو تَغْلِبٍ إِذْ ضَلَّ فَارِطُهُمْ حَوْضَ الْمَكَارِمِ إِنْ الْمَجْدُ مُبْتَدِرٌ^(٣)
 الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمِيَاءِ إِنْ ظَنَعُوا وَالسَّائِلُونَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبِرُ^(٤)
 الْآكِلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَمٌ وَالنَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَيْرُ^(٥)
 إِنِّي رَأَيْتُكُمْ وَالْحَقُّ مُغْضِبُهُ تَخْزُونَ أَنْ يُذْكَرَ الْجَحَافُ أَوْ زُفَرٌ
 كَانَتْ وَقَائِعُ قَلْنَا لَنْ تُرَى أَبَدًا مِنْ تَغْلِبٍ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
 حَتَّى سَمِعْتُ بِخَنْزِيرٍ صَغَا جَزَعًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا^(٦)

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه

أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذي يتقدم قبل الإبل يملأ لها

الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً، فهم

لا يُسألون في شيء وهم يسألون عن أخبار الناس .

(٥) الحمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التي تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنيً ، وقد لقبه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضى في نفس هذه النقيضة ، فيقول .

رِجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا : أَذَانُهُمْ قَرَعُ النُّوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ^(١)
وَمَا لِتَغْلِبَ إِنْ عَدَّتْ مَسَاعِيَهَا نَجْمٌ يَضِيءُ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ
الضَّاحِكِينَ إِلَى الْخَنْزِيرِ شَهْوَتَهُ يَا قُبْحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا كَشَرُوا^(٢)
وَالْمُقْرَعِينَ عَلَى الْخَنْزِيرِ مَيْسَرَهُمْ بَثْسُ الْجَزُورِ وَبَثْسُ الْقَوْمِ إِذِيسَرُوا^(٣)
جَاءَ الرَّسُولُ بِدِينِ الْحَقِّ فَانْتَكَشُوا وَهَلْ يَضِيرُ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَفَرُوا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْتَجَحَرَ ، ولم يستطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِنْتُ عليه بكفره . وأُعِنَ عليه أيضاً بمهارته في التندير على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله في نقيضة ثانية :

قَبَحَ الْإِلَهُ وَجْهَهُ تَغْلِبَ كُلَّمَا شَبَحَ الْحَجَّاجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا^(٤)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجَبْرِائِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالًا
الْمُغْرَسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِبَنَاتِهِمُ وَالْدَائِبِينَ إِجَارَةً وَسُؤَالًا^(٥)
وَالْتَغْلِيَّ إِذَا تُنَبِّحُ لِلْقَرَى حَكَّ أَسْتِهِ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالًا^(٦)
وَلَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزَنْ مَثْقَالًا
نُبِّئْتُ تَغْلِبَ يَنْكُحُونَ رِخَالَهُمْ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حَلَالًا^(٧)
لَا تَطْلُبْنَ خَوْلَةً فِي تَغْلِبٍ فَالزَّنَجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال :

رفع الصوت .

(٥) يقول لهم بين أجبر وسائل .

(٦) تنبِّح : كانوا يتنبحون في الظلام إذا

ضلوا لئلا يترد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها

للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير

ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور

وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول

لهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على

الخنزير .

ويقول في نقيضة الثالثة :

إن الذى حَرَمَ المكارمَ تَغَلَّبَا جعل الخلافة والنسبةَ فِينَا
مُضَرُّ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم يا خُزَرَ تغلبَ من أبِ كَأَيْنَا^(١)
هذا ابنُ عَمَى فى دمشقَ خليفةً لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطِينَا^(٢)
وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟
فقال تَوَّأ :

أوصى الفرزدقَ عند المماتِ بِأَمِّ جريرٍ عيارها^(٣)
ولم يكده يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاءً عنيفاً من وزن هذا البيت
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبحَ أَلَامَ زوارها^(٤)
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرَوِى الرواة : «إن جريراً أَوْقَى من سير
الشعر ما لم نُؤْتَهُ» ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهججى منه ، قلت :
قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمْ قالوا لأَمهمُ بُولَى على النار
فلم يَرَوْه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تُنْبَحَ للقصرى حَكَ أَسْتَهُ وتمثل الأمثالا
فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوْه^(٥) . ولعل من الخير أن نلجأ بحياة هؤلاء
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه فى
الهجاء والمديح جميعاً .

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى

به جرير عن اللؤم .

(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .

(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .

(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٥) أغاني ٣١٨/٨ .

الأخطل (١)

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة يغرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بكتر جملتي فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمر بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة ، ولما فتحت الفتوح لجئت في أول الأمر مع الفرس والروم ، وسرعان ما اضطرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيلَ منها أن تؤدّي الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بصيفيين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَ الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صيفيين تحطبت في جبل الأمويين ، من سفنيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزلت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها في

أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحاني .

(٢) انظر في أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع متفرقة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٦٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ٤٥٧/١ وراجع فهرس الطبري والأغاني .

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خبر الجحاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٤/١ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة وخزانة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس: Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بني أمية السيد مصطفى غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلَّاً سيوفهما ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافست القبيلتان عن المغازى في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بني الفَدَّ وَكس وُلد الأخطل في بادية الحيرة حوالى سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إِيَاد ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثِر الشَّجار في صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبَلَا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقرن بها سَفَهَةً شديدة ، فكان يُكثِر من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطل ومعناه السفهية . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرض لنساء بني أمية . وكان ممن تعرض لمن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبني أمية منذ وقوفهم مع على في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابن حسان ، فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبه عنى وأهجه ، فقال : « أرادى أنت إلى الإشرار بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام ؟ أخافهم على نفسي ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتي ، فنظم في هجائهم قصيدته التي يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

وغضب النعمان بن بشير الأنصاري ، وكان ممن صحبوا معاوية في حروبه ضد علي وولاه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكوه هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك ؟ قال لسانه ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إني جعلتُ له ذمتك وذمتي ، إذ ردّ عني ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل — كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بني أمية ، فهو يعيش لهم بمدحهم ، وهم يُغدقون عليه . وليس في ديوانه مدح لمعاوية ، ويظهر أن مدحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى في أماليه روى له فيه هذين البيتين ^(١) :

إذا متّ مات العزّ وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّد ^(٢)
ورُدّت أكفّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجدّد ^(٣)

وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسّ في قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية في صيفين وأن الله اختار بينهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تمّت جلودهم والله فضلهم وجَدّ قوم سواهم خاملٌ نكد
ويوم صيفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدّهم — إذ دعوا من ربهم — مدد
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يوازنهم بيئتُ إذا عدّتِ الأحسابُ والعدد

(١) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ٢٤/٢ .
(٢) مصرّد : مقل .
(٣) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصَّيْق وغيرهم من شعراء قيس . ومراً بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان في موقعة مَرَج رَاهِط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَسَمِيَّ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعَتْ فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِعَ في تغلب على نحو ما أسلفنا في الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويذعنون ويدخلون في طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفرّاً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصاص ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَافُ السَّلَامِيّ ، فينشد :

ألا سائل الجحاف هل هو ناثرٌ بقتلى أصيبت من سُليمٍ وعامرٍ
أجحاف إن نهبط عليك فتلتقى عليك بحور طاميات الزواجر

وثب الجحاف يَجْرُ مُطَرَفُهُ غضباً ، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبَقَر من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قَتَلها . وتسمى تلك المعركة معركة « البشر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّ من أسروه إذ قال لهم إنه عَبْد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى المروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنه ، فعاد على أن يؤدّي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الوقعة تصورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذمّةٍ وحبلُ ضعيفٍ لا يزالُ يوصلُ
فإلا تغيرها قريشُ بملكها يكن عن قريشٍ مُستردُّ ومزحلُ^(١)

واستطاع عبد الملك أن يرمّ الفتقَ ويحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً عليّاً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يستلّ بين يديه « وعليه جبة خبزٌ وحرز خبز ، في حنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً^(٢) »

وعصرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبني أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قيس وشاعريهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطِينُ » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحْكِمَ نسجها حتى لتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حُشدٌ على الحق عَيَّافو الحَنَا أنْفُ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجّت على الآفاق مُظلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصِرٌ^(٣)

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

(٣) تدجّت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

(١) بملكها : بقدرتها . مسترد : مرعى .

مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .

أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقَرٍ^(١)
شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسُ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٢)

والأخطل في مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجريز ، بل لاشك في أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ، وكان يعتز بأبائه اعتزازاً شديداً ، فلم يبرع في المديح ، إنما برع في الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ، ومن ثمَّ يَعدُّ هو والأخطل في المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ في الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً في حلاوة الألفاظ وجمال النظم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائح في عبد الملك تُعدُّ درره الشعرية ، وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ بِأَبْيَضٍ لَا عَارِيَ الْخِيَانِ وَلَا جَذِبٍ
وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا عَلَى رِغْمِ أَعْدَاءٍ وَصَدَادَةٍ كُذِّبِ^(٣)
ونراه يُلمُّ في هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولا تهما وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي ، وبشر بن مروان والحجاج ، وسماك الأسدي ، وهو من أجواد الكوفة . ونراه ينوّه بمصقلة بن هبيرة الشيباني أحد قواد طبرستان ، كما ينوّه بعكرمة بن ربيع الفياض وجوده الغممر ، ومن قوله فيه :

إِنْ ابْنُ رَبِيعٍ كَفَانِي سَيِّئُهُ ضِغْنُ الْعَدُوِّ وَعِذْرَةُ الْمُحْتَالِ^(٤)
وَإِذَا عَدَلْتَ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ فَيَضُ الْفُرَاتِ كِرَاشِحَ الْأَوْشَالِ^(٥)
ومن نوّه بهم جرير بن عبد الله البجلي وجداد بن عتّاب التغلبي وهام بن مطرف .

(١) الجذ : الخط .

(٢) شمس : جمع شمس وهو العسير في

(٣) عدوته . استقاد له : أعطاه مقادته وذمامه ،

فخضع وذل .

(٤) كذب : جمع كذوب .

(٥) (٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ،

يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .

(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والراشح : الذي يسيل في قلة .

وتُطوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك ، ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقْصِصُه عنه ، ويُقَرَّبُ منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرِّقَاع العاملي ، وبذلك انزوى الأخطل ، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد ، ومدائح فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يحيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودنانها ونداماها ، ويطيل المديح في عتقها والسرور بشرها ، يقول :

صهباء قد كلفت من طول ما حُبِسْتُ في مخدع بين جنات وأنهار^(١)
عذراء لم يَجْتَلِ الخُطَّابُ بهجتها حتى اجتلاها عبادي بدينار^(٢)
واقراً له القصيدة الأولى في ديوانه ، فستره يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً ، إذ يقول ،

أناخوا فجرؤوا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا^(٣)
ويصف تمشياً في دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدب دبيبا في العظام كأنه دبب زمال في نقا يتهيل^(٤)
ويرسم صورة المنتشى بها نسوة تفقده حسه ووعيه ، على هذا النحو :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاده أحيانا وحيناً نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل^(٥)

إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخبل
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغوفاً شديداً ، حتى لراه يذكر في حديث

له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه^(٦) . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا ، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركا ، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . وراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُقسَمُ بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها . (٣) الشاصيات : الممتلئة .

(٢) عذراء : لم تفض . العبادى : نسبة . (٤) النقا : الكتيب من الرمل .

(٥) نهاده : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٩٠/٨ . نصارى ، سمو العباد .

الفرزدق^(١)

شاعر تميمي ، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل التميمية والمضرية والربعية في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعدّ أكبر القبائل المضرية ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم ويزربوع ومازن ومنقر وبنو الهجيم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها «أورة» بين دارم وعمر بن المنذر ملك الحيرة و«الرحرحان» بين دارم وعامر و«ذونجب» بين يربوع وعامر و«النباج» بين منقر وبكر و«إراب» بين يربوع وتغلب و«جبلّة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طخفة» بين دارم ويزربوع . وكانت وثنية إلا نفرًا قليلًا تنصروا ، وهم يسمّون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أرس بن حنجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وعدي بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبدة بن الطبيب ومتمم

ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأماي ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكمله هل . وطبع في مصر وبيروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ونشر بيغن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي عبدة ، والديوان والنقائض جميعاً في حاجة إلى نشرة علمية محققة .

(١) انظر في ترجمة الفرزدق الأغاني (طبع ساسي) ٢/١٩ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار في أغاني (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء ١/٤٤٢ وابن سلام ٢/٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٩/٢٩٧ وخزانة الأدب ١/١٠٥ ورسالة الجنان لليافعي ١/٢٣٨ وأماي المرتضى ٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٥/٣٣٠ والطبري ٤/١٨٠ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صفين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مرّ بنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلّتا متنافرتين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تتشعب شعباً أهمها بنو فُقَيْمَ وبنو نَهْشَل وبنو مجاشع ، وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة وُلد الفرزدق وهو لقبٌ لقّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحُسْبَرَة الغليظة التي يتخذ منها النساء التفتوت . واسمه هَمَّام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فدّى الموءودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فدّى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكرمة بلحده طويلاً ، من مثل قوله :

أَبَى أَحَدُ الْغَيْثَيْنِ صَعْصَعَةُ الَّذِي مَتَى تُخْلَفَ الْجَوَازُ وَالنَّجْمُ يَمْطُرُ
أَجَارِ بَنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجَرِّرُ عَلَى الْقَبْرِ يُعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرِ
وكان لصعصعة قيون منهم جُيَيْيَرُ وَقُبَانُ وَدَيْسَمُ ، ومن ثمّ جعل جرير مجاشعا قيوناً كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليلي أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السيّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فأكاد يسمع مسألهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما و يربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ فَصْنَعَ صُنْعَهُ ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْمِ مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها في مكان يسمى صَوَّعَر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْدَن ، وتصادف أن أحد أشرار بني مَنَقَر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد غيرَ جرير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، ففي أخباره أنه قال : « كنت أهاجى شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخباره أيضاً أن أباه قدَّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسيته إذ كان يعتدُّ بأبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجِير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجِيرون . ولما توفى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاق الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشره للخمر التي حرَّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين أُلِّمَّ عم له يسمى الحُتَات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكد يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحُثات أخذته وميراث حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبة^(١)
 فلو كان هذا الأمرُ في جاهليَّةٍ علمت من المرء القليلُ حلائبه^(٢)
 ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه في ذنبٍ ذهب بكبش
 من غنم لأهله ، وهو يستهله بقوله :

تلوم على أن صَبَحَ الذنب ضأنها فآلوى بكبش وهو في الرغى راتع
 وهى أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فُقَيْمٍ وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم في قوم ،
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبت وفودُ بني فُقَيْمٍ بِآلمٍ ما تؤوبُ به الوفودُ
 ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النَّهْشَلِيّ ،
 واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،
 وأعانوه على الفرار ، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبيل
 معاوية ، وكان سيداً مدحاً ، فأمنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :
 ترى الغرَّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمرُ في الحدثنِ غالا^(٣)
 قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً
 وسمعه الخطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ
 لا ما نُعلِّلُ به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رَقَّ له وقال : لو أتاني لآمنتته وأعطيته ،
 فقال في كلمة :

دعاني زيادٌ للعطاء ولم أكنْ لآتيه ، ما ساق ذو حَسَبٍ وقرأ^(٤)

وهو السيد الكريم . الحدثنان : حوادث الدهر
 ونوائبه . وغال : أصاب بشر .
 (٤) الوفير : المال الكثير . وأراد التأبيد أى
 لا آتيه أبداً .

(١) حرب : جد معاوية .
 (٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة .
 (٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة
 ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحاجح

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان ،
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنّاني من العاج قاصفٌ على معصمٍ ريانٌ لم يتخذد^(١)
وقوله :

هما دلتاني من ثمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الریش كاسرهُ
وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمرwan بن الحكم ، فولى مروان ، وكانت فيه
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها
أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه
مسكينا الدارمي يتفجع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةَ الإسلام ولّتْ جهارا حين ودّعها زيادُ
فحق عليه حقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أبكى الله عينك إنما جرى في ضلالٍ دمعها فتحدراً
وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهتدم شطر حسبه . ونراه
يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فیهجو بنی
منقر ، ويغضب لهم مرةً بن مسحكان^(٢) شاعر بنی ربيع التميميين وسيدهم ،
فیهجوه وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

ترجى ربيعٌ أن يجيء صغارها بخيرٍ وقد أعيا ربيعاً كبارها
ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتبعه العراق كما
تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعب بن محكان . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(٢) انظر في ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥
والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسي)
٩/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف :
من القصف وهو الحلبه ، يشير إلى وسوسة
الأساور . ريان : تملى . يتخذد : يتجعد .

يدخل - كما مر بنا - مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتي أورتنا نقائضهما آفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النوار وهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قریش فجعلته وليها ، فأنهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء ألحدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبآن الفزاري ، وتشفقت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة ، فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقبلْ شفاعتهم وشُفِّعتْ بنتُ منظور بن زبَّانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مُؤتزرًا مثلُ الشفيعِ الذي يأتيك عُريانا
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ، إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حدراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، وما زالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول في كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسميِّ لما غَدَتُ مني مطلقَةً نواراً^(١)
وكانتُ جنةً فخرجتُ منها كآدم حين أخرجهُ الضَّرار^(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النوار ووُلد له أيضاً زمعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسمي : شخص يضرب به المثل في الندم . (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غِلَظ نفسه ولاشك في أن فشله المبكر في حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إِنَّكَ سَيْفُ اللَّهِ صِيلَ بِهِ عَلَى الْعَدُوِّ وَغِيثٌ يُنْبِتُ الشَّجَرَ

وَوَلَّى الْعِرَاقَ الْحِجَاجُ ، وَكَانَتْ فِيهِ قَسْوَةٌ ، فَخَشَى بَطْشَهُ وَمَضَى يَمْدَحُهُ
مَدَائِحَ رَائِعَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

إِنَّ ابْنَ يُوسُفَ مُحَمَّدٌ خَلَاتِقُهُ سَيَانٌ مَعْرُوفُهُ فِي النَّاسِ وَالْمَطَرُ
هُوَ الشَّهَابُ الَّذِى يُرْمَى الْعَدُوُّ بِهِ وَالْمَشْرِقُ الَّذِى تَعْصَى بِهِ مُضَرٌ^(١)

ونوه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً ، يقول فيه :

وَمَاتَ الَّذِى يَرَعَى عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ وَيَضْرِبُ بِالْهِنْدِيِّ رَأْسَ الْمَخَالِفِ^(٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبية التيمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، واجتمع معه الحجاج وولاته في المشرق ، وتصادف أن توفى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولى لم يكن له هم إلا عمّال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى بخراسان ، فقتلته تميم وردت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتيمة . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يضطرراً اضطراراً للترول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدي السيد الجواد والفراس الشجاع الذى لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضيق عليه من نواله ، فيأبى قائلاً :

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا . (٢) الهندي : السيف .

دعاني إلى جُرجان والرّى دونه لآتيه ، إلى إذن لزّور^(١)
 سآي وتآي لي تميم وربما أبيت فلم يقدر على أمير
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى بمدحه مسرفاً
 في مديحه على شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابه لیس التقي ومهابة الجبار
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

ودار الزمن فنار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته
 مسلّة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب
 في قنديل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع
 تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا^(٢) .

وقد قلنا نفاً إنه ظل طويلاً لا يفد على قصر بني أمية في دمشق ، وأول
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتيه والمتخيراً
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أوجراً^(٣)
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمراً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون
 عن خلافتهم ، مضيفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبر ، تحفها المبالغة
 المسرفة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبر
 كم كان من قسٍ يخبرنا بخلافة المهديّ أو حبر
 جعل الإلهُ لنا خلافته بُرء القروح وعصمة الجبر

(٣) الأوجر : الخائف .

(١) زور : كثير الزيارة .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، وطوّه وجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عبادِهِ نبيٌّ لهم منهم لأمر العزائمِ
لكنّ الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثّقال العظام
ورثم خليلَ الله كل خزانةٍ وكلّ كتابٍ بالنسوة قائم
ولعل في هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً ماثلاً إلى
بنى هاشم وإنهم ليسرسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحجل والحرم
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه ^(١) ، والذي لا شك فيه
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته
وأبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد
تميم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري وإلى يزيد بن عبد الملك ،
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عفّ كريمٌ لست بالطّبع الحريص ^(٢)
أوليت العراق ورافديه فزارياً أحداً يد القميص ^(٣)

وولّى بعده خالد القسري لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمانية ،
وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخّر الناس في شق نهر
المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوهُ بالعملين جميعاً ، يقول :

بنى بيعةً فيها الصليبُ لأمّه وهدم من كُفّر منارَ المساجد
ويقول

أهلك مالَ الله في غير حقّه على نهرك المشؤم غير المبارك

(٣) أخذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير
أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سامي) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : اللثم الدنيء .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكا وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجَّ خالد وأتاب عنه أخاه أسداً ، فردَّ إليه حرّيته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أتاب إلى ربه في سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :

أطعتك يا إبليس سبعين حِجَّةً فلما انتهى شَيْبِي وتمَّ تَمَامِي
فَرَرْتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لآيَامِ المَنُونِ حِمَامِي

وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحدث ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجوييه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غَوَانٍ وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً »^(١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ ضَرْبِنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ^(٢)

(١) البيان والتبيين ٢٠٨/١ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وغطرسة .

الخصوع والذل .

الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز في

وقوله :

تري الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)

وقوله :

إن الذي سَمَك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول^(٢)
 حُلُّ الملوك لبأسنا في أهلنا والسَّابغاتِ إلى الوغى نَتَسَرَّبِلُ^(٣)
 أحلامنا تَزِنُ الجبالَ رزاةً وتخالنا جناً إذا ما نَجْهَلُ^(٤)
 فاذفَعْ بكفِّكَ - إن أردت بناءنا - ثَهلانَ ذا الهضباتِ هل يتَحَلَّحُ^(٥)

والحق أن الفرزدق كان نبعاً كبيراً من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر في أساليبه ، من مثل قوله المشهور في مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملَكاً أبو أمه حيُّ أبوه يُقارِبُهُ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبعياً على هذا النحو :
 « وما مثله (الممدوح) في الناس حيُّ يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعُضَّ زَمَانٍ يابنَ مَرَّوانَ لم يَدَعْ من المالِ إلا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفاً^(٦)

وكان القياس أن يقول مجزئاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشياً مع رَوَى قصيدته . وكان ابن أبي إسحق الحَضْرَمِي راجعه في ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخَرُ منه . وقد عَدَّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثَمَّ دارت أشعاره في كتب اللغويين والنحاة كما دارت في كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(٤) نجعل هنا : نغضب حمية .

(١) وقفوا : وقفت ركابتهم لا يتقدمون .

(٥) ثَهلان : جبل . يتحلل : يتحرك .

(٢) سَمَك : رفع .

(٣) السابغات : الدروع الكاملة . نَتَسَرَّبِلُ : (٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الحوارج وأحداث خراسان ، وله مدائح وأهاج مختلفة في ولايتها وولاية فارس ، أمثال عبيد الله بن أبي بكر وأبي بكر وأبي الحسن والحكمي وعمرو بن عبيد الله بن معمر والحسين بن عبد الرحمن المرزبي . وقد نوه طويلاً بأسد بن عبد الله القسري وهلال بن أخو المازني . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائحه وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين .

٦

(١) جرير

شاعر تميمي من عشيرة كليب البربوعية ، ولم يكن لأبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأعجاد ، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى ربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلاً .

وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً ، أما جدّه الحطّطي فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قبيلة الشعر ، وما يُروى من شعره قوله :

عجبتُ لِإِزْرَاءِ الْعَيْيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتُ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَوْلِ أَعْلَمًا
وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْعَيْيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وراجع فهرس الأغاني في مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوي بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيفر نقائضه مع الفرزدق بشرح أبي عبيدة ، ونشر صالحاني نقائضه مع الأخطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموشع للمرزباني ص ١١٨ وخزانة الأدب ٣٦/١ والعيني ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين - وانظر ذيل الأمل ص ٤٣ والطبري ٢٧٧/٥ ، ٢٧٣

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية
اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر
يتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جده وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة. وقد وجد في جده الخطابي
خير من يلقنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمهم مما رواه له الرواة أبياتاً عاتبه
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان ينحل أبنائه وأحفاده من ماله،
فاستنحله جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاستزاده
فلم يزد، فتسخطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها، وقد وصلها بعد
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي، وفيها يقول معاتباً
جده :

وإني لمغرورٌ أُعْلِلُ بِالْغِنَى لِيَالِي أَرْجُو أَنَّ مَالِكَ مَالِيَا
وإني لَعَفُ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى سَرِيعٌ - إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي - انْتَقَالِيَا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة، فأنشد هذه
الأبيات، فقال له: كذبت إنها لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وَلَيْسَتْ لِسِنِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ وَلِلسَّيْفِ أَشْوَى وَقَعَةٌ مِنْ لِسَانِيَا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى
أى الأطراف، فيبقى على من طعنه، أما لسانه فلا يبقى بقية فيمن يطمعه.
وهو استهلال لحياته الشعرية، يدل على أنه مقتحم بها فن الحجاج، وقد ظل
يجول ويصوم في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد
الفرزدق بنحو ستة أشهر. ونراه يهاجى غساناً السليطي، ويعينه البعيت، فيطمعه
ويطمعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء، فيضطّر الفرزدق أن ينازل،

ويجئدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوه وهو مقيم بالمروث من بادية الحماة بضع سنوات ، فأرسلت بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروث ، ليس عندك أحد يروى عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فأنحدر إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدت لثغر قوى مشهداً آثرتُ ذاك على بنى ومالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُبَاع (٦٥ - ٦٦ هـ) يأمر - حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمربد - صاحب شرطته عبّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ دارى مرّتين هدمتها وكنت ابن أُختٍ لا تُخاف غوائله
ويقول جرير :

وما في كتاب الله هدمُ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مداخله

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءونى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إننى لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويروى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوى عوى من غير شىء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما^(١)
خروج بأفواه الرواة كأنها قرأ هندوانى إذا هز صمما^(٢)

كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صم : قطع اللحم وبرى العظم .

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذى تحدّثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها

فسأل عن صاحب البيت ، فقليل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع
الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل ألام على أن
يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة في
نساء عشائهم ، كقوله في نساء عشيرة سُراقة البارق ، وكان ممن رفعوا الفرزدق
عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقٍ مالهن مهوراً

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لُحْثَا
التَّيْمِيُّ إلى حين ويقال لهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل
ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر
بأن يُضْرَبَا تأديباً ، فضربا وأقيما على البُلُس^(١) مقرنين . وعادا إلى العراق ،
وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حضرَ الملوكَ وفودُهم نَتِفَتْ شواربهم على الأبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد
أن ثَلَبَهَا وشاعرها ثلباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة
أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيْمِ في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ،
فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلاً له :
اتَّقِ الله ، فإن هذا المسجد بُنيَ لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ،
وهو يقول :

إِنَّ الهُجَيْمَ قَبِيلَةٌ مَلْعُونَةٌ حُصَّ اللَّحَى مُتَشَابَهُو الْأَلْوَانِ^(٢)
لو يسمعون بأكلةٍ أو شربةٍ بَعْمَانُ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بَعْمَانُ
متوركين بينهم وبناتهم صُعَرَ الْأَنْوَفُ لَرِيحٍ كُلُّ دُخَانٍ^(٣)

(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم
وبنهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع
أصعر وهو الذي ينظر بوجهه لا وياً عنقه .

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ،
كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر في ذقنه وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٨٩٥) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدّم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أطلّ هذا العصر، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدّم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة، فيمدحه برجز، يقول فيه :

خليفة الحجاج غير المتهم في معقِدِ العزِّ وبُؤْبُؤِ الكرم^(١)

واستنطقه فأعجبه ظرّفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعث به إلىّ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدامح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ ^(٢)
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِظَةً	إِذْ لَا يَثِقَنَّ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ ^(٣)
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضْهُعِ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُخْضِي هَمَّهُ	وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي ^(٤)
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهُدَى	وَاللَّصَّ نَكْلَهُ عَنِ الْإِذْلَاجِ ^(٥)
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا	سَبِيلَ الضَّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَّاجِ ^(٦)
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ	غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاخِنٍ وَأُجَاجِ ^(٧)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ	وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلبها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سدّ ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة وحفاظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصوّر كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ : أصل .

(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصدر .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) الغمرات : الشدائد . داجي : مظلم .

جمع داخن وهو الدخان .

(٥) الإذلاج : السير ليلا .

(٦) الضجّاج : الباطل .

(٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن :

الرشوة وقضى على اللصوص وقطّاع الطريق في الليل المدلهم . ويقول إنه قوّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّده بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ فأسمع ذا المعارج فاستجابا^(١)
صبرتَ النفسَ يابنَ أبي عَقلٍ محافظةً فكيف ترى الثّوابا
ولو لم يرَضَ ربُّكَ لم ينزلْ مع النَّصرِ الملائكة الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجُ أثَقَبَها شهابا
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسه للأخطل شاعر تغلب
النصراني ، ويُنتَقَلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيسَغْبِطُهُ عليه لروعة شعره ومهارته
في المديح . ورأى الحجاج أن يُهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة في
أن يَمَثُلَ بمدحِه بين يديه ، فصحبه معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ،
ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه
في الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التي يقول في استهلالها :

تعزّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ رَأَيْتُ المُرْدِينَ ذَوِي لِقَاحِ^(٢)
تعلّل ، وهى ساغبةٌ ، بَنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْمِ القَرَّاحِ^(٣)
سَأَمَتِاحَ البَحُورِ فَجَبَّيْنِي أَذَاةَ اللُومِ وانتظري امتياحي^(٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإني قد رَأَيْتُ عَلَى حَقًّا زيارتي الخليفةَ وامتداحي
أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وَأَنْدَى العالمين بطونَ راحِ^(٥)

(١) أم حزره : إحدى زوجاته .
(٢) تعلل أبناءها تشغلهم . ساغبة : جائعة .
النفس من الماء : الجرعة . الشيم : البارد .
القراح : الصافي .
(٣) أمتاح : أستق من الميح وهو العطاء .
(٤) أندى : أجود .

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا)
ذو المعارج : الله جل جلاله .
(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .
ولقاح : جمع لقحة وهي الناقة في أول نتاجها .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصورُ فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقومٍ قد سموتَ لهم فدانوا بَدَهمُ في مُلَمِّمةٍ رَدَّاحٍ ^(١)
أَبَحَتْ حِمَى تَهامةَ بعدَ نَجْدٍ وما شَيْءٌ حَمِيَتْ بِمَسْتَبَاحٍ ^(٢)
دَعَوْتَ المُلْحَدِينَ أبا خُبَيْبٍ جِمَاحاً ، هل شَفِيَتْ مِنَ الْجَمَاحِ ^(٣)
فَقَدْ وَجَدُوا الخليفةَ هَبْرَزيّاً أَلْفَ العِيصِ ليس مِنَ النَوَاحِي ^(٤)
فما شَجَرَاتُ عِصْكِ في قُرَيْشٍ بَعَثَاتُ الفروعِ ولا ضَوَاحِي ^(٥)
رَأَى النَّاسُ البَصِيرَةَ فاستقاموا وَبَيَّنَّتِ المِرَاضُ مِنَ الصُّحَاكِ ^(٦)
وأُعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومِحلَباً من فضة . وجرير في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدُّ سهامه إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقررّاً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشَّيْعِ أهلُ باطل وضلال وأهواء وبِدَعٍ ، يقول في عبد الملك :

لولا الخليفةُ والقرآنُ نَقَرُوهُ ما قام للناسِ أَحكامُ ولا جُمُعُ

- (١) دانوا : أطاعوا . الدم : الجيش الكثير .
ملممة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يقصد من ثاروا عليه .
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان في يديه من نجد والحجاز .
(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح : العناد والخلاف .
(٤) هبرزيا : نافذاً في الأمور ماضياً .
ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه في صميم الغز وليس في نواحيه .
(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان .
والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .
(٦) بينت : تبينت .

أَنْتَ الْأَمِينُ أَمِينُ اللَّهِ لَا سَرِفٌ فِيمَا وَلَيْتَ وَلَا هَيَابَةٌ وَرَعٌ^(١)
 أَنْتَ الْمُبَارَكُ يَهْدِي اللَّهُ شِيعَتَهُ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
 فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى يُمْنٍ أَمَرْتُ بِهِ فِينَا مُطَاعٌ وَمَهُمَا قَلْتُ مُسْتَمَعٌ
 يَا آلَ مَرْوَانَ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دِينُهُ الْبِدْعُ

وواضح أنه يُزرى على أصحاب الأهواء الذين يحادون بني أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسمهم أهل بدع وضلالة . ويتوفى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لحاء عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يصرف جريراً عنه ، فقد كان يلمُّ به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عدياً آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إِنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الْإِمَامُ الْمِصْطَفَى بِالنَّصْرِ هُزَّ لَوَاوُهُ وَالْمَغْنَمِ
 ذُو الْعَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً مُلِّكَتَ فَاعِلٌ عَلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمِ

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليها عبد العزيز رأيناه يحطّط في حبله بمثل قوله :

إِذَا قِيلَ أَيْ النَّاسِ خَيْرٌ خَلِيفَةً أَشَارَتْ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَصَابِغِ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفى الوليد ويتولى سليمان ، فيغد عليه مادحاً ، محاولاً أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجَنَهُمُ الْحِجَاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك ينوّه بأن الله اختاره للأمة ناعثاً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضع السبيلُ
أَجْرَتْ من المظالم كلَّ نفسٍ وأَدَبَتْ الذي عَهْدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةً بثبات عهدٍ فوزنُ العدلِ أصبح لا يميل
وتدعوكم الأرامِلُ واليتامى ومن أَمسى وليس به حَوِيلُ (٢)
ويدعوكم المكلفُ بعد جَهدٍ وعانٍ قد أضُرَّ به الكِبُولُ (٣)

ونراه يمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصور فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنت المبارك والمهديُّ سيرته تَعْصِي الهوى وتقوم الليل بالسُّورِ
نال الخلافةَ إذ كانت له قَدَرًا كما أتى ربّه موسى على قَدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجْبَى منها غير الخراج (٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيَّ محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
ولقد نفعت بما منعت تحرّجاً مكسُ العشور على جسور الساحل (٥)

طاقته . والعاني هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناول به بالهجوم على نحو ما صنع الفرزدق في ميمته .
(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .
(٥) موضع المكس حيث طريق المارة في قنطرة أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولي الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها في الكلام على النقائض .
(٢) حويل : حيلة وقوة .
(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق

وسرعان ما توفّي عمر ، فندبه ندباً حارّاً ، يصور فجعية الأمة فيه حتى
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنعَى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمْتُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويشور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،
ويَقْضِي على ثورته مسلمة ، ويصبح به جرير مراراً في قصائد مدح بها يزيد
ابن عبد الملك : بنفس الصورة المتألفة التي صور بها سابقيه من الخلفاء ، من
مثل قوله :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجَبٍ مَثَبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورٍ
وَيَصِفُهُ بِالْعَدْلِ وَأَنَّهُ وَرَثَ الْمَلِكِ عَنْ آبَائِهِ بِعَهْدٍ مِنْهُمْ . ودائماً ينوّه في مدح
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قریش ، بل هي وراثية
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :
إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفْزَعُ إِنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الْعَمَامَا
وَجَبَلُ اللَّهِ يَعْصِمُكُمْ قُوَاهُ فَلَا نَخْشَى لِعُرُوتِهِ انْفِصَامَا^(٢)

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري
مستشفعا للفرزدق كي يُطْلَقَ ، ومدح بعض أشرف قيس وتميم مثل المهاجر بن

(٢) قوى الجبل : طاقاته .

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أيد

الآبدين .

عبد الله الكلابي والجنيد بن عبد الرحمن المرئ وهلال بن أحوز المازني الذي نكل
بآل المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغني به مادحاً صوته
في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون
الشعر حتى برز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي
رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في
كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار
الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب
دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ،
وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في
الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته
كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته
ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صقيّ
جوهرها ، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهر النفس .
واقراً رثاءه لزوجته أم حنزة ، إذ يقول :

لولا الحياء لعادني استعمارٌ ولزرتُ قبرك والحبيبُ يزَارُ
ولَهتْ قلبي إذ علنتي كَبْرَةً وذوو التائم من بَنيك صِغارُ
ولقد أراك كُسيبَ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سَكينةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخَيَّرُوا والصالحون عليك والأبرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ،
وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيياً فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل
دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حنزة هذه وأمامة التي أهداها إليه
الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنه بلال ونوح ، كانت علاقات ودّ ومحبة .
ولم تنشز عليه سوى جارية اشتراها بأخيرة ، وقد عابت عليه عيشه وكبيرة سنه ،
ففارقتها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن أُمسى وأصبح لا أراه
ويطرقنى إذا هجع النيام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيئى لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يضرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهن أضعفُ خلق الله أركاناً
أتبعتهم مُقلّةً إنسانها غرقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنساناً^(١)
وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد
بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن
زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يشغف القلوب ، ومن
بارع قوله فى نساء عشيرة النّوار :

وهنّ كماء المزن يُشفى به الصدى وكانت ملاحاً غيرهن المشارب^(٢)
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على
نحو ما صور ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تشنه أمه يشفى الصداع ريحه وشمه^(٤)
ويذهب الهموم عني ضمه ينفع ريح المسك مستحمة
يخصى الأمور وهو سام همه بحرُ البحور واسع مجمه^(٥)
يفرج الأمر ولا يغمه فنفسه نفسى وسمى سمه^(٦)

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين . سواد حدقتها .

(٣) الحجم : الصدر .

(٤) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

(٥) يغمه : يبهمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في المجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يرش سهامه ويسدّ دها إلى نحو رخصومه ، محمّلاً لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لحرير مادة يبني منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تنبذ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نسباً ثراً من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لحرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه في النُدرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفس هذا الحكم عليهم قديما بشار ، فقال حين سأل سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لحرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت السّنوار (زوجه) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شيء لحرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته : أم حَزْرَة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنه سودة التي يقول فيها :

فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرْتُ كعظم الرّمة البالي

فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . ومما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة
 فى نقد الشعر وتمييز جيله من رديئه ، حتى قالوا إنه كان يَسْطُو على بعض أبيات
 معاصريه ، حين يبهره حسنُها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره
 بمجازاة لفظه وشدة أسرهِ . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ،
 فإذا قرأته أحسست المذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن
 الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرت
 أشعاره صافية ، كأنها الجداول الرقاق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ
 النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فعلا الجوّ لابن الزبير الذي عاذ بمكة ، وقد اتخذ من قُتل الحسين أداة للتشجيع على يزيد وعمّاله ، وثارت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرّة المشهورة . فانتسعت الجروح في الحجاز ، وبدأ للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كُتّلب وغيرها من قبائل الشام الثمينة ، وكأنه لم يتعدّ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقاً أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام الثمينة ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يبدّون الخلافة كما وليها يزيد ، لا بسلطان شرعي ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولاً بين أبناء كبار الصحابة فينبئهم من يتفضّلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذي نكّسب المدينة في وقعة الحرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهبّ كثير من العرب حتى من الخوارج للدّود عن البلد الحرام . وضرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه .
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من
كبار الصحابة المقدّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله
عليه وسلم . وكان قوى الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السّلمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية
بعهد منه ، ولكنه توفى سرياً ، وبدا كأن حكم بنى أمية قد انتهى ، حتى ليقول
ابن عرادة بخراسان (١) :

أبْنَى أُمَيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ (٢)
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌّ رَاعِفٌ مَرثُومٌ (٣)
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ (٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن
الحكم أن ظهر بالشام تسنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقيس الشام وقعة
مرّج راهط المشهورة ، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،
ولتى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينيين إلى
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان
سياسياً أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في
ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويضطرب
الرواة لذلك مثلاً هو أن فضالة بن شريك الأسدي ، وقيل بل ابنه ، وقد عليه (٥)

(١) طبرى ٤/٤٢١ .

(٤) مرنة : مغنية .

(٢) حواريين : قرية من قرى حمص توفى بها

(٥) انظر في هذه الوفاة ترجمة فضالة بن

يزيد .

شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢

(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى

وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة

تقطرت منه الحمر .

٢٢٤/٣ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له : إن ناقتي قد نَقِبَتْ^(١) وَدَبَّرَتْ^(٢) ، فقال : ارفقَها بجلد^(٣) ،
واخْصِفْها بهُلْب^(٤) ، وَسِرَّ السَّرْدَيْنِ^(٥) بها تصحّ ، فقال فضالة : إني أُنِيتُكَ
مُسْتَحْمِلًا ولم آتِكَ مستوصفًا ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن
الزبير : إن^(٦) وراكبها . وانصرف فضالة من عنده ، وهو يقول :

شكوتُ إليه أنْ نَقِبَتْ قَلوصي فردَّ جوابَ مشدودِ الصَّفادِ^(٧)
يَضُنُّ بناقةً ويروم مُلْكًا محالً ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشيدُ ببني أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائرٌ إليهم . ولعل
في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن
الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأنا لم تكن تَعْنِيه هذه النبال .
وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما
معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه ،
ومع ذلك فقد وقف في صفِّه كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو
لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب وإلى على العراق .
ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبية والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل
القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين
جميعاً سَلَكُوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين
ومتهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبلية فحسب ،
بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوى قيس مع ابن الزبير وهوى
القبائل اليمنية وتغلب مع بني أمية ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ،
ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطَيْنِ» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس
ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نَقِبَتْ : من نَقَبَ البعير إذا حَنَى ورَقَّتْ

أن يخرز الحف به ليقيه .

أخفاه .

(٥) البردين : الغداة والعشي .

(٢) دبّرت : أصابها جرح في ظهرها .

(٦) إن هنا بمعنى نعم .

(٣) ارفقها بجلد : يريد أن يجعل لها خفا

(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به

من جلد .

الأسير من قيد ونحوه .

(٤) الهلب : الشعر . الحصف : الخرز . يريد

مساعداً حربية ولسانية . وحين تنصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية^(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي يناصر بني أمية ، يقول^(٢) :

أَفَى اللَّهِ أَمَا بَحْدَلُ وابْنُ بَحْدَلٍ فَيَحْيَى وَأَمَا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كذبتُم وبيتَ الله لا تقتلونهُ ولما يكن يومٌ آخرٌ محجَّلُ^(٣)
ولما يكن للمشرقية فوقكم شعاعٌ كقرنِ الشمس حين ترجَلُ^(٤)
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترئون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحاميا يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطال الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائض . وكان مصعب بن الزبير من فتیان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولي العراق لأخيه انهلتْ غُبُوته على الشعراء ، فمدحه منهم كثيرون مثل أعشَى همدان ودكَيْنِ الفُصَيْمِي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهجننا ، إنما يهجننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة ، هاجباً ابني أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثَمَّ ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

ابن قيس الرقيات^(٥)

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

١/ ٥٢٣ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب
٢/ ٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغني ص
٢١١ وحديث الأرباء لطف حسين (طبعة الحلبي)
١/ ٣١٦ وكتابتنا الشعر والغناء في المدينة ومكة
ولعصر بني أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ .
وله ديوان نشره رودكناكس في فينا سنة ١٩٠٢
وحققه تحقيقاً علمياً وأعاد نشره في بيروت محمد
يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينوين
قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة .

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف
للبلادري في مواضع متفرقة والأغاني (سأسي)
١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .
(٢) طبرى ٤/ ١٩٤ .
(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبق
ولا يذر
(٤) المشرقية : السيوف . ترجل : ترتفع .
(٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني (طبع
دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء

سبب نعته بالرقبيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أهيب بن ضباب بن حُجَيْر بن عُبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤي . وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلاً ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خائروبيدّيح وفيند ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها ^(١) ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا وليّ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ومن ثمّ تعرّض له ابن قيس بصف شدته وقسوته ^(٢) ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويترنّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله ، فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً ، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حاراً ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقسر عن مروية ^(٣)

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ . (٢) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار .

(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٧٢ وما بعدها . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عبد وإخوتهم حلّ الهلاك على أقاربيهِ^(١)
 ونُعَى أسامةُ لي وإخوته فظلت مُسْتَكًّا مَسَامِعِهِ^(٢)
 تبكى لهم أساء مُغَوْلَةٌ وتقول لبي : وارزيتيهِ
 والله أبرحُ في مقدمة أهدي الجيوش ، على شَكَّتِيهِ^(٣)
 حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نِسوتهم بنسوتيهِ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس
 وتغلب على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن
 الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى
 فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان
 طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بني أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد
 أن يقود الجيوش ضدهم ، فينأر لابن أخيه ، ويسبي نساءهم . وجعله ذلك
 يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً
 عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على
 كُتَل وأخواتها من قبائل الشام الخينية التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرّة المشنومة .
 وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فؤاده من أهل
 الشام من جهة أخرى ، ومن ثمّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ،
 وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم
 في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهزمية التي يفتتحها
 بقوله :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ فَكُدِّيْ فَالرُّكْنُ فَاَلْبَطْحَاءُ^(٤)
 ومضى يطيل في ذكر الأماكن التي هجرها الأمويون إلى دمشق وربع

السلح التام .

(١) بنو عبد : عشيرته نسبها إلى جده السابح .

(٤) كدَاء وكُدِّي : جبلان بمكة . والركن .

(٢) استكت المسامع : صمت وضامت ، هو

ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل

مثل يضرب للنبأ الشديد يعرك سامعه .

أشرف مكة حول البيت في الجاهلية .

(٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة :

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بلداناً وشيعاً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرح بذلك فيقول :

حَبَّذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُذْكَ لِكِ قَرِيْشٍ وَتَشَمَّتَ الْأَعْدَاءُ
وَيَمْضِي فِيرِدُ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَرُونَ أَنْ تُنْزَعَ الْخِلَافَةُ مِنْ
قَرِيْشٍ وَتُرَدَّ إِلَى الْعَرَبِ ، بَلْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً ، يَقُولُ :

أَيُّهَا الْمُسْتَهْيُ فَنَاءُ قَرِيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ^(١)
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحْيٌ بِقَاءُ
فقريش هي عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا
يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قَدْ عَمِرْنَا فَمَتَّ بِدَائِكَ غِيظاً لَا تَمِيتُنَّ غَيْرَكَ الْأَذْوَاءُ^(٢)

ويأخذ في الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخطباءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفر الطيار والزبير بن العوام حوارى النبي وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفي ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ هِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها في الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يجمع إليه الناس من كل فج عميق ، ويأسى لحرق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرّة ، ويؤشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

خليفة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

(١) عمرها : يريد بقاءها .

(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلاً ، يشير إلى

وبنى أمة الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين في كربلاء يقول :

كَيْفَ نَوُمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاءُ^(١)
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّةَ مُزَوَّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ
إِنَّ قَتَلِي بِالطُّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَنْ قُتِلْتُمْ شَفَاءُ^(٢)

وهذه هي الأنغام السياسية التي كان يوقعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشي بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْجِ رَاهِطِ التي هُزِمَ فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات الميسرة . ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لَجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه في هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفي الوقت نفسه كان يشبب بزوجتي مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبئه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله في عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهي غاضبة عليه ليرضاها^(٣) :

جَنِيَّةٌ بَرَزْتُ لَتَقْتُلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمِسْكِ
عَجَبًا لِمِثْلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمَنْبَرُ الْمُلْكِ^(٤)
تَرْمِي لَتَقْتُلَنَا بِأَسْهَمِهَا وَنَزْنُهَا بِالْحَلَمِ وَالنُّسْكِ^(٥)

القطعة بأبيات في أم البنين لانتك في أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة وكأنه يتمناها لمصعب .

(٥) نزنها : ننسبها إلى .

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهم من فزع شديد .

(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

١٧٦/١١ وقارن بالديوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرن هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذي كان يسوقه في مقدمة مدائحها لمصعب ، فإلك ستراه يعرضهما في صورة تؤذيها كقولها في عاتكة :

بَدَتْ لِي فِي أَتْرَابِهَا فَقَتَلَنِي كذلك يقتلن الرجال كذلك
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكما^(١)

ويتخيل أم البنين جاءت في الحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهي تمنع معه في اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتَنَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ تَ هَذَا حِينَ أَغْصَبُهَا^(٢)
فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا وَمَالٍ عَلَى أَغْصَبُهَا^(٣)
شَرِبْتُ بِرَبِيقِهَا حَتَّى نَهَلْتُ وَبِتُ أَشْرِبُهَا^(٤)
وَبِتُ ضَجِيعُهَا جَذَلًا نَ تَعَجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا^(٥)
وَأَيَقُظُنَا مَنَادٍ فِي صَلَاةِ الصَّبْحِ يَرْقُبُهَا^(٦)

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذي يمثل الحكم القرشي الصحيح . وما فصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه في ديار الجاثليق ، وقد انفض عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقتل مصعب ويفر ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا نفاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء
الحب الذي سرى في نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقبها إلى أي صارت إلى .
(٣) أغصبها : فوج .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقىها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أي يرقب الصلاة .

أنها زوجة^(١) على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كي يشفع له عند أخيه ، ولبناه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذي شَفَعَ له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده باثيته التي يقول فيها :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمِيَةٍ إِلَّا لَأَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلَحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبَوَالْ هَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ^(٢)
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَاكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
ويظهر أن عبد الملك لم يَطِيبَ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويُعْطِيهِ الْجَزِيلَ . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُعْثَقُ عليه من بَرِّهِ وَنَوَالِهِ ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْفِ ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيهِ :

لَتَهْنَهُ مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَمَا بِالشَّامِ مِنْ بَرْزِهِ وَمِنْ ذَهَبِهِ^(٣)
يَخْلُفُكَ الْبَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا يَخْلُفُ عَوْدُ النَّضَارِ فِي شُعْبِهِ^(٤)
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرَّسُولِ وَمَا أُعْطِيَ مِنْ عُجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة أوروبا) ص ١٢٤ .
(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .
(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوَعَّده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقرَّ له قرار وضاعت الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذمُّ فيها من يغتابونه عند عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّرَ الظُّبْيُ والغُرَابُ بسُعْدَى مرحباً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها بصور ما يلزمه من نَحْسٍ رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد على عبد الملك من حين إلى حين ففي ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه يستهلُّ بعضها بغزله بأُم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف جمالها ووقارها متلطفاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن كان لحق عصره فإنه لم يعيش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به ويجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بالذى أنتَ أهله عليك كما يُثْنِي على الروض جارُها
إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنتَ متارُها

ومن مدحهم ونوّه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو يثني على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مرثية فيه بديعة :

نَضَّرَ اللهَ أعْظَمًا دفنوها بسجستانِ طلحةَ الطلحاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد حين هُزِمَ في حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجائيين في عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ، ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وخُلصَ للغزل على شاكلة عمر بن أبى ربيعة لما قصر عنه في هذا الفن ، وقد رأيتاه في مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى في مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوايع الغناء التي عاصرتة ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيَّ بِعَيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْبِنَا الْمُنَى ثُمَّ امْطُلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شَتَّ إِنَّا نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلَتْ - الْوَاعِدِينَا
فَلِإِذَا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِذَا نَعِيشُ بِمَا نَوْمِلُ مِنْكَ حِينَا

وقوله :

رُقِيَّةٌ تَيَّمَّتْ قَلْبِي فَوَاكَبْدِي مِنَ الْحَبِّ
وَقَالُوا اِدَاوُهُ طَبُّ أَلَا بَلْ حُبُّهَا طِبِّي

وقوله :

حَبٌّ ذَاكَ الدَّلُّ وَالْغُنْجُ وَالتِّي فِي عَيْنِهَا دَعَجٌ (١)
وَالْتِي إِنْ حَدَّثَتْ كَذِبَتْ وَالتِّي فِي وَعْدِهَا خَلَجٌ (٢)
خَبَّرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباغة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الفنج : حسن الدل
(٢) الخلاج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .
والمزح . الدعج : شدة سواد العين .

شعراء الخوارج

رأينا في غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وُصْفَرية ونَجْدات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثمَّ كان شعرهم في جملة حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبية القديمة ، عصبية القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالبين في فضاهم، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربَّ لترضى) ^(١) وكأنا وهبوا أنفسهم للموت . ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوتون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأُشْد ^(٢) :

ما رغبة النفس في الحياة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان براها بالأمس خالقها ^(٣)
يوشك من فرَّ من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما والموت كأس والمرء ذائقها ^(٤)

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجي ، الموت قعصا بالرمح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حُبَّاء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسربالي دلاص حصينة ومقرها والسيف فوق الحيازم ^(٥)
أريد ثواب الله يوما بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم ^(٦)
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطري بن الفجاءة ^(٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى حماميا ^(٨)
أنارُع عن دار الخلود ولا أرى بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرَّب الموت القراع لقد أنى لموق أن يدنو لطول قراعا ^(٩)

(٧) انظر في ترجمة قطري وأشعاره وفيات

الأعيان لابن خلكان والممل والنحل ص ٩٠

وأما المرتضى ٦٣٧/١ وفهارس الكامل للمبرد

والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الحمام :

الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف في الحرب .

أنى : آن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) براها : خلقها .

(٤) عبطة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق

يتقنع به المتسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبري بن سالم :

رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فمه .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويتزح عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملّ دنياه . ونصوّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول ^(١) :

أحمل رأساً قد سُمْتُ حَمَلَةً وقد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
ألا فَتَنِي بحمل عني ثِقَلَهُ

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى . ومن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه ^(٢) :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهادكا
أحبُّ بقاءً أو أرجى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فياربِّ سلِّمْ نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألاقى أولثكا
فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهويدعوربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكان الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يكون قتلاهم ولا يرثوهم بالصورة التي نجلها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلبها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا بمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قُتل ابنها في يوم دولا ب ^(٣) :

اللهُ أَيْدِ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وكان عمران يدعو الله في السَّحَرِ
يدعوه سِرّاً وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدي ملْحَادَةٍ غُدْرٍ ^(٤)
ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء، إذ يصوّرون استشهاد قتلاهم زُلْفَى إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وتريد
أم حكيم بدهن شعرها ما تدنه به من الطيب .
(٢) المبرد ص ٥٨٦ .
(٣) أغاني ١٤٥/٦ .
(٤) ملحادة : من الإلحاد والثناء للمبالغة .
غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما (١) :

يَا رَبُّ أَسْلِكْنِي سَبِيلَهُمْ ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالْتَّقَى أَزْرَى
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفُوسَهُمْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَّا السُّمْرِ (٢)
مَنَاهَبِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهِينَ مِنْ لَأَقُوا عَنِ التُّكْرِ

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ قَدْ فُجِعَتْ بِهِ قَوَامٍ لَيْلَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ
مَتَاوَهُ يَتْلُو قَوَارِعَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَفْزَعِ الصَّدْرِ

ويمضي فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أشرعت الرماح وسَلَّت السيوف ورعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبيكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروءة ، وإنما يبيكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم في حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضي قدماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورهم وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القعدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن نحس دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلحة إلى حين ، وبذلك نفسركثرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغاني (سأسى) ١١١/٢٠ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يقلب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد ^(١) من أن أبا خالد القناني استحبَّ القعود ، فلامه قَطْرِي بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالد يا أنفِرْ فلستَ بخالد وما جعل الرَّحْمَنُ عُذْرًا لقاعد ^(٢)
أترزم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد
فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلى حُبِّا بنائى لمن من الضعاف
أحاذر أن يرينَ الفقر بعدى وأن يشرينَ رنقاً بعد صافى ^(٣)

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قوين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن الثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقالاتهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتناذب فرقاً وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هى أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم التى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجى أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ . منادى مثل يا أخى .

(٢) يا أنفِرْ يا للتنبيه أو في تقدير حذف (٣) الرنق : الكدر .

في الأغاني فسرى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة في ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطري بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبْشِمِيّ . وقال خالد بن خِدَاش : بل قائلها عمرو القنّاء ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم^(١) . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

عمران^(٢) بن حِطَّان

بَصْرِيٌّ سَدُوسِيٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . ونلقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه^(٣) . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أُعْطيت مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول^(٤) :

يا ضربةً من تَقَى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
وزواه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتنشاق الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (ساسي)

١٦/١٤٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما

بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢

وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالي

المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١

والخزانة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضاً وحُباً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى^(١)
ولو أنى علمت بأن حَتْفِي كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك هَمُّه الدنيا فإني لها والله ربُّ البيت قالى^(٢)
فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج
الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبي بلال ، وقد ظلت ذكره عالقاً بنفسه طويلاً ،
حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
وكان الناس جميعاً ما توفيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ،
ومن ثمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرى ودعا إلى القعود ، حتى عدَّ رئيس قَعَدَتِهِمْ . ولم
تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد^(٣) ، إنما قعد به — فى أغلب الظن —
حبه لزوجته جمره ، فقد كان يُشْغَف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج
ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن
الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن
كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى
يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنُه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى
الحروب ويُغْشَرُون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ،
ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ،
فهلَعَ الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدُّ علىَّ فى الحروب نعمةً رَبِّدَاءُ تنفر من صَفِيرِ الصافرِ^(٤)
هلا برزتَ إلى غَزَالَةِ فى الضُّحَى بل كان قلبك فى جناحَي طائر^(٥)

(١) العوالى : الرياح .

(٢) قالى : كاره .

(٣) نسبت أبيات أبي خالد إلى عمران فى

ترجمته بالأغاني ، والأرجح أنها لأبي خالد كما

جاء عند المبرد .

(٤) رَبِّدَاءُ : من الريدة وهو لون إلى الغيرة .

(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع

الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبه سنة ٧٧ للهجرة ففر منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالف في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلقاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلاً ما تروُّعنى فيه روائع من لانسٍ ومن جانٍ^(١)
حتى أردتَ بى العظمى فأدركنى ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعياً ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرٌ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيته عند روح ، حيثُ قال له زفر يا هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بدیعة يستهلها بقوله :

إن التى أصبحتَ يَغِيى بها زُفَرٌ أعيتُ عياءً على رُوح بن زنباعٍ
وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قوماً من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروىها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التى يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصوّر تهاك الناس على الدنيا ، وهي ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أَرَانَا لَا نَمْلُ الْعَيْشَ فِيهَا وَأُولِعْنَا بِحَرْصٍ وَانْتِظَارٍ
وَلَا نَبْقَى ، وَلَا نَبْقَى عَلَيْهَا وَلَا فِي الْأَمْرِ نَأْخُذُ بِالْخِيَارِ
كَرْكَبٍ نَازِلِينَ عَلَى طَرِيقٍ حَثِيثٍ رَاحٍ مِنْهُمْ وَسَارٍ^(١)

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعُراهم فأف لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوي . ولا يُخفى أنه يسير على كره منه في نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوي منها على شيء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لَا يَسْأَمُونَهَا عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوعٌ
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنِهَا سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ^(٢)
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتي على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لَا يُعْجِزُ الْمَوْتَ شَيْءٌ دُونَ خَالِقِهِ وَالْمَوْتُ فَإِنْ إِذَا مَا نَالَهُ الْأَجَلُ
وَكُلُّ كَرْبٍ أَمَامَ الْمَوْتِ مَتَضِعٌ لِلْمَوْتِ ، وَالْمَوْتُ فِيمَا بَعْدَهُ جَلَلٌ^(٣)
فالموت سيموت في النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التي تلقاها دائماً في شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائح ، فتعرض له يقول :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بَأْيَدِي الْعِبَادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٢) جلال : عظيم .

(٣) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطَّرمَاح^(١)

شاعر طائى نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل في بني تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمٌ وفيه وقار ، فكان الطرمّاح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفَرِيَّة ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يجرّمونه ولا يحيزونه . ولم يُمنّص قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفَرِيٌّ مسلم . ويظهر أنه كان يمتضى في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويواديهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميّث ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْثِ والطَّرمَاح ، كان الكميّث عدنانياً عصبياً ، وكان الطرمّاح خارجياً من الصُّفَرِيَّة ، وكان الكميّث يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرمّاح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرْمٌ ولا جَفْوَةٌ ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الحصال إليه » . وأكبر الظن أن الذي وثق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هي تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويروى عن الطرمّاح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرّى بفارس حيث عُني بتأديب الناشئة

٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧
والخزانة ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كرنكو في
لندن سنة ١٩٢٧ . والطرمّاح : الطويل القامة .

(١) انظر في ترجمة الطرمّاح أغاني (دار
الكتب) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٥٦٦/٢
والعيني ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح
للمرزباني ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ٤٦/١ ،

فيها ، وَيُروى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرئى فلم أر أحداً أخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّ عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحّاه مخلد ، ودعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى الذى ولى العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومراً بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت فى البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطوَى فيها من عصبية وهو خارجى ، والخوارج لا يعتدون بالعصبية القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجى يأتى على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاء الفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُنقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله فى تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدْ
أو أنزل الله وخياً أن يعذبها إن لم تعدْ لقتال الأَزْدِ لم تعدْ
لا تأمننْ تميمياً على جسدٍ قد مات ما لم تُزَايل أعظمُ الجسدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه فى الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدّاً بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُباً لنفسي أني بغيض إلى كل امرئ غير طائلي^(١)
 وأني شقي باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمايل
 والطرماح بذلك كله يتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل
 ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من
 حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله
 من أجل ذلك أكثر التنقل في العراق وفي فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان
 يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليرتجى الخروج ، يقول :

وإني لمقتاد جوادى وقاذف به وبنفسي العام إحدى المقاذف
 لا أكسب مالا أو أوول إلى غنى من الله يكفيني عِدَاتِ الخلائف^(٢)
 فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف^(٣)
 ولكن أحن يومى سعيداً بعُصبة يصابون في فج من الأرض خائف
 فوارس من شيان ألف بينهم تُقى الله نزالون عند التزاحف
 إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما في المصاحف

فهو يسأل ربه أن يموت في ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق في
 تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية في أمنيته ، إذ نراه في
 البيت الثانى يفكر في الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح
 غنياً ثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّرارة إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا^(٤)
 يرجعون الحنين آونة وإن علا ساعة بهم شهقوا
 خوفاً تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق

(٣) الشرجع : النعش .

(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

(١) غير طائلي : خسيس .

(٢) عِدَات : جمع عدة ويريد بها الصلة .

الخلائف : جمع خليفة .

كيف أرجى الحياة بعدهمُ وقد مضى مؤنسي فأنطلقوا
قومٌ شحاحٌ على اعتقادهمُ بالقوز مما يُخاف قد وثقوا

وعلى قَبَسٍ من زهد الخوارج في الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء في القرآن
الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدخره دون أن ينفقه على المحتاجين
والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت
يده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فن عمل
صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلٌ حىٌ مستكملٌ عِدَّةُ الْعُمِّ رِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهُ^(١)
عجباً ما عجبتُ للجامع الما ل يباهى به ويرتَفِدُهُ^(٢)
ويُضِيعُ الذى يصيرُهُ الل ه إليه فليس يعتقده
يوم لا ينفع المخوّلُ ذا الثر وة خِلَاتُهُ ولا وَلَدُهُ^(٣)
يوم يُوثى به وخصماه وسط ال جنّ والإنس رِجلُهُ ويده
خاشع الصّوت ليس ينفعه ن مَّ أمانيه ولا لَدَدُهُ

وكل من يقرأ شعر الطرواح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ،
فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن
حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيَّتها ،
وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد
به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين
حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمى محض . ويصور
اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوى المشهور
سُئل عن ثمانى عشرة كلمة أبدت في أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا
في غير هذا الموضع أن حِسَّه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال
الألفاظ التبطية في كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

(٣) الخول : الثرى .

(١) مود : ميت .

(٢) يرتفده : يكتسبه .

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقية وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس يتنقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا يرجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالبة غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يرعون فيهم إلاً ولا ذمة ، وقد تحولوا يبيكونهم ويندبونهم بدموع لا تترقأ ولا تجف . وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم علي زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قيس بن الحسين (١) :

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (سأسى) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ (طبعة الحلبي) ص ١٢١ وانظر أيضاً في . والاستيعاب ص ١٤٦ .
مراثي الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغاني

مررتُ على أبيات آلِ محمدٍ فلم أرها كمهدما يوم حُلَّتْ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّةً وقد عظمتُ تلك الرزايا وجَلَّتْ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضةً لفقدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتْ
وقد أعولتُ تبكي السماء لفقدِهِ وأنجُمُها ناحتُ عليه وصَلَّتْ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير من يصورها عوف^(١) بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لَيْبَكِ حُسَيْنَا كلما ذرَّ شارقٌ وعند غسوق الليل من كان باكياً
وباليتنى إذ كان كنتُ شهيدته فضاربته الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملتُ سِنِي فيهمُ وسِنَانِيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبید الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة من أصحابه حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو ينشد^(٢) :

ويا ندمي أن لا أكون نصرته ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ نادمه
وإني لأنّي لم أكن من حُماته لدو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقتلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة معولين منذرين لبني أمية ومهددين من مثل قول المفضل المطلبي^(٣) :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء (٢) طبري ٣٦٠/٤ .
(٣) مقاتل الطالبين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرْقَى وَجُودِي بدمعك ليس ذا حينَ الجمود^(١)
وكيف تضنُّ بالعبرات عيني وتطمع بعد زيدٍ في الهجود^(٢)
وكيف لها الرقاد ولم ترائي جياذ الخيل تغدُو بالأسود
بأيديهم صفائحُ مرهفاتُ صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هود
بها نَسَقُ النفوس إذا التقينا ونقتل كلَّ جبارٍ عنيدٍ
ونُحْكَم في بني الحَكَم العوالى ونجعلهم بها مثل الحَصِيدِ^(٣)

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوَى في نفسه حزناً عميقاً على أئمة
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلوه ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف
بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . ولأنهم ليتعقبونهم ولولاهم أحياءهم
ويعدُّون أنفاسهم عدداً . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية
التقية ، فمن حق الشيعي أن يخفى عقيدته ويكتتمها ، حتى لا يعرض نفسه للخطر
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سنرى عند كثير الكميته
عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكتنان لهم العدو والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوه كان
ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهى أحياناً إلى دعوة
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميته حين
ولى خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مرو
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها^(٤) :

ألا أبلغ جماعة أهل مرو على ما كان من نأى وبُعْدِ
رسالة ناصحٍ يَهْدِي سلاماً ويأمر في الذي ركبوا بجِدِّ
فلا تهنوا ولا تَرْضُوا بخَسْفٍ ولا يغرركمُ أسدٌ بعَهْدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُوداً على أهل الضلالة والتعدى

(١) ترقى : من رقا الدمع إذا جف وسكن .

جمود الدين : بخلها بالدمع .

(٢) الهجود : النوم .

(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .

العوالى : الرياح . الحصيد : الزرع المحصود .

(٤) طبرى ٥/٤٣٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغيط على بنى أمية فقد كانت تمتلئ بالحُب لآل البيت حباً يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبي الأسود الدؤلي وقد عابه قوم بتشيعه: (١)

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا وعباسًا وحمزةً والوصيًا (٢)
أحبُّهمُ لحبِّ الله حتى أجيء إذا بُعثتُ على هويًا (٣)
هوى أُعطيته منذ استدارت رَحَى الإسلام لم يُعدَل سويًا (٤)
بنو عمِ النبيِّ وأقربوه أحبُّ الناس كلُّهم إلينا
فلإن يك حبُّهم رُشدًا أصبهُ ولستُ بمخطئٍ إن كان غيًّا

ويقول عبد الله بن كثير السَّهَمي في نفس المعنى (٥):

إن امرؤاً أمست معايبه حبَّ النبيِّ لغير ذى ذنبٍ
وبنى أبي حسنٍ ووالدهم من طاب في الأرحام والصلبِ
أُعدُّ ذنباً أن أحبُّهم بل حبُّهم كفارة الذنبِ

فهم يحبون آل البيت لخدمهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبي الأسود الدؤلي في حديثنا عن شعراء الزهد ، وبما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له (٦) :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني وأثوابُ كُتَّانٍ أزورُ بها قبري (٧)
وحُبِّي ذوى قُرْبى النبيِّ محمدٍ فما سألنا إلا المودةَ من أجرٍ (٨)

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سألنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو

يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه

أجرًا إلا المودة في القربى) .

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالوصي علي بن أبي طالب ، إذ كان

الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبي أوصى له بالخلافة .

(٣) على هويًا : على هواي ،

(٤) لم يعدل سويًا : لا مثيل له .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهي إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تَطَوَّى في داخلها رغبة شديدة في أن تُسَفِّك دماؤهم كما سَفِّك دماء شهدائهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، ولأنهم ليدلّعون في قلوبهم ناراً لا تَطْفَأُ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثيرٍ شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيْرٌ (١)

هو كثيرٌ بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من خِزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر عمقاً وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لحميل بن مَعْمَر العنري ، وهو في جمهور غزله يترنم بعزّة بنت حُمَيْل التَّضْمِيرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّي كثير عزّة ، وأروع أشعاره فيها تأثيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزّة من أعراضنا ما استحلّت
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصباية .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزاعة ٣٧٦/٢ و امرأة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعماء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني (دار الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال يتنقل في علي وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهديُّ خبرناه كعبٌ أخو الأخبار في الحقب الأولى^(١)

ونراه يمتلي حقدًا على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه وإليه منها . وكان ابن الزبير كما مرّ بنا قد عاذا بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيرٌ يقول :

تخبر من لا قيت أنك عائدٌ بل العائدُ المظلومُ في سجن عارم
وصى النبي المصطفى وابن عمه وفكأك أغلال ونفّاع غارم
أبي فهو لا يشري هدى بضلالة ولا يتقى في الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم^(٢)
بحيث الحمام آمن الرّوع ساكنٌ وحيث العدو كالصديق المُسلم
وما فرح الدنيا بباقي لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازم

وواضح أنه يسجل على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العُناة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويرد ابن الزبير لابن الحنفية حرّيته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثيرٌ في رِكابه ، فيكرمه وينزله منزلاً علياً هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأخبار ، كان من (٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .
يقصون في المهد الأول .

وأخذ بثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وازال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ أراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همّة حصان عليها عقدُ درّ يزينا^(١)
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكتُ فبكاً مما شجها قطينها^(٢)

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليهما وظن بعض المعاصرين في مديحه لبني أمية ضرباً من النفاق^(٣) ، وهو لم يكن في مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك ولواءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقيّة لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يميزون التقيّة خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه بصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلّب عيني حيةً بمحارةٍ إذا أمكنته شدةٌ لا يُقيّلها^(٤)

وزراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة علي ، لأنها الخلافة الصحيحة في رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

و كنت المَعْلَى إذ أُجِلّت قِداحُهم و جال المنيعُ وسطها يتقلقلُ

والمعلّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيع فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موه بذلك في الظاهر ، وعنى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : العنيفة . (٤) المحارة هنا : جعر الحية . الشدة :

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء . الهجمة على العدو . بقليلها : يفسخها . أراد أنه

(٣) انظر حديث الأربعاء لطلح حنين (طبعة يبرم عزيمته ولا يتردد .

الخلي) ٣٩٣/١ .

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن ثمَّ يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدرح السابع بين القدرح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك فى مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ل لله كلهم تابعوا
شهداء من بعد صديقهم وكان ابن حرب لهم رابعاً^(١)
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته فى مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له فى مديحه لبني أمية ، وهو لإخلاص مرجعه فى رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتناً من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقيماً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمَ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي
وَقَدْ لَبَسْتَ لُبْسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا
وَتَوَمَّضَ أَحْيَانًا بَعِينَ مَرِيضَةٍ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمِزًا كَأَنَّمَا
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُونِقًا
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي
بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّعِلْ إِشَارَةَ مُجْرِمٍ
أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
تَرَاوَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمَغْصَمٍ^(٢)
وَتَبَسَّيْتُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ^(٣)
سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمٍ^(٤)
وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بَرَأً مَصْمُومٍ
أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مُظْلَمٍ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو لإخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدي أو وصي ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهداء : عمر وعثمان . الصديق : أبو

(٢) الجمان : اللؤلؤ .

(٣) المدوف : المخلوط . السام : جمع سم

بكر . ابن حرب : معاوية .

(٤) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .

مماهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول في ابن الحنفية حين لبيّ نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريشٍ ولاية الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيبسطُ سببطُ إيمانٍ وبرٍ وسيبسطُ غيبتُهُ كَرَبْلَاءُ
وسيبسطُ لا تراه العينُ حتى يقود الخيلَ يقدّمها اللّواءُ
تغيّب لا يُرى عنهم زمانا برضوى عنده عسلٌ وماءُ
فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون في هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قَتْلُ الحسين في كَرَبْلَاءَ غيبةً ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْطَعُهم العسل والماء ، وسيعود في جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِثْتُ إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا^(١)
ومن عمرٍ بَرِثْتُ ومن عتيقٍ غداة دُعي أمير المؤمنين^(٢)
وواضح أنه يجعل لعل وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم في رأيه يُعدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو في تشيعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت (٣)

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدي ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكن

- (١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه .
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
(٣) انظر في ترجمة الكيت وأخباره أغاني (سأى) ١٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٥٦٢/٤ .
والموضح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ٦٩/١ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ (انظر الفهرين) وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ٦٦/١ ، ٩٩ ، ٨٠/٢ . ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٣٨ ومعاهد التنضيص وكتابتنا التطور والتجديد في الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه في بني هاشم مراراً باسم الهاشميات .

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . ونراه يشد الشعر ، وتعتقد مودة بينه وبين الطير مناج على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففي أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك : ويقال إنه لقي على بابهِ أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه في مطالع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففي أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفي سنة تسع وتسعين . ونمضي معه إلى ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فنجد أنه قد أصبح شيعياً خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع . ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبّه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرَبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا كعباً منى وذر الشيب يلعبُ
ولم تلهنّي دارٌ ولا رسم منزلٍ ولم يتطرّبنّي بنانٌ مُخَضَّبُ
ولكنّ إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يُطلبُ
بني هاشمٍ رهط النبيّ فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بني هاشم : وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذكر له : إنه وجد أجراً وجيصةً فبني ، أي أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . ونراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بني أمية واليهيم خالد القسري . إذ كان ما بني يؤلّب عليه وعلمهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتى لراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مرو أن يشوروا في وجه أسد القسري حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لاتصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحرُّ رأس ، فدخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها ونهياً بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبُستَه على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بشياهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بنى أمية مدائح نظمها حيثئذ ، من مثل قوله :

الآن صرْتُ إلى أُمِّيَّة والأُمُور لها مصائرُ
أَهْلِ التجاوب في المحافل والمقاول بالمخاصر^(١)
أنتم معادنٌ للخلافه كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحْمَلُ على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسَحُ لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمين هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمني هو حَكِيم بن عِيَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاء^(٢) مرّاً ، فرأى الكميّة أن يصرفه عن ذلك بفتش معركة معه في اليمينية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يُمَكِّر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهر عليه فعلاً لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصبية المضر وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهبته^(٣) : (ألا حَيِّيتُ عَنَّا يَا مَدِينَا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجَّلها ووصمه بها وصماً .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه .
والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها في الخطابة
(٢) انظر في ذلك ترجمته في الأغاني والإصابة
(٣) في خزانة الأدب ١/٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع الساسي) ١٥/١١٢
والمسعودي (طبعة دار الرجا بمصر) ٣/١٦٢ .

وحق الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشميين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد بهج بشعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشَفِّعُ به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يُعَدُّ صَدَى قَوِيّاً لما شاع فى عصره من الجدل بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثَّل هذا الجدل تمثيلاً باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدل ، فقد كان إمامه زيد يتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكمييت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقَّن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية . وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياته التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سنةً من سبته ، وهو يمضى ، فيسوق الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بَخَاتِمِكُمْ غَضَباً تَجُوزُ أُمُورَهُمْ	فَلَمْ أَرَ غَضَباً مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ
وَجَدْنَا لَكُمْ فِى آلِ حَامِيمٍ آيَةً	تَأَوَّلَهَا مِنَّا رِيقٌ وَمُغْرِبٌ
وَفِى غَيْرِهَا آيَا وَآيَا تَتَابَعَتْ	لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لَذَى الشَّكِّ مُنْصَبٌ
وَقَالُوا وَرَثَتُهَا أَبَانَا وَأَمْنَا	وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكُ أُمُّ وَلَا أَبُ
وَلَكِنْ مُوَارِثُ ابْنِ آمَنَةَ الَّذِى	بِهِ دَانَ شَرْقٌ لَكُمْ وَمَغْرِبٌ
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ	لَقَدْ شَرِكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ ^(١)

وَعَكَ وَلَخُمُ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ وَكُنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ
وما كانتِ الأنصارُ فيها أَذْلَةً ولا غَيْباً عنها إِذِ النَّاسُ غَيْبٌ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيِّ سِوَاهُمْ فَإِنْ ذُو الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بأى القرآن
الحكيم فى سُوْر « حَامِيْم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقربانهم من الرسول ،
مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : (وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ومثل : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عليه أَجْراً إِلَّا الْمُدَّةَ فى الْقُرْبَى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا
يُبدلون للرسول كما يبدل آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً
وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية
تارة ويحكم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلاً . محاولاً الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ
فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت - فى أصلها - من
أكثر العقائد الشيعية اعتدالاً وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان
زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا ببداء ولا برجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ،
وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية
الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم
غدِير خُمٌ . وفى ذلك يقول الكميت :

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُمٌ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أَطِيعَا^(١)
وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك
صحَّ خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع
الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
ومعروف أن زيدا كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتم
أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً^(٢) ، ويُردَّد الكميت فى هاشمياته هذه
الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدِير خُم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول . (٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .
وخطب فيه .

الحُماة الكُفاة في الحرب إن لُ
والغيوثُ الذين إن أمحلَ الذَّا
غالبين هاشميين في العِلْ
وهمُ الآخذون من ثقة الأُمِّ

فَ ضِراما وقودها بضرام
س فمأوى حواضن الأيتام
م رَبَّوْا من عطية العَلَامِ^(١)
رِ بتقواهم عُرَى لا انفصام^(٢)

ويضيف الكميّ إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا
الناس لم يظلموهم فقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني
أمية وظلمهم للناس . وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم
أغنام ، مبتدعين دائماً بدعاً لم يحيى بها الإسلام ، يقول :

لهم كل عام بدعة يُحدثونها أزَلُّوا بها أتباعهم ثم أوحلوا
ودائماً يجارل ربّه أن يكشف غُمتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ،
وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب ، وإنه ليسأل الله أن يُحلَّ
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجَاع الله من أشبعتموه وأشبع من يجوركمُ أجيعا
بمرضى السياسة هاشميٌّ يكون حياً لأُمته ربيعاً^(٣)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق
المذهب الذي ذهب إليه الكميّ في مديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السراج المنير أحمد لا تعدلني رغبة ولا رهْبُ
عنه إلى غيره ولو رفع ال ناس إلى العيون وارتقبوا
وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنفني القائلون أو ثلبوا

الوثق لا انفصام لها .

(٣) الحيا : المطر .

(١) ربوا : نموا من التربية .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

ففي رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعتفونه^(١) . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته^(٢) . وقد مضى الكميّ يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، ففقد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبةٍ تظلُّ لها الغُربان حوليَ تَحْجِلُ
وخرج زيد وقتل : فجزع الكميّ ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمّساً الناس أن ينفضوا عنه وعنهم . وضيق عليه يوسف الخناق ، وظلَّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلَّ ضغنه دَسَّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء . وسلّط عليهم الأمويون ولايةً يعتفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويُحسُّ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

(٢) أمال المرتضى ٨٠/٢ .

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٩ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشرف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتبهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكرة عامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمدأ .

وفكر الحجاج في قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهده تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» ، لتنام أهبته وعُدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى — خشية على جيشه — أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكرة . ولم يكذ يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمة بالخور والضعف ، وهدّده إن لم يمض في القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهليهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرّضنا للخطر ، حتى نسوق له وتخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنعهم . وانهجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بخاميات الأمصار ، ولما صار في فارس خلّع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش «مثل السيل المنحط من عل» ، ليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره «وأعشى همدان وأبو جلدّة الشكري في مقدمته يثيران الناس ويحمّسّانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينا أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جهم (١) :

أيا لهفى ويا حُزنى جميعاً ويا غمَّ القوادِ لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وخَلَّينا الحلائل والبنينا (٢)

فما كنا أناساً أهل دينٍ فنَصَّيرَ للبلاء إذا بُلينا
ولا كنا أناساً أهل دُنْيا فنَمْنَعُها وإن لم نَرْجُ دينا
تركنا دورنا لَطَّام عَكَّ وأنباطِ القرى والأشعرينا (٣)

وتقدّم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث وتقدم بجنوده، فاستولى على البصرة، ومضى الحجاج فتزل بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جهمدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله (٤) :

نحن جلبنا الخيلَ من زَرْنجَا مالك يا حَجَّاج منا مَنجَى (٥)
لتُبْعَجَنَّ بالسيفِ بَعْجَا أو لتَفِرَنَّ فذاك أَحجَى (٦)

وما زال أبو جهمدة يحمس الجنود ويبث الغيرة فيهم لنسائهم حتى شددوا على عسكر الحجاج شدة ضعفته، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام، فترجعوا وثبتوا، وكانت الدائرة له. وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دبر الجماجم، وفيها هُزم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن جتمع للحجاج جموعاً جديدة، والتقى به في «مَسْكَن» فحالفته الهزيمة، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان، فالتجأ إلى زنبيل، وبعد محاولات منه لرجوع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج، وقُطِعَت رأسه، وقيل بل مات انتحاراً. ويلقانا بجانب أبي جهمدة شعراء كثيرون لجؤوا في هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة.

الشام اليمنية. ومثلها الأشعر قبيلة يمنية. وسامام
أنباطا يريد أنهم ليسوا بدوا، فهم فلاحون.
(٤) أغاني ٣١٢/١١.

(٥) زرنج : قصبة سجستان

(٦) البعج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر

(١) مرت في الفصل السالف مصادر
ترجمته وانظر في الأبيات أغاني (دار الكتب)

٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) اللطام : الأوغاد . عك : من قبائل

أعشى^(١) همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الحمداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعُني في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لئزى الشعبي فقيه الكوفة المشهور يُصنِّه إليه ، فيتزوج أخته ويزوجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي ، وأقبل عليه ، وأخى أحمد النَّصَّبي مغني بلده ، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولى على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

مَنْ أَكْفَرُ النُّعْمَانَ لَمْ أَلْفَ شَاكِرًا وَمَا خَيْرُ مَنْ لَا يَقْتَدِي بِشُكُورٍ
وله أشعار يترع فيها منزع زهد في الدنيا ، فهو ينفّر منها ومن التعلق بمتاعها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعظاظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وَبَيْنَا الْمَرْءَ أَمْسَى نَاعِمًا جَدِلًا فِي أَهْلِهِ مُعْجِبًا بِالْعَيْشِ ذَا أَنْتِ^(٢)
غُرًّا ، أُنْبِجَ لَهُ مِنْ حَيْنِهِ عَرَضٌ فَمَا تَلَبَّثَ حَتَّى مَاتَ كَالصُّعِقِ
فَمَا تَزُودُ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنُوطًا وَمَا وَاوَاهُ مِنْ خِرْقِ^(٣)
وغير نفحة أعوادٍ تُشَبُّ لَهُ وَقُلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِنُنْطَلِقِ

ونراه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبيكهم بقصيدة كانت إحدى المكتنمات التي كتبت في ذلك الزمان^(٤) . ويتولَّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحربه للمختار الثقفي ناظمًا أشعاراً كثيرة ، رواها الطبري ، يصور فيها شعودة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

بديوان أعشى قيس .

(٢) أنق : فرح وسرور .

(٣) الحنوط : طيب يتخذ للميت خاصة .

(٤) طبري ٤/٤٧٢ .

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني

(طبع دار الكتب) ٣٣/٦ والاشتقاق

ص ٤٢٣ ، والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١

وراجع فهرس الطبري والجزء الخامس من أنساب

الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جابر ملحقا

كُرْسَى وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده ^(١) . ويُدال للبصرة من الكوفة ،
ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلاً :
وإذا فاخترمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل ^(٢)

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب
وغیره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه في موقعة جمل ^(٣) . وقد
انتصر الخوارج ، فضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن
عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه
يحفوه ، فيهجوه . ونراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بدائها .
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مكران ، فيمرض هناك ، وينظم
قصيدة طويلة يصور فيها حينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،
فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعلاج الذي أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرقات تعرفها ،
وبذلك تخلصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يتوَل وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى
سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبي بكرة زنبيل ملك الترك ، ولما دارت
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكرة
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسئوليته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرَم ، وهم
يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَمَمَعْتَ بِالْجَيْشِ الَّذِينَ تَمَزَّقُوا	وَأَصَابَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ
حُبِسُوا بِكَابُلَ يَأْكُلُونَ جِيَادَهُمْ	بِأَضْرَ مَنْزِلَةٍ وَشَرُّ مُعَرِّجٍ ^(٣)
لَمْ يَلْقَ جَيْشٌ فِي الْبِلَادِ كَمَا لَقُوا	فَلَمَثَلَهُمْ قُلُوبُ النَّوَائِحِ تَنْشِجِ

بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(١) انظر الطبري ٤/ ٥٥٠ ، ٥٦١ .

(٢) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

٥٦٥ .

(٣) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار علي فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وَلَيْتَ شَأْنَهُمْ وَكُنْتَ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمَ وَالْحَرْبُ ذَاتُ تَوْهَجٍ
وَتَبِعَهُمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَاهِمٍ فَيَظُلُّ جَيْشُكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي^(١)
وَمَنْعَتَهُمُ أَلْبَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَتَجَرَّتْ بِالْعَنْبِ الذِّى لَمْ يَنْضَجْ

ومات ابن أبى بكرة كما قدمنا ، فولّى سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن
يزيد فى عطائه ، فلم يُلبَّسْ سؤاله ، فضى يعاتبه فى قصيدة طويلة ، يقول له فى
تضاعيفها :

مَالِكٌ لَا تَعْطَى وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُثْرٍ مِنَ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكُثًّا فِي عَيْشِكَ الرَّاعِدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى
يده فى يده وكأنه صدر فى ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم فى صفوف
المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن
الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاية بنى أمية ، ويبراهم ظالمين لارعية يسومونها
العذاب على نحو ما رأينا فى هجائه لابن أبى بكرة . وهذا الحجاج على العراق
قد بغى وطغى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج فى
بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مرغماً ، لا يعرف متى يأذن له فى العودة لتقر عينه
بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه بنظم الشعر
محمساً لجنده ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْقَتَانَ حِينَ طَغَى فِي الْكَفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ^(٢)
بِالسَّيِّدِ الْغَطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَارِبِجَمْعٍ كَالدَّبْيِ مِنْ قَحْطَانِ^(٣)
أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ كَذَّابُهَا الْمَاضَى وَكَذَابُ ثَانِ

(٣) الدبى : الجراد .

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهى السر .

(٢) سفا : خف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثِيرُ بها الجند ويحرِّضُهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم : وما كان لآبائه من مُلكٍ وشرفٍ وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلي النبيلة ، يقول :

يَأْبَى الْإِلَهِ وَعِزَّةُ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَجُدُودُ مَلِكٍ قَبْلَ آلِ ثَمُودٍ^(١)
 أَنْ تَأْتَسُّوا بِمُدَّ مِثْلِهِمْ عُرُوقُهُمْ فِي النَّاسِ إِنْ نُسِبُوا عُرُوقُ عُبَيْدٍ
 كَمْ مِنْ أَبٍ لَكَ كَانَ يَعْقِدُ تَاجَهُ بِجَبِينِ أَبْلَجٍ مَقُولِ صَنْدِيدٍ^(٢)
 مَا قَصَرَتْ بِكَ أَنْ تَنَالَ مَدَى الْعَلَا أَخْلَاقُ مَكْرَمَةٍ وَإِرْثُ جُدُودٍ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نوره وَيُطْفِئَ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَحُمَدَا
 وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ لِمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمُؤَكَّدَا
 وَمَا نَكَّشُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ إِذَا ضَمِنُوهَا الْيَوْمَ خَاسُواهَا غَدَاً^(٣)
 وَمَا أَحْدَثُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَضَعِدْ إِلَى اللَّهِ مَضْعَدَا
 وَمَا زَاخَفَ الْحَجَّاجُ إِلَّا رَأْيَتَهُ مُعَانًا مُلَقًّى لِلْفَتْوحِ مَعُودَا
 لِيَهْنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَهْرُهُ عَلَى أُمَّةٍ كَانُوا بُغَاةً وَحُسَدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فازبدَّ وجهه واهتزَّ منكباها ، وأمر الحرسى فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب .
 صنديد : الجواد الشجاع
 (٣) خاس : غدر ونكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بالثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

شعراء بني أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بني أمية ، فالمديح شيء والشعر السياسي شيء آخر. المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسي فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون في الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسي المناصر لبني أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق في الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثم فهم أولياء دمه . وكان على قد بُوع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بني أمية معاوية أمير الشام بسنده جيش يمني موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شعبة تحاول أن تفرض رأيها السياسي باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا في وقعة الجمل ، فخلا الجول مع معاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صفين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها على انتصاراً حاسماً لولا ما لحأ إليه معاوية من رفع المصاحف بوطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفي هذه الموقعة نظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته في الحكم وعن إمامه الذي ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق في الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جعيل التغلبي :

أرى الشامَ تكره مُلكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
 وقالوا على إمامٍ لنا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا
 وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال بنقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين
 الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
 فإن يكره القومُ مُلكَ العراق فقد ما رضينا الذى تكرهونا^(١)

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم ، وبابح الناس معاوية ، ودخلت
 العراق فى طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،
 وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة
 مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضهم الحجاز فى
 عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها فى عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون فى هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن
 نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .
 وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار
 حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفى رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،
 فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا
 الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويّاً يناضل عن السياسة
 الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وأن يأخذ البيعة
 لابنه يزيد فى حياته . وكان ذلك فى رأى كثيرين بدعة منكورة ، إذ تَخْرُجُ
 الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند
 الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعرف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك ،
 فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع
 من لبّاه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول فى كلمة له^(٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينورى (طبع) (٢) الأغاني (ساسى) ٧١ / ١٨ .

بنى خلفاء الله مهلاً فإنما يُبَوِّئُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ^(١)
 إِذَا الْمُنْبَرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّى مَكَانَهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ
 عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالْجَدُّ صَاعِدٌ لِكُلِّ أَنْاسٍ طَائِرٌ وَجَدُودٌ^(٢)

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل^(٣) الليثي وعبدالله^(٤) بن همام السلولي
 « وكان مكيناً حظيًّا فيهم وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية »
 في أشعار يرويهما الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضره على البيعة لابنه من مثل قوله^(٥) :
 اضْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَامِقَةً وَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَا كَا
 لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رَزَيْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَا كَا
 أَصْبَحْتَ رَاعِيَّ أَهْلَ الدِّينِ كُلَّهُمْ فَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَا كَا
 وَفِي مُعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ إِذَا نُعَيْتَ وَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَا كَا
 ونمضي إلى عصر المروانيين ، وأول من نلقاه من شعرائهم أبو العباس^(٦)
 الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدُّثُلِ يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من
 شعراء بني أمية المحدثين في مدحهم والتشجيع لهم وانصباب الهوى إليهم »
 ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان
 ابن الحكم يبيحهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَلَمْ أَرْ حَيًّا مِثْلَ حَيٍّ تَحْمَلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرَيْتَ^(٧)
 أَعَزُّ وَأَمْضَى حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا وَأَعْلَمَ بِالْمَسْكِينِ حَيْثُ يَبَيْتَ

(١) يبويها : ينزلها .

(٢) الجد : الخط .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت الحميان للصفدي ص ١٥٣ ومجمع الأدباء

١٥٩/١٢ . ١٧٩/١١ والتهذيب ٤٤٩/٣ والبيان والتبيين

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ ٢٣٢/١ ٢٣٣ .

وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ . (٧) تحملوا : ارتحلوا . برئت : خلقت .

(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيّدٌ بصيرُ بعَوّرات الكلام زَمَيْتُ^(١)
وقوله :

لَيْتَ شَعْرَى أَفَاحِ رَائِحَةِ الْمِسِّ لَكَ وَمَا لِي أُنْخَلُ بِالْخَيْفِ أَنْسِي^(٢)
حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَّةَ عَنْهُ وَالْبَهَائِلُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ
خُطْبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فُرْسًا نُنْ عَلَيْهَا وَقَالَةُ غَيْرِ خُرْسٍ
لَا يُعَابُونَ صَامَتِينَ وَإِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا يَلْبَسُ
وَبَلَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ ذُبْدَنًا مِنْ كَلَامِهِ وَأَنَّهُ يَمْدَحُ عَبْدَ الْمَلِكِ وَيُرْسِلُ لَهُ بِجَوَائِزِهِ
وَصَلَاتِهِ ، فَنَفَاهُ إِلَى الطَّائِفِ ، وَهَنَّاكَ أَخَذَ يَهْجُوهُ وَآلَهُ هَجَاءً مَرًّا ، مُحَرِّضًا عَبْدَ
الْمَلِكِ عَلَى حَرْبِهِ ، وَعَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَنْحَرِفُ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ كَانَ يَنْحَرِفُ عَنْ
بَنِي هَاشِمٍ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ لِأَبْنِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ وَكَانَ شَيْعِيًّا :

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَأَبَا طُفَيْلٍ لِمَخْتَلِفَانِ وَاللَّهُ الشَّهِيدُ
لَقَدْ ضَلُّوا بِحَبِّ أَبِي تُرَابٍ كَمَا ضَلَّتْ عَنْ الْحَقِّ الْيَهُودُ
وَيَقَالُ إِنَّهُ أَدْرَكَ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَتُرَوَّى لَهُ أَشْعَارٌ مُخْتَلِفَةٌ — إِنْ
صَحَّتْ — فِي بَكَاءِ الْأُمَوِيِّينَ ، يَتَفَجَّعُ فِيهَا عَلَيْهِمْ وَيَتَحَسَّرُ تَحَسَّرًا شَدِيدًا مِنْ
مِثْلِ قَوْلِهِ :

خَلَّتِ الْمَنَابِرُ وَالْأَسْرَةُ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامٌ
وَمَنْ كَانَ يُلْهَجُ بِهِمْ وَيَقِفُ فِي صَفْوَفِهِمْ نَابِغَةُ بَنِي شَيْبَانَ^(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُخَارِقِ ،
وَيَسْتَظْهَرُ أَبُو الْفَرَجِ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا ، لَحَلَفَهُ بِالْإِنْجِيلِ وَالرَّهْبَانِ وَالْأَيْمَانِ الَّتِي
يُحْلِفُ بِهَا النَّصَارَى ، وَفِي دِيَوَانِهِ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ أَنَّهُ اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ مِنْ مِثْلِ
قَوْلِهِ :

وَيَزَجُرْنِي الْإِسْلَامُ وَالشَّيْبُ وَالتَّقَى وَفِي الشَّيْبِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ زَاجِرٌ

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

(١) زميت : وقور .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثَّل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

لَا بُنْتَكَ أَوْلَى بِمُلْكِكَ وَالِدُهُ وَنَجْمُهُ مِنْ قَدْ عَصَاكَ مَطْرَحُ
فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَأَى عَبْدِ الْمَلِكِ . وَظَلَّ مِنْ بَعْدِهِ يَمْدَحُ أَبْنَاءَهُ ، وَلَهُ
تَهْنِئَةٌ طَوِيلَةٌ لِيَزِيدَ حِينَ قَضَى أَخُوهُ مُسْلِمَةً عَلَى ابْنِ الْمَهَابِ . وَلَزِمَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْوَلِيدُ ،
وَلَهُ فِيهِ مَدَائِحُ كَثِيرَةٌ ، وَكَانَ مِنْ هَوَاهُ فِي الْخَمْرِ وَالشَّرَابِ ، وَلَهُ فِيهَا أَشْعَارُ طَرِيفَةٌ .
وَعَلَى شَاكِلَتِهِ فِي الْإِنْتِصَارِ لِبْنِي مَرْوَانَ أُعْشِيَ قَبِيلَتَهُ عَبْدُ (١) اللَّهِ بْنِ خَارِجَةَ ،
وَكَانَ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ لَهُمْ ، وَلَهُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ مَدَائِحُ كَثِيرَةٌ ، يَحْضُهُ فِيهَا عَلَى
حَرْبِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

أَلْ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي عَجَلَ النَّجَاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا (٢)
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْغَوَاةِ أَطْلَمُ إِمَهَالَهَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلَمْتُ أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا (٣)
أَمْسُوا عَلَى الْخِيَارَاتِ قَفْلًا مَغْلَقًا فَانْهَضْ بَيْتُكَ فَافْتَتَحْ أَقْفَالَهَا

وَمِنْ شِعْرَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ أَبُو عَطَاءٍ (٤) السَّنْدِيُّ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَكَانَتْ فِيهِ
لِكُنَّةٌ سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثْنَا عَنْهَا وَكَانَ مِنْ شِعْرَاءِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُبَيْرَةَ آخِرَ وِلَاةِ
الْأُمَوِيِّينَ عَلَى الْعِرَاقِ ، وَلَمَّا قَتَلَهُ الْعَبَّاسِيُّونَ رَثَاهُ مِرَاثِيَّ بَدِيعَةٍ . وَقَدْ عَاشَ إِلَى أَيَّامِ
الْمَنْصُورِ ، وَنَرَاهُ يَبْكِي بَنِي أُمَيَّةَ حِينَ سَقَطَتْ دَوْلَتُهُمْ هَاجِئًا الْعَبَّاسِيِّينَ فِي أَشْعَارِ
كَثِيرَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدَلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ
وَقَوْلُهُ :

بَنِي هَاشِمٍ عُدُّوْا إِلَى نَخَلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعًا بِدَرَاهِمٍ
فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّ قَلَمُ رَهْطِ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ

(٤) انظر في ترجمة أبي عطاء أغاني (ساسي)
٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة
١٧٠/٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٥٦
والعمى ٥٦٠/١ .

(١) انظر ترجمته في الأغاني طبع (ساسي)
١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديوانه ملحقاً
بديوان أعشى قيس .

(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .

(٣) الثمَال : الغيث الذي يقوم بأمر قومه .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك^(١) :

تَحْيِرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لَخَلْقِهِ وَلَيْسَا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
وَقَدْ يَصْعَدُونَ بِهِمْ فَيُشْمُونَهم بِالْأَنْبِيَاءِ ، يَقُولُ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ فِي سَلْيَانَ^(٢) :
سُمِّيتَ بِاسْمِ أَمْرٍ أَشْبَهْتَ شِمَّتَهُ عَدُوًّا وَفَضْلًا سَلْيَانَ بْنِ دَاوُدَا
أَخِيذَ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَحْمُودَا
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العبد البلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه^(٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزَمِ وَيُحْيُونَ لَيْلَهُمْ بِالسَّجُودِ
وَالْغَرِيبُ أَنْ نَجِدَ هَذَا التَّصْوِيرَ يَمْتَدُّ حَتَّى إِلَى مَنْ عُرِفُوا مِنْهُمْ بِالْحُجُونِ مِثْلَ
الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ ، وَفِيهِ يَقُولُ يَزِيدُ بْنُ ضَبَّةَ^(٤) :

إِمَامٌ يُوضِحُ الْحَقَّ لَهُ نَوْرٌ عَلَى نَوْرٍ
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يختربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبَدَتْ فِي الْأَفَقِ النَّذْرُ بِزَوَالِ حُكْمِهِمْ كَتَبَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ وَالْهَيْمُ عَلَى خُرَّاسَانَ إِلَى يَزِيدِ بْنِ عَمْرِ بْنِ هُبَيْرَةَ وَالْهَيْمُ عَلَى الْعِرَاقِ يَسْتَنْصِرُهُ وَيَنْبِثُهُ عَنْ تَحْرُكِ الشَّيْعَةِ فِي دِيَارِهِ قَائِلًا^(٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِضَّ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامٌ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَلَيْقَاطُ أُمِّيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ كَانُوا لِحَيْنِهِمْ نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ طَالَ الْمَنَامُ

(٤) انظر ترجمته في الأغاني ٩٥/٧ وما

بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١٥٨/١ .

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٩٨/١ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٨٨/١٢ .

(٣) أغاني ٣٠٦/١١ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله^(١) بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ . بنى أسد « كان من شيعة بني أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجو ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت منيَّتي أيادى لم تُمنن وإن هى جَلَّتْ
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعلُ زَلَّتْ
رأى خلَّتْ من حيث يخفى مكانها فكانت قَدَى عينيه حتى تجلَّتْ^(٢)
ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مجدٌ إلا مجدُ أسماء فوقه ولا جرى إلا جرى أسماء فاضله
فتى لا يزال الدهر ما عاش مُخصباً ولو كان بالموماة تخدى رَواحله^(٣)
وعزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ الله والمجدُ صفوة الـ حليفين ما أرسى ثبيرٌ ويشرب^(٤)
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ فأبشِرْ فقد أدركت ما كنت تطلبُ

(٣) الموماة : المغارة . تخدى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يشرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر فى ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٧/١٤ وما بعدها والخزانة ١/٣٤٥ ومعاهد التنخيص ١/٢٠ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير يتوعده ويهدده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمن عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجو حين يبلغه قتله لبعض شيعة بني أمية ، وله يقول :

أهـا العائدُ في مكة كم من دمٍ أهرقته في غير دمٍ
أيدُ عائذة معصمة ويدُ تقتل من حلَّ الحرم

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلاً :

كأنى بعبد الله يركب ردعه وفيه سنان زاعجٍ مُحَرَّبُ^(١)
وقد فر عنه الملحدون وحلقت به وبمن آسأه عنقاء مغرب^(٢)
تولوا فخلوه فشال بشلوه طويل من الأجذاع عارٍ مشذب^(٣)
بكفى غلامٍ من ثقيف نمت به قريش وذو المجد التليد معتب
ويلزم بشر بن مروان في ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفى في خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً بعد بشر ، ويقال إنه عمى بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يرهبُ شره .

عدى^(٤) بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يسئلك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بني أمية — كما يقول أبو الفرج مداحاً

(١) يقال ركب ردعه: إذا سقط قتيلاً تشب دمه . والزاعجية : ضرب من الرماح . محرب : محدد .

(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم .

(٤) انظر في ترجمة عدى وأخباره وأشعاره

أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسي) ١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء ٦٠٠/٢ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٨٦ والاشتقاق ص ٣٧٤ والموشع ص ١٩٠ والطرائف الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم ، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس في الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله بمدحه مفاخرأ بنصرتهم له :

لعمري لقد أَصْحَرْتُ خَيْلَنَا بِأَكْنَافِ دِجْلَةٍ لِلْمُضْعَبِ^(١)
يَهْزُونُ كُلَّ طَوِيلِ الْقَنَا ةً مَلْتَمُ النَّضْلِ وَالْتَّغْلَبِ^(٢)
تَقْدَمَنَا وَاضِحٌ وَجْهَهُ كَرِيمُ الضَّرَائِبِ وَالْمَنْصَبِ^(٣)
أَعَيْنَ بَنَا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرِ اللَّهَ لَمْ يُغْلَبْ

ولا نكاد نَمْضِي فِي عَصْرِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حَتَّى نَجِدَهُ يَقْرَبُهُ مِنْدٌ وَيَتَخَذُهُ شَاعِرَهُ الرَّسْمِيَّ ، حَتَّى لِيُسْعِلِيهِ عَلَى جَرِيرٍ فِي بَعْضِ مَجَالِسِهِ ، وَيُثَوِّرُ جَرِيرَ ، وَيَهْجُوهُ ، فَيَتَدَخَّلُ الْوَلِيدُ وَيَتَهَدَّدُهُ إِنْ عَادَ إِلَى هِجَاثِهِ . وَيُظَلُّ فِي رِعَايَتِهِ يَصْنِفُهُ مَدَائِحُهُ ، وَيَتَغَنَّى لَهُ فِيهَا الْمَغْنُونُ ، وَمَا غَنَّى لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ فِيهِ قَوْلُهُ :

صَلَّى الَّذِي الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا مَا جَمَعُوا الْجُمُعَا
هُوَ الَّذِي جَمَعَ الرَّحْمَنُ أُمَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ وَكَانُوا قَبْلَهُ شِيعَا
إِنَّ الْوَلِيدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مُلْكٌ عَلَيْهِ أَعَانَ اللَّهُ فَارْتَفَعَا

وقوله :

صَلَّى إِلَهِهُ عَلَى أَمْرٍ وَدَعَتْهُ وَأَنْتُمْ نَعْمَتُهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا
أَوَّلَا تَرَى أَنَّ الْبَرِيَّةَ كُلَّهَا أَلْقَتْ خَسَرَاتِهَا إِلَيْهِ فَقَادَهَا^(٤)
وَلَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ إِذْ وَلَاكَهَا مِنْ أُمَّةٍ لِإِصْلَاحِهَا وَرَشَادَهَا
أَعْمَرَتْ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَأَقْبَلَتْ وَنَفَيْتَ عَنْهَا مَنْ يَرُومُ فَسَادَهَا

(٤) الخزائم : جمع خزامة . وهي البرة يخزم بها البعير في أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

(١) أصحرت : برزت
(٢) التغلب : رأس الرمح
(٣) الضرائب : الطباع

وَأَصَبَتْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ مَصِيبَةً عَمَّتْ أَقَاصِيَ غَوْرِهَا وَنِجَادَهَا
ظَفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاوَلَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا
وَإِذَا نَشَرْتُ لَهُ الشَّنَاءَ وَجَدْتُهُ جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرَفَهَا وَتِلَادَهَا^(١)

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولاً بكل ما
يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره
لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والثام شعثها ، وقد انقادت إليه بأزمته ،
والله يتم عليه نعمته ، وهى تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله فى علاه ليصلى
عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ،
وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليعوطها بجنده
منزلاً على أعدائها صواعقه ، فتمحتمهم محققاً .

وفى أشعاره ما يدل على أنه كان يُعَيِّنُ بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصْقِلُهَا
ويشذبها حتى تلبين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مَيْلَهَا وَسِنَادَهَا^(٢)
نَظَرَ الْمُثَقَّفِ فِي كُعُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مَنَادَهَا^(٣)
واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ،
ومن بديع وصفه لظبية ترتعى ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُزْجِي أَغْنًى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا^(٤)

ويشبه امرأةً بجؤذر ، فيقول :

وَكَأَنَّهَا وَسْطَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ^(٥)
وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ النُّعَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(٦)

(١) طرفها : حادتها . تِلَادُهَا : قديمها .

(٢) السناد : من عيوب الروى .

(٣) المثقف : الذى يشحن الرماح والسيوف

ويقومها . منادها : معوجها .

(٤) تزجى : تسوق . الأغنى : الشادن فى

صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه
المحدد .

(٥) الجاذر : جمع جؤذر وهو واء البقرة .

جاسم : من قرى دمشق .

(٦) سِنَّةٌ : صرعه . رَنْقَتْ : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من
حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تُطَوَى إذا علّوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتُ نشرها

وله فى النسيب أبيات تادل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبيت يَدُ الفتاة وسادةً لى جاعلاً يُسْرِى يديَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب
فى شعره أن يأتى بالصورة الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقنا إلى آذانهما في الرفة والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسُدَّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويخيّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلّفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النِّسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل^(١) . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثيره مقطوعات قصيرة ، وعدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرَّمَل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

(١) انظر في ذلك كتابنا : الشعر والغناء في

المدينة ومكة لعصري بن أمية (طبع دار المعارف)

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى أعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الحس . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحادثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثوريَّ بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنَّى بأُم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساء في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل ، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقى طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمّار الجشّميّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يُلْقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من رغبة ، وبلغ من تيه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلاً عنده فعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر^(١) بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مجّدا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم^(٢) ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدلّته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

وشاعر الغزل (في سلسلة أقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابيننا : التطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته . وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفي بيروت . (٢) ابن سعد ٢/٥٠٢٨٨ .

(١) انظر في ترجمة عمر الأغاني (طبع دار الكتب) ٦١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٣٥/٢ والموشح ص ٢٠١ والخزانة ٢٣٨/١ ومرآة الجنان للياقبي ١٨٢/١ وابن خلكان وشذرات الذهب ٤٠/١ وأمالى القالي ٥١/٢ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبي) ٣٧٢/١ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراساتهم له على هذا الوهم^(١) ، وفي الكامل للعبد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً^(٢) ، وما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وَأَنَا امْرُؤٌ بِقَرَارٍ مَكَّةَ مُسْكِنٌ وَلَهَا هَوَايَ فَقَدْ سَبَبْتُ قَلْبِي
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أجل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجَح والغريض يلزمونه ويغنون في شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمون حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة^(٣) . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بَغُوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياها من مثل مَعْبُد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غَزَلٍ في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلّف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخَضِّع ملكاته لفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عدوبة وحلاوة ، حتى تَقْسَح لهم في روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهِرنا على حقيقته في غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحول إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوَافِ احْتِسَابًا وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوَافِ
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت علي الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سَكِينَةَ بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوِّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره

أخباره في الأغاني مع مفتي مكة ومع الثريا .

(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

(٣) ٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨

لجبور طبع بيروت .

(٤) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع

وحُلِيّ وطيب ، على نحو ما نرى في قوله :

قَالَتْ ثُرَيَّا لِأَتْرَابٍ لَهَا قُطْفُ قَمْنٍ نَحْيِي أبا الخطَّابِ مِنْ كَثْبِ^(١)
فَطِرْنٍ طَيْرًا لَمَّا قَالَتْ وَشَايِعَهَا مِثْلُ التَّمَاثِيلِ قَدْ مَوْهَنْ بِالذَّهَبِ
يَرَفْلُنَ فِي مُطَرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةً وَفِي الْعَتِيقِ مِنَ الدِّيْبَاكِ وَالْقَصَبِ^(٢)
تَرَى عَلَيْهِنَ حَلَى الدَّرِّ مَتَسِقًا مَعَ الزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ كَالشَّهْبِ
وَنَرَاهُ أحيانًا يُلْهَجُ بِصَبَابَتِهِ وَجْهَهُ وَمَا يَذُوقُ مِنْ وَجْدٍ وَأَلَمٍ ، مُتَلَفِّفًا لِصَاحِبَتِهِ ،
مَلْحًا عَلَى أَنْ تَوَاصِلَهُ بَوْدَهَا ، مُسْتَعْطَفًا ، مُتَضَرِّعًا ، بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مَذَّ عَرَفْتَكُمْ أَنْ الْمُضَاجِعَ تَمْسِي تُنْبِتُ الْإِبْرَا
قَدْ لَمْتُ قَلْبِي وَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ فَقَالَ لِي : لَا تَلْتَمَنِي وَادْفَعْ الْقَدْرَا
وَلَكِنْ هَذَا يَأْتِي نَادِرًا فِي غَزَلِهِ ، إِذْ قَلِمَا يَشْكُو مِنْ هَجْرٍ أَوْ يَتَأَلَّمُ لَصَدِّ ،
فَقَدْ تَحَوَّلَ بِشَعْرِهِ يَمْلُؤُهُ تَبَاهٍ بِنَفْسِهِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ جَمِيلًا ، وَكَأَنَّمَا انْعَكَسَتْ
فِيهِ صُورَةُ الْحُبِّ ، فَهُوَ لَا يَشْكُو الْغَرَامَ وَالْعَشْقَ ، بَلْ مَحْبُوبَتُهُ هِيَ الَّتِي تَشْكُو مِنْ
ذَلِكَ ، فَهِيَ الَّتِي تَحِيطُهُ بِشَبَاكِ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِعْطَافِ ، وَهِيَ الَّتِي مَا نَتْنِي
مُسَهَّدَةً تَتَعَذَّبُ فِي حُبِّهِ وَتَتَمَنَّى لَوْ تَرَاهُ . وَاسْمَعْنِي يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَى صَوَاحِبِهِ :
تَقُولُ إِذْ أَبْقَنْتُ أُنَى مَفَارِقُهَا يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ يَا عَمْرَا
وَيَقُولُ عَلَى لِسَانِ ثَانِيَةٍ :

مَا وَافَقَ النَّفْسَ مِنْ شَيْءٍ تَسَرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَوْقَهُ عُمُرُ
وَيَقُولُ عَنِ ثَالِثَةٍ :

قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحَلْفُ مَجْتَهِدًا^(٣)
لَأُخْتَهَا وَلِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا^(٤)
لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

(١) قُطْفُ : جَمْعُ قُطُوفٍ وَهِيَ بَطِيئَةُ الْخَطْوِ .

كَثْبُ : قَرِيبُ .

(٢) مُطَرَفَاتُ : ثِيَابُ نَفِيسَةٍ . السُّوسُ : بَلَدٌ

بِالْمَغْرِبِ . الْقَصَبُ : الْحَرِيرُ .

(٣) الصُّورَانِ : مَوْضِعٌ قَرِيبُ الْمَدِينَةِ .

(٤) مَنَاصِفُ : جَمْعُ مُنْصَفٍ كَبِيرٍ ، وَهُوَ

الْحَادِمُ .

وبصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكبرى أتعرفنَ الفتى قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرُ
قالت الصُّغرى وقد تيمَّنتها قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر
ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور ككفها به وتصدَّيها
له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو في أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ،
وهي تسعى إلى الوصول منتبهة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :
قالت لِتَرْبٍ لها تحدَّثنا لِنُفْسِدَنَّ الطَّواف في عُمَرِ
قوى تصدَّى له ليعرفنا ثم اغمِز به يا أختَ في خَفر
قالت لها قد غمزته فأبَى ثم اسبطرتُ تَسْعَى على أَثرى^(١)
وعلى هذا النحوراه في غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه
وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة في الغزل العربي ، إذ لا يزال الشاعر
يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام
مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا في تصوير حبه
هو وإنما في تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقد به قلوبهن من العشق والصبابة.
فعمر في غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل في جمهور هذا الغزل ،
ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء جهن له فحسب ، بل
أيضاً بما يصفن من خطوط هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن
مرارة الغيرة ويصطلين بنارها الخرقرة ، وهن يتألن من الوشاة ومن فقدهن
لعطفه وأنهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصدوف ، يقول على لسان إحداهن :
أمن أجلِ وإش كاشحٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَى بيننا صدَّقته لم تكذِّبِ
وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيها وما يتعمقها من دقائق
الحب وما يثير في قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسرِّضاء
عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول
أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

(١) اسبطرت : أسرعت

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد شُغِلَا^(١)
فجاوبتها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطلاً
أفنتي حياءك في سِتْرٍ وفي كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلاً^(٢)
لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجَلاً
وترضى خطتها وتوصيها أن تكذبَ عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف
في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا
وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهم ،
على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :
كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي كِتَابَ مَوْلِي كَمِدِ
كُتِيبَ وَاكِفِ الْعَيْنِ بَيْنَ الْحَسَرَاتِ مَنْفَرِدِ^(٣)
يُورِّقُهُ لَهَيْبُ الشَّوْقِ قِ بَيْنَ السَّحْرِ وَالْكَبَدِ^(٤)
فِيْمَسْكُ قَلْبِهِ يَدِ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ يَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً^(٥) ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من
تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .
ومن أهم ما يَطْبُعُ غزله هذا الحوار القصصي الذي رأيناه على لسان محبوباته
يصنّفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً
إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما
نعرف في قصيدته :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ غَدَاةٍ غَدَاةٍ رَائِحٌ فَمُهْجَرٌ^(٦)

(٦) غاد : من الغدوة وهي البكرة أو أول
النهار ، رائح : من الرواح وهو العشي أو من
الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهي
نصف النهار . وانظر في هذه القصيدة وشرحها
المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

(١) رِقْبَة : انتظار .
(٢) أفنتي حياءك : احتفظي به .
(٣) واكف العينين : سائل الدموع .
(٤) السحر : الرقعة .
(٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .

ويعضى فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تبشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نيبلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثمَّ كنا ننفي القيصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها^(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص^(٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حمى الدبر أى التحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لحيان في نقر ، فحاربوهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جنَّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السيل ، فسمي حمى الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلْتُ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ مَبْتَأُ طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ

ولما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبى ربيعة عاش للحب

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩

والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزاة

١/٢٣١ وحديث الأربعاء ١/٣٢٩ وكتابتنا

الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية

ص ١١٤ .

(١) أغاني (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره

الأغاني (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ،

٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،

٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثمَّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول:

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَأَ الأرضَ معروفاً وجوداً وسُوددا
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه
وزيد بن عبد الملك. وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد، ولعله من
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه، فتهجمهم هجاء قبيحاً. وهو
في غزله شديد الصبابة، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء، حتى
ليقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تَدِرْ ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخر جَلَمَدَا
فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات، بل من الجماد، بل من
الحجارة أو أشد قسوة. وهو يعلن حبه إعلاناً، يعلن صبوته وثورة نفسه. وكان
فاسد الخلق، فانصرفت الفتيات والنساء عنه، إذ رأينه يذهب بعيداً في
التصریح، على شاكلة قوله:

تعرَّضُ سلماك لما حرم تَضَلَّ ضلالك من مُحرَّم^(١)
تريد به البرَّ يا ليتَه كفافاً من البرِّ والمأثم^(٢)
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً،
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن، حتى ليُرَوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية،
وفيها يقول:

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

(١) حرمت: دخلت الحرم مثل آخرت.

(٢) يقول: ليتني تعادل إثمى وبرى،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فَأُبْهَتْ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
لَكَ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي وَمُثْنٍ بِنَا أَوْلَيْتَنِي وَمُثِيبٌ
أَبْشُكَ مَا أَلْتَنِي وَفِي النَّفْسِ حَاجَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَبِيبٌ
ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . وفراه مشغوقاً
بجميلة الغنية ونادى المشهور فى المدينة ومن كنَّ فيه من الإماء مثل الذَّلْفَاءِ
وعقيلة وسلامة القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله
فى الذَّلْفَاءِ :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هَمِّي فَلِيدَعْنِي مِنْ يَلُومُ
حَبِّ الذَّلْفَاءِ عِنْدِي مَنْطِقٌ مِنْهَا رَخِيمٌ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مُسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ^(١)

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،
يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرُهَا إِلَّا تَرْقُقُ مَاءُ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعَا^(٢)
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
وَزَادَنِي كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنَعَا
وهو فى هذا الغزل بالإماء والحوارى يختلف عن ابن أبى ربيعة الذى كان
لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النobileات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف
عنه أيضاً فى بعده فى التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن
ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبى بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على
البُلس للناس . ولما ولى عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال
خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة — وقد صارت إليه —
عنده فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على
ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين هنا : داء .

(١) لا يريم : لا يبرح .

العرجى^(١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضبيعة له قرب الطائف تسمى العرج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالغزل ونَحَا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نهايته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عدَّ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبه حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضىت ولكن جئت في قمر هلاً تلبثت حتى تدخل الظلم
وقوله :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأشقر
فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر^(٢)
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلاً
من اللاء لم يحججن يبعين حسبة ولكن ليقتلن البرى المغفلاً
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تنقسم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويشفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشعر ٥٥٦/٢٠ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعماء ٣١٦/١ وقد طبع ديوانه في العراق .
(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة العرجى وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١ وما بعدها ، ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْهُوَى كَيْفَ أَخْلَقَا فَلَمْ تُلْفِهِ إِلَّا مَشُوبًا مَمْدَقًا^(١)
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ يَسْتَزِيرُ حَبِيبَهُ يَعَاتِبُهُ فِي الْوَدِّ إِلَّا تَفَرَّقَا
 لَقَدْ سَنَّ هَذَا الْحَبَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَقَادَ الصَّبَا الْمَرْءَ الْكَرِيمَ فَأَعْنَقَا^(٢)
 وَكَانَ يَمْضَى فِي التَّغْنَى بِهَذَا الْغَزَلِ لَا يَنْحَجِلُ وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْجُمُوحِ فِيهِ ،
 إِذَا كَانَ جَرِيثًا ، بَلْ كَانَ عَنيفًا ، وَهُوَ عَنَفُ نَرَاهُ فِي تَتَبُعِهِ لِلنِّسَاءِ الْمُتَزَوِّجَاتِ
 يَتَغَزَلَ بِهِنَ ، كَمَا نَرَاهُ فِي ظَلَمِهِ لِمَوْلَى لِأَبِيهِ قَتْلَهُ وَسُلْطَ عِيْدِهِ عَلَى امْرَأَتِهِ ، وَأَيْضًا
 فَإِنَّا نَرَى هَذَا الْعَنَفَ فِي هِجَاثِهِ لِمُحَمَّدِ بْنِ هِشَامِ الْخَزَوِيِّ ، إِذَا أَخَذَ يَتَغَزَلَ بِزَوْجِهِ
 جَبْرَةَ الْخَزَوِيَّةِ وَأُمَّهُ جَيْدَاءُ بِنْتُ عَفِيفٍ لِيَفْضَحَهُ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

عَوْجِي عَلَى فَسَلَّمِي جَبْرُ فِيمَ الصُّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
 وَقَوْلُهُ :

عَوْجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودِجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرَجِي
 أَيْسَرُ مَا نَالَ مُحِبُّ لَدَى بَيْنَ حَبِيبٍ قَوْلُهُ عَرَّجِ
 نَقْضُ إِلَيْكُمْ حَاجَةً أَوْ نَقْلُ هَلْ لِي مِمَّا بِي مِنْ مَخْرَجِ
 فَلَمَّا وَلِيَ مُحَمَّدٌ إِمَارَةَ مَكَّةَ لَهُشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَقَامَهُ عَلَى الْبُلُسِّ وَحَبَسَهُ ،
 وَظَلَّ فِي سِجْنِهِ تِسْعَ سِنِينَ إِلَى أَنْ مَاتَ ، وَلَهُ أَشْعَارُ كَثِيرَةٌ يَأْسِي فِيهَا عَلَى مَا صَارَ
 إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ السِّجْنِ ، يَقُولُ فِيهَا بَيْتَهُ الْمَشْهُورُ :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِهِيَّةٍ وَسِدَادٍ ثَغْرِ^(٣)
 وَمَا يَسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ :

ارْزُجْ إِلَى خُلُقِكَ الْمَعْرُوفِ دَبْدَنُهُ إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
 وَيُقَالُ إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ اقْتَصَّ لِلْعَرَجِيِّ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامِ الْخَزَوِيِّ حِينَ
 صَارَتْ الْخُلَافَةُ إِلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَرَعْ حَرَمَةَ قَرَشِيَّتِهِ وَنَسَبِهِ فِي بَنِي أُمِيَّةِ .

(١) أخلق : بل . ممثقا : مشوبا ومخلوطا .
 (٢) أعنق : سار سيرا منبسطا ، يريد أن
 الصبا إذا قاد المرأة الكريم أنقاد له وجرى في
 ميدانه .
 (٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد
 الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

شعراء الغزل العذري

الغزل العذري غزل نقي طاهر ممعن في النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بني عُدْرة إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادي القُرَى شمالي الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه ، ويُرَوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العذري صاحب عَفْرَاء : أصحيح ما يُروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عُدْرة وحدها ، فقد نشأ في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بين بني عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس ، وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطَوَّى فيها من لُهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرَّ بنا عند الأحوص والعرجي ، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتدينها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللوين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يتصلَّى المحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوحة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا يني يتغنى بمعشوقته ، متذللاً متضرعاً متوسلاً ، فهي ملاكه السماوي ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية ، يصور فيها وجده الذي ليس بعده وجْد وعذابه الذي لا يشبهه

عذاب . ونعصى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان ، حتى ليظل يُغشَى عليه ، بل حتى ليُجسَن أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسداجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تخيلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرَف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفقه الرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القيرية وإنما وصفهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه آفتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقة ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح ، يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليلي إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفَصِّح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة (١) وضّاح اليمى التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحضر برأ عميقة ، رماه فيها ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوady الحجاز ، وكثر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالاً ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العذرى وصاحبه عَقْرَاء ، وقد ترجم له صاحب (٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتعروني لذكراك رَعْدَةٌ لها بين جلدى والعظام دَبِيبُ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبَا وما أعقبَتْها فى الرياح جَنُوبُ
ومنها الصَّمَّة (٣) القُشَيْرَى ، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رَبِيعًا ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأملال ص ١٥٧

والخرافة ١/٥٣٣ .

(٣) ترجمته فى الأغاني (طبع دار الكتب)

٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته العينية فى

الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته فى الأغاني (طبع دار

الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً

تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥

وحدیث الأربعاء ١/٢٩٣ .

(٢) أغاني (سأى) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها . ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أَيَّامَ الْجَمَى ثُمَّ أَنشَى عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
ومنهم كثيرٌ عَزَّةٌ ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبي عَمَّار الجُشَمْسِي وعروة بن أذينة وخبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد^(١) الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَسَّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سَلَامَةَ ، فشُغِفَ بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القسَّ ، وفيها يقول :

سَلَامٌ هَلْ لِي مِنْكُمْ نَاصِرٌ أَمْ هَلْ لِقَلْبِي عَنْكُمْ زَاجِرٌ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ
وكان عروة^(٢) من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إِن التِي زَعَمْتُ فَوَادِكَ مَلَّهَا جُعِلَتْ هَوَاكَ كَمَا جُعِلَتْ هَوَى لَهَا
فِيكَ الذِي زَعَمْتُ بِهَا وَكَلَاكَمَا يُبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةُ كُلُّهَا
بِيضَاءَ بَاكِرِهَا النِّعِيمُ فَصَاغَهَا بِلِبَاقَةٍ فَادَّقَهَا وَأَجْلَّهَا
مَنَعْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا
أما ابن^(٣) عَتْبَةَ فكان أحد الفقهاء السبعة المقلِّدين في المدينة الذين حُمِلَ عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والموشح

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ١٣٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

٥١/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الميمان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عثمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح^(١)
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أني في الشياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حرموا
منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي^(٢) الأخيلية
الحفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توبة
ابن الحمير ، وشغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ،
حتى يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودوني تربةً وصفائحُ
لسلمت تسليمَ البشاشة أوزقا إليها صدئ من جانب القبر صائح^(٣)

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكنه
ليلى بقصائد كثيرة تصور ما أوقده في فؤادها من جذوة الحب ، من مثل
قولها :

أيا عينُ بكى توبة بن حمير يسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العيرة المتحدر

وقولها :

وآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فنن ورفاء أو طار طائر
وكل شباب أو جديد إلى بلى وكل امرئ يوماً إلى الله صائر

١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشراء ١/١٦٤

والأما للقال ١/٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليل الأخيلية وأخبارها مع

توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لبني وجميل عاشق بثينة .

قيس^(١) بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلاته بديار لبني الخزاعية ، فراها ، ووقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبى لبني ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحِجان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعَقَ غُرَاب قبل رحيلها ، فتشام تشاوماً شديداً ، ونظم في نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ ببني لبني فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لبني وتناهى بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب وكان الدهرَ سعيك في تَبَابِ

ورحلت لبني ، فاضطربت جدوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلبني وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

٦١٠/٢ وأمالى القالى ٣١٨/٢ وراجع الموشح
ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ٢٥٦/١ .

(١) انظر في قصة قيس الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والشعر والشعراء

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلني بلُبنى بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبنى عَيتُ فما أطيق له جوابا

وقوله :

وإني لأهوى النومَ في غير حِينه لعل لقاء في المنام يكونُ
تحدثني الأحلامُ أني أراكمُ فياليت أحلام المنام يقين
وكانت لبني تسمع بوجده وشعره ، فلا يهناً لها عيش ، وتبكي مصيرها
ومصيره . ويُروى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس
في غراب البين ، وأخذت تنتف ريشها وهي تصيح بأشعار مختلفة من مثل
قولها :

ألا يا غرابَ البين لئنك شاحبُ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصِرٍ كما ليس لي من ظالمٍ نصير
ولما أضنى الحب قيساً رقاً له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار
لبنى لعله يحظى برؤيتها ، ففضى معهم وهو ينشد :

لقد عذبتني يا حبُّ ليلى فقَعْ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج وراها هناك ، فعاوده
فتونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقبها فعرف أنها ما زالت
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلّق روعي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً في المهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمُنصرِمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبه .
 وتمضى القصة فتزعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها
 مخايل صاحبه ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبه الأولى عاوده ، وكأنما لم
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباهَا شكاه
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أننى له ؟ لقد أمضه الغرام ،
 ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،
 وبكى أحراً بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبْصِرُ قَرْنَ الشمسِ حين تزول
 وأرواحنا بالليل فى الحَيِّ تلتقى ونعلم أنا بالنهار نَقِيلُ^(١)
 وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا سماءُ نرى فيها النجومَ تجول
 واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته
 تمنع فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ومن حُرْقٍ تعتادنى وزفيرِ
 ومن ألمٍ للحب فى باطن الحشما وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ
 وقوله :

وبين الحشما والنحر منى حرارةً ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلبَ ساهيا
 تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا تماديا
 وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْنَ تعودُ فإن عُدْنَ يوماً إننى لسعيدُ

(١) نَقِيلُ : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبتة ، حتى رأى رضيعه الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلًا إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

جميل^(١) بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ في منازل عُدَّة بوادي القُرى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عَزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدُبة بن الحَشْرَم تلميذ الخطيئة ، ونعرف أن الخطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحزین الكنانی .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهي أشعار يَمْضِي جمهورها في التغنى ببشينة معشوقته ، لإحدى نساء قبيلته ، تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبا حباً انتهى به إلى الهُيام بها ، وعرفت ذلك فنحتة حبها وعطفها ، وأخذت تلتقي به حين شباً في غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي برىء ،

وحدث الأربعة ١/٢٤٩ ، ٢٨٧ . . وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأمل ٢/٨٧ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٨/٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ . والشعر والشعراء ١/٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١/١٩٠ والموشع ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ، فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأَرْضَى من بُشَيْنَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بِلَابِلُهُ (١)
بلا وبأن لا أَسْتَطِيعَ وبِالْمُنَى وبِالْأَمَلِ المرجوُّ قد خاب آملُهُ
وبِالنظرة العَجَلَى وبِالحَوْلِ تنقضى أوْاخِرُهُ لا نلتقى وأوائله
وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشْرِقُ الدنيا في عينه ،
ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكرهه العرب أن يزوجوا
فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى في
القبيلة يسمى بُبَيْيْهَا ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،
يقول :

ولو تركتُ عقلى معى ما طلبتها ولكنْ طَلابِيا لما فات من عقلى
خليلى فيما عشنا هل رأيتما قتيلا بكى من حبٍّ قاتله قبلى
فلا تقتليني يا بُشَيْنُ فلم أُصَبْ من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى
ويقول :

لها في سَوادِ القلبِ بالحُبِّ مِيعَةٌ هى الموتُ أوْ كادتْ على الموتِ تُشْرِفُ (٢)
وما ذكرتكِ النَّفْسُ يا بَشَنَ مرَّةً من الدهرِ إلا كادتِ النَّفْسُ تَتَلَفُ
وإلا اعترننى زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجَلٌ من الدمعِ يَذْرِفُ (٣)
وما استطرقتُ نفسى حديثاً لَحَلَّةٍ أُسْرُ به إلا حديثُكِ أطرفُ
ويعضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبئه في بعض الأحيان
أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوسائس . قرت : سكنت .

(٢) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

(٣) يقصد بالمِيعَةِ حرارة الحب وقوته .

المدينة وغير المدينة ينغى باسمها وحبها متحملا من الجهد في عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوتها إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكرها لا تبرح مخيلته ، بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يُودِعها عبادته على شاكلة قوله :

أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ أَبَيْتَنَّ لَيْلَةً بُوَادَى الْقُرَى إِنِّي إِذْنٌ لِسَعِيدٍ
وَهَلْ أَلْقَيْنَ فَرْدًا بَثِينَةً مَرَّةً تَجُودُ لَنَا مِنْ وَدَّهَا وَنَجُودُ
عَلَقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَلِيدًا فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمَى حُبُّهَا وَيَزِيدُ
وَأَفْنَيْتُ عَمْرَى فِي أَنْتَظَرِ نَوَالِهَا وَأَبْلَيْتُ فِيهَا الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بَثِينَةُ قَاتِلِي مِنَ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشَ بِهِ مَعَ النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْهَوَى مَنَى إِذَا مَا لَقَيْتُهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا فَيَعُودُ

وشعرٌ جميل كله في بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به .

٣

شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهي دعوة تحذل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أودّه ، ويعدّه للكفاح في سبيل الله ، ومن ثمّ كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُروى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دُلّنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « اُزْهَدْ فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ^(١) » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة ^(٢) المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمُثَرِّين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفى ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس ^(٣) .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم فى ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم فى كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت فى كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش فى مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم وديناهم ، ومضوا يتعبدون ، وكان الخوارج فى

(١) انظر فى هذا الحديث رقم ٣١ فى الأربعين (٣) انظر فى ذلك كتابنا التطور والتجديد فى الشرع الأموى ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) النووية والبيان والتبيين ١٦٦/٣ .
(٣) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّت في اجتهادها وما زعمته من كفر
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تفضل يوماً في تقواها .

لذلك كله عمّت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها
المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في ثنايا هذا الزهد
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرّة أعينهم ، وهى لذلك مانتى تحدثهم
— مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ،
ويحض حاضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لسيّيد والنابعة الجعندى وغيرهما تلك التى
تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة
تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبىعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون
إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته
الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم
العجلى والعجاج يبدعون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية
وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته ^(١) :

يَا رَبُّ قَدْ أَشْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً لقد أَحْصَيْتَ آثَارِي
يَا مَخْرَجَ الرُّوحِ مِنْ جَسْمِي إِذَا احْتَضَرْتُ وفارَجَ الْكَرْبِ زَحْزَحْنِي عَنِ النَّارِ

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبرى) ص ٦٦٧ .

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام . وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُوي له — كما أسلفنا — مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي أن الذي هو رزقٌ سوف يأتيني
أَسْعَى له فيعْنِي تَطْلُبُهُ ولو قعدتُ أُناني لا يُعْنِي
خِيمي كريمٌ ونفسي لا تحدُّني إن الإله بلا رزقٍ يخلِّني
ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يهتمونه في دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة ^(١) ، وهو في أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْحَ هذِي الأرض ما تصنع أكلٌ حَيٌّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرَعهم حتى إذا ما أَتوا عادتْ لهم تَحْصِد ما تزرع
وقوله :

مَنْ كان حين تُصِيب الشمسُ جَبْهته أو الغبارُ يخافُ الشَّيْنِ والشَّعْثَا
ويألفُ الظِّلَّ كي تَبْقَى بَشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جَدَثاً ^(٢)
وفي تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ (٢) المجلد : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين^(١) الداربي القائل :

وُسِّمْتُ مِسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةٍ وَإِنِّي لِمُسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد في كتب
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قُدِّرَ له ، وأن الله لا بد أن يكشف
غمته :

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَكْرَهَهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَيْسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرُ ضَاحِكًا وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ
أَعِيفٌ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدَى تَجْمُلًا وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعِفُّ لَدَى الْعُسْرِ
وَإِنِّي لَا أَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَنَّ يَعْلَمُوا فَقَرَى
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ وَمَنْ يَغْنَى لَا يَعْدَمُ بِلَاءٌ مِنَ الدَّهْرِ
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْمَجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
وله أشعار طريفة في الغيرة^(٢) وأن على الزوج أن لا يبالغ في آتاهم زوجته ،
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية
القبلية في فخره بخصاله ؛ وقد مر بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمته
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،
لأنما كان متأثراً متأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشارات
بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (سأى) المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .

(٢) ٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٥٢٩/١ ، والخزانة ١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمالى المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .

أبو الأسود الدؤلي^(١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعل بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشييعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقياً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فاذعُ الإله وأحسنِ الأعمالِ
فليعطينك ما أراد بقدره فهو اللطيف لما أراد فعلاً
ودع العباد ولا تكن بطلابهم لهجاً تضعضُعُ للعباد سؤالا^(٢)
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوالِ
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشي في مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألتِ ذلوك في الدلاءِ
تَجِثْكِ بملثها يوماً ويوماً تجِثْكِ بِحَمَاةٍ وقليلِ ماء^(٣)
ولا تقعد على كسلٍ تَمْنَى تحيل على المقادر والقضاءِ

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل ببغداد .

(٢) تضعضُع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧٠ وأسد الغابة ٦٩/٣ والإصابة ٣٠٤/٣ والخزانة ١٣٦/١ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجوزي ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغى من الربط بين العلم الدينى والعمل ، فالعلم
إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد
ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ
ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر
الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرء ما لا ثم يُخرمهُ عما قليل فيلقى الذلَّ والحرباً^(١)
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفتورَ والسلبا
وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول
الأول هو الصحيح .

سابق^(٢) البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان
قاضى الرقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز
يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف
والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون
لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرُ دائباً كأنك فى الدنيا لغيرك خازنٌ
ويقول :

أموالنا لدوى الميراث نجتمعها ودورنا لخراب الدهر نَبْنِها
والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامة منها ترك ما فيها

٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين
٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر

وكان لا يزال يكثّر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدّ العُدّة للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زایلَ روحه خَوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ أهلهُ
وقد كان فيه الروح حيناً يزيّنه وما الغمْدُ لولا نَصْلُهُ وحمائله
إذا الأرضُ خَفَّتْ بعد ثِقَلِ جبالِها وتخلّى سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحلهُ
فلا يرتجى عَوْناً على حَمَلِ وزره مُسِيءٌ وأولى الناس بالوزرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَعْدَى عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفعه فلا تَجْزعا مما قضى الله واضبراً

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته :
« لو أن شعر سابق البربري كان مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أترفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تفرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يَهْلك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبي مخجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي مخجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نخصي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أترفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصده بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها - هو قتيبة بن مسلم - اضطرّ حين وجد تفشي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، وقلنا نجدها في مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين هلموا من كنوسها في هذه البيئة لعهد معاوية ابن أُرطاة^(١) ، وعبثا حاول مروان بن الحكم وإلى المدينة أن يردّها عنها ، وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بَنَا كَمَا تَمِيلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانِ
ومنهم عبد الرحمن بن الحكم^(٢) الذي كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

(١) راجع في ابن أُرطاة الأغاني (طبع دار
(٢) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)
الكتب) ٢٤٢/٢ وما بعدها .
٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان
والتبين ٣/٣٤٨ .

ترى شاربَيْهَا حين يَغْتَوِرَانِهَا يَمِيلَانِ أحياناً ويعتدلان
ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة^(١) مَدَحَ الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمي الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتقٍ حُرِّمَ الْوَقُودَ كَرَامَةً كدم الذَّبِيحَ تَمْجُهُ أَوْ ذَا جُهُ^(٢)
ضمنَ الْكُرُومُ لَهُ أَوَائِلَ حَمْلِهِ وعلى الدُّنَانِ تَمَامُهُ وَنَتَاجُهُ^(٣)
ومثله ابن هَرَمَةَ^(٤) ، وكان مشغوقاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسْأَلُ اللهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِي وصياحَ الصَّبَّيَانِ يَا سَكْرَانُ
وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعثاً لهم
على المجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرة
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيْمٍ^(٥) بن وثيل الرياحي القيمي ،
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة لغالب
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافسه في نحر لإبله لقومه ،
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً تراجمه وتكثر من
مراجعته ، فقال :

تقول حذراء ليس فيك سوى الـ خَمْرُ معيبٌ يعيبُهُ أَحَدُ
فقلت: أَخْطَأْتُ بِلَ مُعَاقِرِي الـ خَمْرَ وَبَدَّلِي فِيهَا الَّذِي أَجْدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزانة
٢٠٣/١ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩
والإصابة ١٦٤/٣ والخزانة ١٢٣/١ والشعر
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزانة
٧٦/١ والبيان والتبيين ٣/٣٤٣ .

(٢) المعتق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق
في العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمل .

هو الثناء الذى سمعت به لا سبَدٌ مُخلدى ولا لَبَدٌ^(١)
ويحك لولا الخمور لم أخفيل الـ عيش ولا أن يَضْمَنِي لَحْدٌ^(٢)
هى الحيا والحياة واللّهو لا أنتِ ولا ثروة ولا وَلَدٌ
ويقف السرادق الذُّهلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف
عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه^(٣) . ويلقانا فى عهد زياد بن
أبيه حارثة^(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكف عنها ،
مهما أكثر لأموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ على الرَّاحِ من لو يذوقها لجنَّ بها حتى يغيبُ فى القبرِ
علامَ تذمُّ الرَّاحُ والرَّاحُ كاسمها تُريحُ الفتى من همِّه آخرَ الدهرِ
فلَمُنِي فَإِنَّ اللومَ فيها يزيدنى غراماً بها إن الملامة قد تُغري
وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى
وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته^(٥) . ولعل
عراقياً لم يشتهر بها كما اشتهر الأقيشر^(٦) الأسدى وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،
وفيها يقول :

أَفْنَى تِلادى وما جمعتُ من نَشَبٍ قَرَعُ القَوَاقيزِ أَفْوَاهَ الأَبَاريقِ^(٧)
ويقول :

كُمَيْتٌ إِذَا فُضَّتْ وَفَى الكَأْسِ وَرَدَةٌ لها فى عِظامِ الشاربين دبيبٌ

ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء
٧٥٦/٢ .

(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغانى (دار الكتب)
٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم
الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢٧٩/٢ والموشح
ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم . النشب : الفقار
والضياع . القواقيز : الكنوس وأوانى الخمر التى
تُشرب فيها .

(١) لا سبد ولا لبد : مثل أى لا قليل
ولا كثير .

(٢) اللحد : شق اللبت فى جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٦٧٠/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى)
١٣/٢١ وأمالى المرتضى ٣٨٠/١ وما بعدها

وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين
والطبرى .

(٥) انظر ترجمته فى الأغانى (ساسى)

٤٠/١٦ والخزانة ٤٨٥/٢ ومعجم الشعراء

ولإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المجون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويروى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكى . ومات الثاني فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء^(١). ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّـمـهـ رَدَل^(٢) بن شَرِيك، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يفرق فيها حزنه . ومنهم أبو جَلْدَةَ اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدَمِّنُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال^(٣) :

سَأْرَأَسُ فِي التَّقْوَى وَفِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْغَوَى الْمَشْهُرِ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحمام الراوية وحمام عَجْرَدَ وبجي بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المجون في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلقي على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون لإكباباً ، كما أكبَّ على نظم الحمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

٦٨٥ / ٢ / ١٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٢ / ٦٨٥

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) (٣) أغاني (دار الكتب) ١١ / ٢٣٠ .

الوليد^(١) بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغنيّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلامة القس وحبّابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّي سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبّ من كنوس المجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توازره اليمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجحور الماجن ، الذي كان ينتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارحة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتمائيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبري في سني ١٢٥ و ١٢٦ وكنابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا ننسى مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً^(١) ، وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان^(٢) . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشنيع على خلفاء بني أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والفنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر ، وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقّف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى^(٣) بن زيد العبادي ، وقد مضى ينمّيه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الحمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّمُ في مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجلد والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وكأنما تفجّر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الحمرية :

أَصْدَعُ نَجِيَّ الْهَمُومِ بِالطَّرَبِ وَانْعَمَ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانِهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقِيبِ

(٣) انظر الأغاني ٦٥/٧ .

(١) راجع الأغاني ٤٦/٧ وما بعدها ٧٢/٧ .

(٢) انظر الطبري ٥٥١/٥ .

أشهى إلى الشرب يومَ جَلَوْنَا من الفتاةِ الكريمةِ النَّسَبِ
فقد تجلّت ورقٌ جَوهرُها حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
كانها في زُجاجها قَبَسٌ تذكو ضياءً في عَيْنِ مُرتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقرا أيضاً هذه الحمزية :

علّاني واسقباني من شرابِ أضحى
من شراب الشيخ كسرى أو شرابِ القبروان
إن في الكأسِ لمنسكا أو بكفى من سقاني
أو لقد غودِرَ فيها حين صُبّت في الدنانِ
كلّاني توجّاني ويشغرى غنياني
إنما الكأسُ ربيعٌ يُتعاطى بالبَنانِ
وحُمياً الكأسُ دبّت بين رجلي ولساني

وهى تجرى أيضاً في نطاق الفرحة العميقة بالخمير ، بل لعلها أقوى
من سابقها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعها ، وهويتلظى
بنشوتها التى تسرى فى جسده من فَرَعه إلى قدمه . وهو بحق يُعدُّ رائد العباسيين
من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً
فقال أبو الفرج : « ولوليد فى ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فلمنه
سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستم الحمزية عنده وحدثها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى
يجعلها كاللهب المتدلّع فحسب ، فلما استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،
يحسن اللعب على أوتار العידان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره^(١) . ومن ثمّ اجتمع للخمرة عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل الهزج والرمل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقي إلى اكتشاف وزن المبحث ، فكان أول من نظم فيه^(٢) . وإذا صحت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم جمعة - وهي موعظة^(٣) طويلة - كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

أبو الهندي^(٤)

هو غالب بن عبد القدوس بن شيب بن ربيع الرياحي القمي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تباع فيه الخمر وتُفْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفّان وطبقته إنما اقتلدوا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقة منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع البة . إذ يقال إنه

(١) الأغاني ٢٧٤/٩ و ٣٢/٧ ، ٤٤ . (٤) انظر في ترجمته أغاني (سأ) ١٧٧/٢١

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن

المعتز (طبع دار المعارف) ص ٥٩ . (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(٣) الأغاني ٥٧/٧ .

شرب عند خمّار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشرّبوا وناموا
وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرّعون من الخمر ، فشرّب ،
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ،
يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سقّاتها ودنانها وأباريقها وزقاقها مثل قوله :

يَجُّ سُلَافًا مِنْ زِقَاقٍ كَأَنَّهَا شِيُوخُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظَهْرُهَا

وقوله :

وَإِذَا صُبَّتْ لَشَرْبٍ خِلَتِهَا حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ

وزراه يصف القيان اللائي يسمعن في أثناء شربها ، كما يصف من تصرّعهم
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته
حتى ليتّمنّى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزيله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا - إن متُّ يوماً - كَفْنِي وَرَقَ الْكَرِّمْ وَقَبْرِي مَعْصِرَةَ
وَأَدْفِنُونِي وَادْفِنُوا الرِّاحَ مَعِيَ واجعلوا الأقداحَ حول المقبرَةِ

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة
من حياته ، يصدّحُ بخمرياتِه ، ويتخذ الخمر وحي إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية
الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصدّرون عنها في أشعارهم ، فلم
يتروكوا كبيرة ولا صغيرة في صمّتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم
يصورون فلكواتها بكشّابها ورمالها وغُدّ رانها وغيشها وسيولها وخصبها وجندبها
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيورها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ، مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ، ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثرًا في ذهنه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ يناابيعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزينهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجريير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونهسِرْدُجَيْسِل وما يجري فيه من سفن ، موازنة يُعلّي فيها الطبيعة الأولى علوًّا كبيراً ، يقول (١) :

لَفَلَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا	أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ ^(٢)
وَرَا حِلَّةٍ قَدْ عَوَّدَنِي رَكُوبَهَا	وَمَا كُنْتُ رَكَّابًا لَهَا حِينَ تُرْحَلُ ^(٣)
قَوَائِمُهَا أَيْدَى الرِّجَالِ إِذَا انْتَحَتْ	وَتَحْمِلُ مَنْ فِيهَا قُعُودًا وَتَحْمِلُ ^(٤)
إِذَا مَا تَلَقَّتْهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا	لَهَا جُوجُؤٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكَلْكَلُ ^(٥)
إِذَا رَفَعُوا فِيهَا الشَّرَاعَ كَأَنَّهَا	قُلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمَرْدَلُ ^(٦)

وواضح أنه يُؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .
 (٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحصى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
 (٣) ترحل : تهبّ للرحيل .
 (٤) القوائم هنا : المهاذيف بأيدي الملاحين .
 (٥) الأواذي : الأمواج . الجوجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
 (٦) قلوّص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرِّجَّاز . أمثال رُوْبَة الذى يقول (١) :

إِنْ الرُّدَافِى وَالكَرِىُّ الْأَرْقَبَا يكفبك دَرَّةُ الْفَيْلِ حَتَّى تَرْكَبَا^(٢)
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَتَفَسَّحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج : يقول (٣) :

مستقبلين شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بحاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ^(٤)
على عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحُلُنَا على زَوَاحِفَ نَزْجِيهَا مُحَاسِرِ^(٥)
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صَوَّرَ فيها نَهْيَاتِ شَقِيَّهَا شَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ نَهْرِ الْفَرَاتِ ، وخاصة نَهِيرِ الْهَيْءِ ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطرَّد على هذا النمط (٦) :

شَقَقْتَ مِنَ الْفُرَاتِ مَبَارِكَاتٍ جَوَارِيَّ قَدْ بَلَغْنَ كَمَا تَرِيدُ
وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَكُنَّ خُرْسًا يَقْطُعُ فِي مَنَاكِبِهَا الْحَدِيدُ

(٤) شمال الشام : ريع شمالية . الحاصب :

ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج .

النديف : نثير الثلج والبرد .

(٥) نزجها : نسوقها وندفعها ، محاسير : كليلة .

(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

(١) الحيوان ٩٠/٧ .

(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى

يكرى دابته ويؤجرها . والأرقب : غليظ الرقبة .

دره الفيل : دفعه وكفه .

(٣) للديوان ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكراً هناك ، وسهل الجبل الصلود^(١)
 بها الزيتون في غللي ومالت عناقيد الكروم فهن سود^(٢)
 فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
 يعضون الأنامل أن رأوها بساتيناً يوازرها الحصيد^(٣)
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمله طلع نصيد^(٤)

وجريير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطيم ما يعترض من
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حفا بها من
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من
 كانوا يلهجون بالصيد وكلايه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن
 الرجزاء ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة
 يصفه^(٥) :

أجرّد كالبحسن طويل النابئ مشرف اللحي صغير الفقمين^(٦)
 عليه أذنان كفضل الثوبين

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي^(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة
 والصامته ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(٤) الطلع : ثمر النخل في إبانة . نصيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧٩/٧ .

(٦) الفقمان : اللحيان .

(٧) الحيوان ١١٤/٧ وما بعدها .

(١) الصلود : اليابس .

(٢) الفل : الماء الجاري تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعناب .

(٣) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها

كالقمح .

ذو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلَان بن عقبة من بني عدى بن عَبْد مَنَاة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله فى بعض شعره يصف الوتدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له معاذة فى جلد غليظ ، وعلقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التى شغفت قلبه حبَّاهى التى لقبت به بذلك حين ألمَّ بحبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء : هم مسعود وأوفى وهشام ، وفى بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر فى خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طَرْثوث بسبب بثر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة فى هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة : فلم يكرمهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً فى اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرثى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطلع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاًتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكامل للبهر وأمالى
المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر
الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارنى ديوانه
فى كبرىدج سنة ١٩١٩

(١) انظر فى ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥
وما بعدها والشعر والشعراء ١/٥٠٦ وأغانى
(سامى) ١٠٦/١٦ وابن خلكان فى غيلان
والموشع للمرزبانى ص ١٧٠ والخزائن ١/٥٠
ومرآة الجنان لليافعى ١/٢٥٣ وفهارس الأغانى

لهلال بين أحوز المازنى فى انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقى منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق فى سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزارى فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسرى منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبى بُردة الأشعرى الذى ولى شئون الشرطة لخالد فى البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولى منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفى الشاعر . وقد امتدت رحلاته فى طلب النوال إلى دمشق وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومى ، ولما ولى فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا فى بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذى كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة فى شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر فى رحلاته الصحراوية التيمم والقصر فى الصلاة وتلاوة آى الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين فى عصره ، حتى لنراه يعتنق مذهب القدرية فى العدل على الله جل جلاله وفى حرية الإرادة ، ويناقش رؤية فى ذلك ويعلو عليه فى نقاشه^(١) ، ومما صدر فيه عن مذهبه قوله فى الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَوْنَا فَكَانَتَا فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاءً حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغِفَ بشعر الراعى ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى
يتغناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق
وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبقيا فيه بقية . ومُلْهِمته الأولى
في الديوان مَيَّة بنت طُلُبَّة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ
من مثل قوله :

وقفتُ على رَنْعٍ لَمِيَّةٍ ناقتي فمازلتُ أبكي عنده وأخاطبه
وأُسقيهِ حتى كاد مما أبثُّهُ تكلمني أحجارُهُ وملاعبه (١)

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعداً كأنها النار تحبوثم تلتهب

وقوله :

أداراً بِحَزْوَى هِجَبٍ للعين عبرةً فمَاءُ الهوى يرفضُ أو يترقرقُ (٢)

وقوله :

أَجَلٌ عبرةٌ كادتُ لِغِرْفانٍ منزلٍ لَمِيَّةٍ لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبِخُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً
كان يطغى بها نيران الحب المتدلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحارباها
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها
ولياليها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعوه بالسقيا .

يسيل . يترقرق : يسكن في العين جائلاً .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطَنَوَى فيها من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلعب في
سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها
إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها
بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفر ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء يَنسكبُ

كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِئَةٍ سَرَبُ^(١)

فإنك ستراه يخلص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضي في نحو مائة
بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تبهج
نفسه ، أولها مشهد أثنى الوحش وحمارها ، وهو يقودها في يوم حارٍّ إلى ماء
بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غلَّتْها ، فيتعرض لها صائد
مخفف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً
تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور
الوحش في كِنَاسِه مكتناً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل وسواسه ،
وتفتلت أضواء الصباح فيخرج من كِنَاسِه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه
كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم
وصاحبته يريعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُ الجو ، فيسرعان إليها خيفة
أن يسقط عليها بَرْدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه
الرسامين الذين يَحْسِدُونَ في لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسِّم صورة
الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومغازاتها وأعشابها ونباتاتها وغدِّ رانها ،
وهو إلى ذلك يبيِّن في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس .
وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثل فيه البدوى
وإحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .
ولعل هذه أهم خاصية تميِّز وصف الحيوان الوحشي عند ذى الرمة إذ يحمله

البالية التي لا تنى ترسل الماء .

(١) الكل : الرقع في عروة المزادة . مفرية :
مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برقع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في ظبية وابنها أو خشفها :

إذا استودعته صمغصفاً أو صريمَةً تنحّت ونصّت جيدها بالمناظر^(١)
 حذاراً على وسنان يضرعه الكرى بكل مقيلٍ عن ضِعافٍ فواتر^(٢)
 وتهجره إلا اختلاسا نهارها وكم من محبٍّ رهبة العين هاجر
 حذار المنايا رهبةً أن يفتنّها به وهى إلا ذاك أضعف ناصر^(٣)

وواضح أنه صور محبة الطبيعة لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تدلّها عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبتّ في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان في النهار بالسرّاب ، فإذا ذُرى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل مُتهدّية للنَّحْر عند البيت الحرام ، أولعها سفن تجرى في القرات ، أما إذا جنّته الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثيل لما يجري في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كانّ بلادهن سماء ليلٍ تُكشّفُ عن كواكبها الغيومُ
 وقوله في ظباء أخرى :

كانّ أذمانها والشمسُ جانحةً ودُعُ بأرجائها فضٌّ ومنظوم^(٤)

وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كانّ مطايانا بكل مفازة قراقيرُ في صحراءٍ دجلةٌ تسبح^(٥)

(١) الصمغصف : الأرض المستوية . صريمة : (٣) يفتنها . يسبقها .

رملة . نصت : نصبت مستقصية . (٤) الأذمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٢) الكرى : النوم . المقيل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : السفن .

وفي الحق أن تخيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رؤى غريبة، وهي رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزاي رَشَّها الطَّلُّ بعدما دَنَا الليلُ حتَّى مَسَّها بالقَوادم^(١)
وقوله :

ألا طرقتُ مَيَّ هَيُوماً بذكرها وأيدى الثُّريَّا جُنُحٌ في المغارب^(٢)
ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العبدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جعل الحرباء يَغْبِرُ لونه ويخضرُ من لَفْحِ الهجيرِ غَبَاغِبُهُ^(٣)
وَيَشْبَحُ بالكَفَيْنِ شَبَحاً كأنه أخو فَجْرَةٍ عَالَى به الجذَعِ صالبه^(٤)
وعنى طويلاً بوصف همس الفلوات وما يُسْمَعُ في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، ونراه يشبها بترابن الروم وتَضْرِبُ الطَّبْلَ وصباح الضرائر وأصوات السمر^(٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صوره، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقاً في عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

٦

الرُّجَّاز

الرَّجَزُ من البحور القديمة في الشعر العربي، فقد كان يُسْتَعْتَدُّ بِكَثْرَةٍ في العصر الجاهلي، وهي كرة توكد أنه كان الوزن الشعبي العام الذي يدور على

- (١) القوادم : الريش الطويل في جناح الطائر.
(٢) الهيوم : ذاهب العقل، وأراد بأيدي
الثريا أوائلها.
(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك،
ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرياء
رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر.
(٤) يشبح : يمد يديه.
(٥) الحيوان ٦/١٧٥ وما بعدها، ٣٦٣، ٢٤٧.

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزحاف ، لا تلقانا في أي وزن آخر ، فكثّر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطْلُ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يحمدون بغير وحين يحولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أي عمل كحفر بئر أو مستنح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظم بدئية وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسُراها ، وهيأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقتراحه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب ^(١) العجلى ، ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى يتكاثّر من بحاكونه . وحتى يتقصّر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثرها منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد . وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجري

على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرّد الموضوعات المتنوعة . ومضت تترجمها حتى غلبتها في باب الصيد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشمرّدل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشمرّدل صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقّر والكلب أراجيز كثيرة ^(٢) » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٩٥/٢

ص ٥٧١ وما بعدها والموضح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزانة ٣٣٢/١ وأسد

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ٥٦/١ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابِهِ والليلُ لم يَأُوِ إلى مآبِهِ
وقد بدا أبلقَ من مُنْجابه بتوجيٍّ صاد في شبابه^(١)
مُعاودٍ قد ذلَّ في إصعابه قد خرَّق الضُّفَّارَ من جذابه^(٢)
وعرفَ الصوتَ الذي يُدعى بِهِ ولعةَ المُلَمَعِ في أثوابه^(٣)

وعلقنا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ^(٤)، وهو مثل الشمر دل كان يجمع بين الرجز والقصيد، ويقول ابن المعتز: «له في الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة... وأعاجيبه في القنص وغيره كثيرة» وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب. وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي، وسنعرض له عما قليل.

وعلقنا كثيراً ولا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْشُن^(٥) بن رجاء الفُقَيْسِيُّ ودكين^(٦) بن سعيد الدارمي، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت في معجمه، ومنهم الزَّفَّيَّان^(٧) السعدي التيمي، وأبرزهم جميعاً العَجَّاج وابنه رُوْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، ونقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية، فلم يعد يُقَصَّد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها، بل أصبح يُقَصَّد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم، ولكنه لم يُبْعَد في الإغراب إبعادهما.

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٧/٥.

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١٥ وابن عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وانظر الهامش.

(٧) راجع معجم المرزبان ص ١٤٩ وقد نشر الوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب، الجزء الثاني.

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس.

(٢) خرَّق: شق. الضُّفَّار: الحبل يشد به.

(٣) الملمع: المشير بثوبه.

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٣/٢.

والأغاني (سامي) ١٣٩/١٨ والخزافة ٧٨/١.

طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف).

ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩.

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطَّرمَّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضَّبْعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب ^(١) . وهو اتجاه تعليمي نظن أننا أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُوْبَة يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما يحقّ يُعَدَّ أن أهم من هَيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال ^(٢) .

أبو النجم ^(٣) العِجْلِيّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاكة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفَيْرُك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول ^(٤) :

أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدَ زِيَادٍ كَالْخَرْفِ نَخِطُ رِجْلَايَ بِخَطِّ مُخْتَلَفٍ
تَكْتَبَانِ فِي الطَّرِيقِ لَمْ آلَفْ

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجْمَع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢
وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزانة
٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها
ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)

٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب
المكائنة عند المذاكرة للطحايسى (قصر
جاير) ص ٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر
العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبْقُونَ فِي مَوْضِعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْجَاهِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ
ابن سلام : إِنَّهُ أَبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأَمَّا أَرَجِيزُهُ لَأَمِيَّتِهِ الَّتِي يَسْتَهْلِكُهَا
بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلْ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضٌ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمِرَاعِيهَا ، وَكَانَ
رُؤْيَا يَسْمِيهَا أُمُّ الرِّجْزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَلِعَجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَاجَ غَدَا عَلَى
النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةُ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجِبَرَ (٢) » وَقَدْ
ضَمَّنَهَا هَجَاءٌ لِرَبِيعَةٍ ، فَاسْتَعْدْتُ عَلَيْهِ رَاجِزَهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ
« تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَثْنَى وَشَيْطَانِي
ذَكَرَ » تَعَلَّقَ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ
أَرَجِيزِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهْوَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشَرَ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِكُهَا
بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَازِلَاتٍ بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَيْشٍ وَحَبَارِيَاتٍ وَإِنْ أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)
جَاءَ مُطِيعًا لِمَطَاوِعَاتٍ عَلَّمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتٍ
فَهِيَ ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتٍ تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطَطَاتٍ
سَوْدًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتٍ تَلْوِي بِأَذْنَابٍ مَوْقِفَاتٍ

وَكَثِيرٌ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُبْعَدُ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضُهُ مِنْ
بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْهُورِ رَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى
التَّنَدُّرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةً » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نُشِرَ هَذِهِ اللَّامِيَّةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمِصْنِيُّ فِي
« الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبَعَ لَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ
(٢) جَبَرَ الثَّانِيَةَ بِمَعْنَى الْفَجَرَ .
(٣) حَبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ حَبَارَى وَهُوَ طَائِرٌ .
(٤) الْخَصَائِصُ ٢٣٠/١ .
وَالنَّشْرُ ص ٥٥ .

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةٍ قَلْبًا حُرًّا بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحِمَاةِ شَرًّا
لَا تَسْأَلُ ضَرْبًا لَهَا وَجْرًا حَتَّى تَرَى حُلُوقَ الْحَيَاةِ مُرًّا
وَلِنْ كَسْتَلِكِ ذَهَبًا وَدُرًّا وَالْحَيِّ عُمَيْهِمْ بَشَرٌ طُرًّا

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له
في مجالسهم ويجزلون له العطاء .

العَجَّاج^(١)

هو عبد الله بن رُوْبَة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائم
الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخَّر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في
مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه في خصوصتهم للأزد عقب
وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه
ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى
صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان وإلى العراق وأخاه عبد العزيز وإلى
مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي فُدَيْك زعيم
النَّجْدَات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن
الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من
خصومات قبلية ، ومرَّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه
أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسُئِلَ في ذلك فقال : هل في الأرض
صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى
بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثبانها ونباتاتها
وحيواتها الوحشية والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطير وفي

٧/ ٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن
جنى والمزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) وقد نشر الوارد
ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٥٧٢/٢
والموشح للمزباني ص ٢١٥ وما بعدها وشرح
شواهد المغني ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدُّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ما تخوض فيه التصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعتمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد بصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البردجما » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التف أو تسبجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي ، فعربه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١) .

ونراه يلتزم في أرجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروي في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ، وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة (٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلَّتْ بإذنه السماء واطمأنَّتْ

وقد تحدَّثَ فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد توفي سنة ٩٧ للهجرة . وتُنسَبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) انظر الأغاني (طبع ساسي) ١٨/٦٠

عالية ، ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،
من مثل قوله :

إِذَا تَرِينِي أَصِلُ الْقُعَادَا وَأَتَقِي - أَنْ أَنْهَضَ - الْإِرْعَادَا^(١)
مَنْ أَنْ تَبْدَلْتُ بِآدِي آدَا لَمْ يَكْ يَنَادَ فَأَمْسَى اِنْآدَا^(٢)
وَقَصَبَا حُتَّى حَتَّى كَادَا يَعُودُ بَعْدَ أَغْظَمَ أَعْوَادَا^(٣)

والجناس واضح في البيت الثاني ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعْنَى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في الآد وانآد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن فاته في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْيَا^(٤)

سَمَّاهُ أَبُوهُ الْعَجَاجُ بِاسْمِ جَدِّهِ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ حَوْلَى عَامِ ٦٥ لِلْهَجْرَةِ ،
وَيُظْهِرُ أَنَّهُ عُنِيَ بِهِ مِنْذُ صَغُرِهِ ، وَأَنَّهُ مَا زَالَ بِهِ حَتَّى اسْتَيْقِظَتْ شَاعِرِيَّتُهُ مُبَكَّرَةً ،
إِذْ نَرَاهُ يَفْدُ مَعَهُ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (٨٦ - ٩٦ هـ) ، وَنَرَاهُ فِي رَفَقَةِ
الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ حَجَّوْا مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ^(٥) . وَيُظْهِرُ
أَنَّهُ كَانَ يُولَعُ بِالرَّحْلَةِ مِنْذُ شَبَابِهِ إِلَى الشَّرْقِ ، فَيَنْزِلُ تَارَةً السَّنَدَ وَتَارَةً خِرَاسَانَ .

١٨/١٢٤ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخزانة

١/٤٣ ومعجم الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان

وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤

والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابتنا

« التطور والتجديد في الشعر الأموي » ص ٣٤٠ .

وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث

من مجموع أشعار العرب .

(٥) طبري ٥/٣٠٥ .

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيدي . انآد : اعوج وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذي مخ . حتى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر في ترجمة رؤْيَا الشعر والشعراء ٢/٥٧٥ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغاني (سأى)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق بمدحهم ، بمدح أولاً مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترأ في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى بمدح هريم بن أبي طحمة المجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مديح خالد القسري وولاته وفي مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة ، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خالد على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شتون الخراج ثم وإلى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمرو بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ في هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذّره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح . وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمئة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرّ بنا أنه كان جَبَرِيًّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القَدَرِيّ على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتألّه . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحول به يَرْضَى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيثاتها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحول معينا لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثمّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقاً ، زوائد من تغيير فى الحركات أو لإعلال فى الحروف أو لإتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُخْتَرَقِ مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الخَفَقِ^(١)

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتيان . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيـلـ بفتح العين فى قوله : « ما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد^(٢) . وقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُحْسَبُ السَّدوسُ يَسْتَسْمَعُ السَّارَى به الجُرُوسُ^(٣)
هَمَاهِمًا يَسْمَهَنُ أَوْ رَسِيْسًا علوتُ حين يخضع الرُّعُوسُ^(٤)
قَرَعُ يدِ اللَّعَابَةِ الطَّسِيْسِ^(٥)

فلأنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والريسيس والرُعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلاثم بين الروى

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس :

الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) هماهم : جمع عهمة وهى الصوت الخفى ،
الريسيس : الحديث غير البين . الرُعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

(١) يتحدث رؤية عن فلاة . قاتم : أسود ،

أعماق المغارة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبا . خواؤه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .

(٢) راجع الخصائص ٢/٢١٤ ، وسيبويه

٢/٢٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى .

العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعَكِّسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر في سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يُكْثِر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفرع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنُون بإدخال الغريب من مثل الطَّرِمَاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم^(١) . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتمس النحويّ فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكأنهم وجدوا في وفرة موسيقاها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والخمس . ونرى الأندلسيين حين يبتكرون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يتبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشاداته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوجَّ هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وما لا شك فيه أنهم يتخلَّفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعواملٌ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَرُّ لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقَصَّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بني هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجّون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجّون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنّسجديات والصفّرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقّة مداخله في حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوقّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ نائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوقّى معاوية ، فمكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكرّ بلَاء دون غايته . ويتوقّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرْد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرّد له مصعب بن الزبير : فيَقْضَى عليه قضاء مبرماً . ونمضي إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقصر على قريش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يَصِلون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الحديد . وندخل في عصر بني أمية ، فتمتحوّل هذه الوفود إلى سيول ، تنقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شؤون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تتعّين له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بثّ شكواها حين يلمّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهئة والتعزية . وكانوا يُسمّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدرون عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأبّان ركّزَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسّهم في ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني . وكانوا يستهوون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزايد في هذه الأخبار تزييداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم^(١) ، فراضين لهم رواتب ومكافآت شهرية^(٢) . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصّاص كانوا ينبشون في الجيوش لتحسيس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتّاب بن ورقاء حين نازل شيبباً الخارجي يقصُّ على جنده محمّساً لهم^(٣) كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور^(٤) . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قصّاصهم صالح بن مسرّح الصُفْرى ،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص

(٣) طبرى ٨٩/٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢٧٣/٣ .

٣٠٤ وخطط المقرئ (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

وفي الطبري طَرَف من قصصه^(١) ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهْم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان^(٢) .

وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشب في مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخير في الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجبَّرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة عقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُق الخطابة رُقياً بعيداً .

(١) طبري ٥٠/٥ .

(٢) طبري ٣/٦ وما بعدها .

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة ولزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنة سهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم : ولم يدعوا لها سرّاً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتخرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم ^(١) .

(١) البيان والتبيين ٢٤٣/١ وما بعدها

و ٣٦٤/٢ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمي والمستورد بن عُلَقة لعهد المغيرة بن شعبة في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرَّ بنا — إلى أزارقة ونسجديات وصُفْريَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بني أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحدثم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا في خطبائهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامي على الموت ترامي الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، لأنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه ^(١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجبر ، وهو على الكافرين عقوبة وحزى » . وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطله ، وهم المؤمنون حقاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتلى غيرهم ففي النار ، وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتاعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطَرِيّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستهلها على هذا النمط ^(٢) :

« أما بعد فإني أحثُّكم الدنيا فإنها حلوة خَصِرَة ^(١) ، حُفَّتْ بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْرَة ^(٢) ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سَرَّائها بطناً ، إلا منحت من ضَرَّائها ظهراً ، ولم تَطْلُله غِيبَة ^(٣) رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَة ^(٤) بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوب واحلولى ^(٥) أمر عليه منها جانب وأووي ^(٦) ، وإن آتت امرءاً من غضارتها ^(٧) ورفاها نِعَمًا أرهفته من نوائها نِقَمًا ، ولم يُمَسَّ امرؤ منها في جَنَاح أَمْنٍ إلا أصبح منها على قَوَادِم ^(٨) خوف ، غَرَارَة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . ومن أشهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَة بن هلال اليَشْكُرى وزيد بن جُنْدَب الإيادى وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفْرى عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرَّح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خرَّج على الحجاج ، وقُتِل ، فخلفه شبيب الذى دوَّخ جيوش الحجاج طويلاً ، ومن قول صالح فى بعض مواعظه ^(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهدة فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة فى الدنيا ترغَّب العبد فيما عند الله وتفرَّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

(١) خصرة : ناضرة .

(٢) حبرة : سرور .

(٣) الطل : المطر القليل . الغيبة : المطرة القليلة .

(٤) الهطل : المطر الكثير . المزنه : السحابة

(٥) القوادم : الريش فى مقدم جناح الطائر .

(٦) أووي : صار حلواً .

(٧) الغضارة : النضارة والخصب .

(٨) تاريخ الطبرى ٥٠/٥ .

(٩) المطرة .

يَجْأَرُ^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ لَهُمْ كُفْرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وإن حبَّ المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظالمة كما يقول ، حادثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطرمّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء السجّادات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضية الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة^(٢) ، وهو يستهلها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون^(٣) في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثَقِيلَةٌ عن

(١) يجأَرُ : يضرع ويستغيث .

والأغاني ١٠٤/٢٠ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهول .

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤

الباطل أرجلهم، أنضَاء^(١) عبادة وأطلاح^(٢) سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شقيق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه. موصول كلالهم^(٣) بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار. حتى إذا رأوا السهام قد فوّت^(٤) والرماح قد أشرعت^(٥) والسيوف قد انتضيت^(٦)، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، ومضى الشباب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاء على عنق فرسه، وتخصبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن مِعَصَمِهَا طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعدوبتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يوم أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتندور هذه الأفكار دائماً في خطاباتهم وخطابة أئمتهم، على نحو ما نجا عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

(١) أنضاء : مهزولون .

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرى .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

(٢) أطلاح : مكبودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له ^(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَى الله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقتلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفى يزيد بن معاوية فيجتمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد فى إحدى خطبه ^(٢) :

« قتل فينا ولدينا ولدُ نبينا وسلالته وعصارتة وبضعة ^(٣) من لحمه ودمه . . اتخذوه الفاسقون غرضاً للنّبل . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(٤) والأبناء حتى يَرْضَى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتلته أو تبّيروا ^(٥) » .

وكان من زعماء التّوابين معه عبيد الله بن عبد الله المُرّى ، وكان خطيباً لا يبارى ، فضى يعظ الناس ويحرّضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله ^(٦) :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقّاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذرّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقّاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترّم ^(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم ^(٨) إياه بالدم وتجراهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٣٠٣/٤ .

(٥) تبّيروا : تهلّكوا .

(٢) طبرى ٤٢٨/٤ .

(٦) طبرى ٤٣٣/٤ .

(٣) بضعة : قطعة .

(٧) اجترّم : اقترف وارتكب .

(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .

(٨) ترميلهم : من رملة إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وحذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . . إلا أن ينصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العثرة . . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين . .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكَّلَ بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقَّاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ماذهبتا إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعهده وصيه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً^(١) وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشىها بالآيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله^(٢) :

« أما وربُّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه^(٣) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كلَّ جبار ، بكلِّ لئدٍ خطَّار^(٤) ، ومهندٍ بتَّار^(٥) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميلٍ أغمار^(٦) ، ولا بُعْزَل^(٧) أشرار ، حتى إذا أقمْتُ عمود الدين ورأيتُ شَعْبَ^(٨) صدَّع المسلمين ، وشفيت

(١) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،

الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٢) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

(٣) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

(٤) الملل والنحل ص ١٠٩ .

(٥) طبرى ٤/ ٤٥٠ .

(٦) المهامه : الفياق .

(٧) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٨) المهنت : السيف ، البتار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردُّها خطباء الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتلهم الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صَوْحَان : صَعَصَعَة وزيد وسَيْحَان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المحاضرات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي محاضرات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المحاضرات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقته ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقته وحدة ذكائه (١) ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول (٢) :

« إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَابْنُ عَمِّهِ (٣) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنْ أَلَّهِ لَأَنْمُوتَ حَتَّى أَنْفَا (٤) ، وَلَكِنْ قَمَعُصاً (٥) بِالرَّمَاخِ وَمَوْتاً تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ،

وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة

٢١٣/٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قمصاً : موتاً سريعاً .

(١) طبري ٤٣٧/٤ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤١٢/٤ وعيون الأخبار

٤٢٠/٢ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل

وعنه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبید ملكه ، فإن تُقبِل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشير^(١) البَطير ، وإن تُدَبّر عني لم أبلك عليها بكاء الخَرِق المهين^(٢) .
ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة^(٣) ، ولأُمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة^(٤) طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطبته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مدبرها مفوهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شيبث بن رُبَيع . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعتة . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تنناثر خطبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسَف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالقسوة ، حتى لرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والدليم^(٥) .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأشتر: البطر .

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد

(٤) طبرى ٥/٣٠ .

(٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال (١) :

رَكُوبُ المناير وثَّابها - مَعْنٌ بخطبته مَجْهَرُ (٢)
تَرِيحٌ إليه هَوَادَى الكلام - إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْدَرُ (٣)

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسمٌ مواعظٌ وترغيبٌ وترهيبٌ ، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة (٤) . وهو في القسم الثاني ينفّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ (٥) ، وقد اتهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كُتّاب الوحي وأنه من جِلَّة الصحابة . وتتردد في خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه (٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّم يداه على شاكلة قوله في كلمة له (٧) :

« أيها الناس! إنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثاً وَلَنْ تُتْرَكُوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحْكَمُ الله نبيكم فيه ، فعقاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحُرِمَ الجنة التي عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غدأ لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بباقي ، ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقيون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولي الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) من: تعنله الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .
(٣) تريح : ترجع . هوادى الكلام :
أوائله .
(٤) المقدم الفريد ٤/٨١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢٤٦/٢ .
(٦) العقد الفريد ٤/١٠١ والأمالى ١/١٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢٤٦/٢ .

بدیعة^(١) یصور فیها سیاسته ودستوره فی الحکم معلناً أنه إن وفی بما عاهد علیه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن یخلعوه ، ویقول إنه لا طاعة لمخلوق فی معصية الخالق .

وكان ولاية بنی أمیة وقوادهم لا یزالون یتوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبی سفیان والی مصر وعند ولاية العراق من أمثال زیاد والحجاج وخالد القسری ، وكانوا یضیفون إلى ذلك وعیداً وتهدیداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم یبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خیر ما یمثل ذلك خطبته فی الكوفة حین قدم على العراق والیاً من قبل عبد الملك ، وفیها یقول^(٢) :

« إنی لأرى رعوساً قد أبینعت وحانَ قِطافها ، وإنی لصاحبها ، وإنی لأنظر إلى الدماء تفرقُ بین العمام واللّحی . إنی والله یا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوی الأخلاق ما أغمَزَ تَغْمَازَ التَّینِ ولا یُفْعَقُ لى بالشَّنان^(٣) ، ولقد فِرَرْتُ^(٤) عن ذكاء وفُتِّشْتُ عن تجربة . إن أمیر المؤمنین کتبَ کِینانته^(٥) ثم عَجِمَ^(٦) عیدانها ، فوجدنی أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهنی إلیکم ، فإنکم طالما أَوْضَعْتُمْ^(٧) فی الفتن واضطجعتم فی مراقد الضلال وسَنَنْتُمْ سُنَنَ الغی . أما والله لألْحُوَنَّکُمْ^(٨) لَحْوَ العصا ولأضربنکم ضربَ غرائب الإبل^(٩) .. أما والله لتستقیمنَّ على طریق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منکم شُغْلاً فی جسده . »

وهو یفتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغریب ، حتی يأخذ على سامعیه أنفاسهم . وقد زحرت خطبته بأسلوب تصویری قوی ، وهو یُعَدُّ فی الذروة من أهل الخطابة والبیان فی العصر ، حتی لیوضع مع زیاد بن أبیه فی طبقة واحدة ، وإن فضله زیاد بحلاوة منطقته ، فقد كان یمتاز ببجالة اللفظ وفخامته ،

- | | |
|---|---|
| (١) البیان والتبیین ١٤١/٢ . | (٤) فررت : اختبرت . |
| (٢) البیان والتبیین ٣٠٧/٢ وعیون الأخبار ٢٤٤/٢ . | (٥) الکنافة : جعبة السهام . |
| (٣) القعقة : التحریک ، الشنان : جمع شن وهو القرية البالية كانوا یحرقونها إذا استحثوا الإبل للمسير . مثل یضرب لمن یروعه ما لا حقيقة له . | (٦) عجم : اختبر . |
| | (٧) أوضع : أسرع فی سیره أو ساربین القوم . |
| | (٨) لحا العصا : قشرها . |
| | (٩) قال الجاحظ : تضرب عند الهرب وعند الخلاط على الحوض إذ تختلط بغیرها فتضرب وتبعد . |

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُروى أن الحسن البصري كان يقول عنه إنه « يعظُ عظة الأزارقة وَيَبْطِشُ بَطْشَ الْجَبَّارِينَ »^(١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغنى غنىاً فأجتنبه ولا تَكِلْنِي إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً »^(٢) .

وكان خالد القسري خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة يحث فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَنْ يَنْقُضُ حَبْلَ الْجَمَاعَةِ . وأكثر في خطب أُلْجِمِعَ من المواعظ ، حتى سُمِّيَ خطيبَ الله^(٣) ، ويُروى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جراحة على ثوبه ، فقال^(٤) :

« سبحانَ مَنْ الجراحةُ مِنْ خلقه ، أدْمَجَ قَوَائِمَهَا ، وَطَوَّقَهَا جَنَاحَهَا ، وَوَشَّى جُلْدَهَا ، وَسَلَّطَهَا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة واثارين مختلفين حاربوا بني أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقاتلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرّة : « يا أهل الشام أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعْزِزُوا به نَصْرَ إِمَامِهِمْ »^(٥) وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ولأنهم إن قدروا عليكم فَتَنُوكُمْ في دينكم وسفكوا دماءكم »^(٦) . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آي الذكر الحكيم ما يُشْعِلُ حماسهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

(٥) طبري ٤/٣٧٥ .

(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد

٤/١١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .

ويذكر جندوة شجاعهم وبسالهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتبية بن مسلم الباهلي وقد تهاى لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول ^(١) :

« وعَدَ الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليُظْهِرَه على الدين كله ولو كَرِهَ المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مَحْصَصَةٌ في سبيل الله ولا يَـطْـئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفارَ ولا يَنالون من عدوٍّ نِـيْلاً) إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يَنفَقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَنقُطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم لِيَجْزِيَهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عن قُتْل في سبيله أنه حتى مرزوق فقال : (ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون) فتَنَجَّزوا موعود ربكم » .

واشتهر في خراسان بعد قتبية غير قائد بالخطابة مثل أسد القسرى ونصر ابن سيار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة ^(٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورقى .

زياد ^(٣) بن أبيه

وُلد في عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّةَ جارية فارسية كانت للحارث بن كندة الثقفى المشهور بطبته ، ويقال إنه زوجها ثقفياً يسمى عُبَيْدًا ، ومن ثم كان يسمى في بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً رومياً ، ولم يكن ثقفياً ،

٢٥٩/١ والأغاني (طبعة السامى) ٣/١٦

وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ وألعد الفريد
٤/٥ (راجع الفهرس) ومروج الذهب
للمسعودى (طبعة مصر) ٥٥/٢ والطبرى في
مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية
لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبرى ٥ ٢١٤/

(٢) انظر نفع الطيب ١١٢/١

(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه
طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٧٠ وأسد الغابة
٢/٢١٥ والمعارف لابن قتبية (طبعة جوتنجن)
ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى

وما نتقدم معه إلى عهد عمر : حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعيًا أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدته . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسّمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيُعجب بكائه ولأسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفتني . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك ^(١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر والياً كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعليّ وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها . وأنابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حُنُكَةً ، ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشّعَثَ ورأب الصدّع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعده من نصره ومنّاه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصدفت له فارس فلم يلق فيها جثّةً معاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان ^(٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة ^(٣) » . ولما قُتِلَ عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطّف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبَةَ الثقفي ، ذا كرام ما بينهما من الرّحم . وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٦٠ .

(٢) طبري ٤/ ١٠٥ .

(٣) طبري ٤/ ١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونّه . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة . فأظهر من الخزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والخناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعه وقصّته مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصرف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كلامه صوغاً تَهشُّ له الأسماع وتُصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشَّعْبِي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً^(١) » . وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواظف الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبستراء^(٢) ، سُميت بذلك لأنها لم تبتدىء بالتحميد والتمجيد^(٣) ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمناً بعد أن عاث فيها الفسّاق واللصوص واضطرب حبْلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رَسَمَ الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ١١٠/٤ .

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ .

(٢) افظرها في البيان والتبيين ٦٢/٢ وعيون (٣) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٦٢/٢ .

« أما بعد فإن الجاهالة الجهلاء^(١) والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينشأ^(٢) عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرم^(٣) الذى لا يزول . أتكونون كمن طرقت^(٤) عينيه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله وهذه المواخير^(٥) المنصوبة والضعيفة المسلوكة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواية عن دلج^(٦) الليل وغارة النهار؟! قرّبتم القرابة وبعادتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنّع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلما ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرّم الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهل خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترئون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإنى أقسم بالله لاأخذنّ الولي بالمولى^(٧) والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : (انج سعيّد فقد هلك سعيّد) أو تستقيم لي قناتكم . . من ثقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . . وإياى ودعوى^(٨) الجاهلية فإنى لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكّد كما تقول ليلة ليلاء . الريبة .

(٢) ينشأ : ينفر . (٦) الداج : السير في الليل .

(٣) السرم : الدائم . (٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٤) طرف عينه : أصابها شيء فدمعت . (٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياتيم مثلاً ، إثارة

(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفّوا عن أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن^(١) جعلتها دبّر^(٢) أذنّي وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضي لم أكشف له قيناعاً ولم أهتك له سترأ ، حتى يبدى لي صفحته^(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعو^(٤) على أنفسكم ، فربّ مسوءٍ بقدومنا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه موادّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّ دسيفه لقتل من لا يترعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تتبّيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يستسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليّن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولائه ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودعنكم بفسى^(٥) الله الذي خولّنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحنة ، وهي الحقود الضغينة . (٤) أرعو : أبقوا وأرفقوا .

(٢) دبّر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) الفىء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .

فَمَا أَحْبَبْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ فِيمَا وَلَّيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفَيْسَنَّا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا .. وَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّالِحِ لَا تُتَكِمُ فِلَانِهِمْ سَاسَتِكُمْ الْمُؤَدَّبُونَ وَكَهْفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوِنُونَ ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْشِرُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضْضِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَدُنْكَ غِيظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ حَزَنُكُمْ ، وَلَا تَدْرِكُوا بِهِ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَيِّنَ كَلَاءً عَلَى كُلِّ . وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أُنفَذَ فِيكُمْ الْأَمْرَ فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ ^(١) ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةً ، فَلْيَحْذَرْ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَايَ » .

وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهي المعروفة عند الفرس ، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قِبَلِ رَبِّهِمْ ، وفي ذلك دلالة واضحة على تأثير الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوح لسامعيه بما في يد الدولة من أموال الخراج وغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَشْرًا ، ولا يلبث أن يهدد من تحدّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته في الحكم من جميع أطرافهما . وهي مقسّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وكل لفظة تقع في مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توغر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته في الجمع والأعياد يعتمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو فيه يُبْدِعُ ، كما يبدع في خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهي تطرّد على هذا السياق ^(٢) :

« إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِعِبَادِهِ عَقُولًا عَاقِبَهُمْ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَأَثَابَهُمْ بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ ، فَالْنَّاسُ بَيْنَ مُحْسِنٍ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَمُسِيءٍ بِخُذْلَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ . وَلِلَّهِ النِّعْمَةُ عَلَى الْمُحْسِنِ وَالْحِجَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ . فَمَا أَوَّلِي مَنْ تَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ فِي نَفْسِهِ وَرَأَى الْعِبْرَةَ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَضَعَ الدُّنْيَا بَحِثَ وَضَعَهَا اللَّهُ ، فَيُعْطَى مَا عَلَيْهِ مِنْهَا وَلَا يَتَكَشَّرُ

(١) اذلاله : وجوه .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجلَّ ، فأخذَ رَحمَ الله الذي حذَرَكم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المخاض

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يتقدّمون على ملوكهم وأمراءهم ، فيخطبون بين أيديهم مُشَنِّين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . وزيارهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحو أبوابهم للعرب ، كي يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تُمَثِّلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدِقون عليها إغداقاً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تبعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظلامتها لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضَيِّقُ عليها من نواله الغنم ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنوّون سُنَّتَهُ . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنشد شاعر ولم يخطب خطيب (١) ،

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سَلَف من منطقته ^(١) » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عبيّاش العبّسي ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ^(٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شبيعة ، ومَصْقَلَة بن رَقَبَة ورقبة بن مصقلة وكَرْب بن مصقلة ^(٣) ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ^(٤) ويقابل آل رَقَبَة وصُوحان في بني عبد القيس آل الأَهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأَهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات ^(٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شَيْبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله ^(٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألنّوى ^(٧) بي الليل فقُبِضَ البصر وعُفّي الأثر أقام بدني وسافر أُملي ، والنفس تلوّم والاجتهاد يَعتذر ، وإذ قد بلغتك فقَطَنتي ^(٨) » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضي خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنْ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطابهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ٣٥٥/١ .

(٦) البيان والتبيين ٧٥/٢ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطنى : يكفى .

(١) البيان والتبيين ٣٣٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٩٦/١ .

(٣) نفس المصدر ٩٧/١ .

(٤) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .

البيعة لابنه يزيد^(١) ، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العتري في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد^(٢) . ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية ، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخلف والناس مجموعون على بابه يتهيبون القول ، فقال^(٣) :

« يا أمير المؤمنين أجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبر له على ما رُزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووهبت جزيلاً . . »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء . وتلقانا من هذا التأبين المزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات المماثلة . ومن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان ، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر ، وكان الحجاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه . وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم^(٤) ، ولم يكثر الوعاظ على باب كثيرهم على باب عمر بن عبد العزيز^(٥) ، منهم خالد بن صفوان وعبد^(٦) الله بن الأهم ومحمد^(٧) بن كعب القرظى . وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن^(٨) صفوان فى مجالسه ، ولما فسر الكمييت من سجن خالد القسرى وضافت به الأرض بما رحبت لجأ إلى ساحته متوسلاً ببعض أهله ، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة^(٩) يستنزل بها عطفه عليه ، فرق له وعفا عنه .

- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ . |
| (٢) ٢١٠/٢ والمقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمالى | (٧) نفس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣ ، |
| (٣) ٧٣/٢ ، ١٧٧/٣ . | ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ . |
| (٤) البيان والتبيين ١/٤٨ . | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار |
| (٥) ٤٩/١ . | ٣٤١/٢ . |
| (٦) ١٣٥/٣ . | (٩) أغانى (سالى) ١٥/١١٣ . |
| (٧) ٧/١ . | |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يقدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة^(١) . وَمَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخَّطه ببعض قوله^(٢) ، وكان قواده لا يَنْتُون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن معبدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة^(٣) .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم فى المصاهرات^(٤) وفى إصلاح ذات البين^(٥) . وهناك خطب تأخذ شكل المناشرات القديمة ، وهى تلك التى يقال إنها حدثت بين بعض بنى هاشم وعمر بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعفناها ، ورجَّحنا انتحالها ، ومثلها ما يُروى فى بعض كتب الأدب من خصومة أبى الأسود الدؤلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر فى هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنف^(٦) بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بنى سعد إحدى عشائر تميم لقَّب بالأحنف لحنف^(٧) كان فى رجله جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنُكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولائها فى وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال فى مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/ ١٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع

دار الكتب) ١٤/ ٢٨٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٤٠٤ ، ٧٣/ ٤ وعيون

الأخبار ٧٢/ ٤ والمقد الفريد ٤/ ١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ١٠٥ ، ١٧٣ ،

١٣٥/ ٢ .

(٦) انظر فى الأحنف طبقات ابن سعد

ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩

والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/ ٤٦ ووفيات

الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى

(راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : الاوجاج فى الرجل .

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقته إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ : « نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتفتٌ في بَيت^(١) له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تبعق^(٢) منه ما تبعق ، وتكلمَ بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء ، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا^(٣) . ويقولون إنه استبقاه عنده حولاً كاملاً ليبالغ في تصفح حاله . وعاد إلى البصرة وأخذ يُقَدُّ على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان ، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش ، إذ كان النصر دائماً يرافقه .

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أغمدت استجابة لرأيه ، حتى إذا انتصر على^٤ دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته ، وأصفاه ولاءه ، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه . وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي^٥ أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه . وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبيَّ ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية . وكان معاوية وولائه وخاصة زياداً يُكبرونه إكباراً عظيماً ، ونراه يُصبح سفيراً لقومه لدى معاوية ، فهو يُقَدُّ عليه من حين إلى حين ، ويوسع له في مجالسه ، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره .

وفي هذه الحقة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة ، بعد ولاتها ، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة ، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب . وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدارى ، وأنه كان يجهر برأيه

(٣) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤ .

(١) البت : كساء صوفي غليظ .

(٢) تبعق المطر : تفجر وانسال .

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال (١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا وهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطّر عبیدالله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسلم أمورها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف في طاعته ، ويقرب مصعب ويصبح من خلائصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مكيّاً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فسرغانة بنت أوس بن حجر التميمية وقفت على قبره ، فأبنتته قائلة (٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر (٣) من مجن (٤) في جتن ، ومُدْرَج في كفّن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، وموتاً فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منبع الحریم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقربيا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبين العرب والعجم

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر في الجنى أى وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة^(١)». ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء، حتى يرونا منطقته، لقدرته على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير. ولم يكن يُطيل في هذه الخطب، بل كان يعتمد إلى الإيجاز والكلم القصار، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه، ونسوق له كلمتين تصوران منطقته، فقد وفد على معاوية مرة، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدٍّ يد العون والمساعدة^(٢) :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يَسِير وعظم كَسِير، مع تتابع من المُحَوَّل واتصال من الذُّحُول^(٣)، فالكثر فيها قد أَطْرَقَ^(٤)، والمقلِّ قد أَمْلَقَ، وبلغ منه المحتشَق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعَشَ الفقير، وَيَجْبَرَ الكسير، ويسهل العسير، ويصفح عن الذُّحُول ويداوى المحوَّل، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء، ويزيل اللأواء^(٥). وإن السيد من يعم ولا يخص ومن يدعوا الجفّة لى^(٦)، ولا يدعو النَّقَرَى^(٧)، إن أُحسن إليه شكر وإن أَسَىء إليه غفر، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات، ويكشف عنها المعضلات.

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأثيره في تصوير ما جاء من أجله، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة، فيمضونه في التوَّ والساعة. ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصّفح الجميل، يستعطفاً، ولكنه الاستعطاف الذي يُبْقَى فيه الرجل الكريم على مروءته. ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا، بل ما يزال يتمهل فيه، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورته كلمته الآتفة، وقد ألقى بها حين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه^(٨) :

- | | |
|---------------------------|------------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٦٠. | (٥) اللأواء : الشدة. |
| (٢) زهر الآداب ١/٤٦. | (٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة. |
| (٣) الذحول : الثارات. | (٧) الدعوة التقرى : الدعوة الخاصة. |
| (٤) أطرق : هزل وضعف. | (٨) البيان والتبيين ٢/١٣٥. |

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرَ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، ويدُّنا على العدو. والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرَى^(١) شتَّنا نكم، وأبى حَسَسَكُ^(٢) صدوركم في أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأسنة وحقت الدماء . وعلى هذا النحو تُثَبَّت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصْرِهِ .

٤

خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاصُ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعَّاظ والقُصَّاص في كل بلدة إسلامية لا يَسْنُون عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صفحاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة^(٣)، وكان يقابله في الكوفة زيد^(٤) بن صُوحان وفي المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر^(٥) وكان عبد الله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره . ومن القُصَّاص أيضاً إبراهيم^(٦) التميمي الكوفي وسعيد بن جبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر^(٧)، ومسلم^(٨) بن جندب قاصٌ مسجد المدينة، وذُرَّ^(٩) بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

-
- (١) استشرى : تفاقم . الشَّان : العداوة .
 (٢) حسك الصدور : الحقد .
 (٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
 (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
 (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين .
 (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
 (٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .
 (٩) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٩٨ والعقد ٣/١٩٨ .

ابن عبد الله السَّخَّيرُ وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة^(١)، ومنهم وهب^(٢) بن منبه ويزيد بن أبان الرَّقَاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه^(٣). « ليتنا لم نُخَلِّقْ، وليتنا إذ خُلِقْنَا لم نَعْصُصْ، وليتنا إذ عَصَيْنَا لم نَمُتْ، وليتنا إذ مِتْنَا لم نُبْعَثْ، وليتنا إذ بُعِثْنَا لم نحاسبْ، وليتنا إذ حوسبْنَا لم نَعَذَّبْ، وليتنا إذ عَذِّبْنَا لم نَخْلَدْ ».

فالقُصَصُصُ كانوا وعَاطَافاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد^(٤) الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء^(٥) ابن حَبِيبَةَ والأوزاعي^(٦) في الشام وسعيد^(٧) بن المسيَّب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سئل ما مالِك؟ قال: مالان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس^(٨). ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد^(٩) بن كعب القرظي وعاظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يروج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن^(١٠) شُبَيْرَةَ ومورق^(١١) العَجَلِي وبكر^(١٢) بن عبد الله المَزَنِي والشَّعْبِي^(١٣) وأيوب^(١٤) السَّخْتِيَانِي ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسان طرير^(١٥). ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك^(١٦) بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشدَّ فِطَامَ الكبير، وينشد:

وتروض عِرْسُكَ بعد ما هَرَمْتُ ومن العناء رياضةُ الهَرَمِ

- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٤٣/٢، ١٧٠. | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٢٨٩/٢. |
| (٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها ٢/٢٨١، ٣٢٨. | (١١) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨. |
| (٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢. | (١٢) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١. |
| (٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤. | (١٣) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣. |
| (٥) انظر طرناً من مواعظه في صفة الصفوة ١٨٦/٤. | (١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢. |
| (٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨. | (١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والمقد الفريد ١٧٠/٣ وطرير: محدد. |
| (٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤. | (١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ١٩٧/٣. |
| (٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩. | |
| (٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤، | |

ومنه إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضربُ به المثل في الذكاء وصدق الفِراسة^(١)، ومنهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الأهمتيان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما^(٢) » ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الوراقين^(٣) » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤثّرُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجانيق الضعفاء يعني الدعاء^(٤) » ومن قوله : « بَيْتٌ ليلي كلها أتمنى فلأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمِمران^(٥) » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه^(٦) .

ومن كبار وعَاط العصر وقُصَّاصه الحسن البصري، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصري فيها^(٧) » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القائل : « أرى داعي الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع^(٨) » . ومن كبار القُصَّاص والوعَاط الفضل بن عيسى الرقاشي، وكان يسجع في وعظه^(٩)، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً^(١٠) » وهو الذي يقول في قصصه : « سَلَ الأرض فقل من شَقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً^(١١) » . ومن أشهر الوعَاط وأنهمهم واصل^(١٢) بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

-
- | | |
|--------------------------------------|--|
| (١) البيان والتبيين ٩٨/١ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ١١٣/٢ . |
| (٢) البيان والتبيين ٣١٧/١ . | (٩) البيان والتبيين ٢٩٠/١ . |
| (٣) نفس المصدر ٣٣٩/١ - ٣٤٠ . | (١٠) البيان والتبيين ٣٠٦/١ . |
| (٤) البيان والتبيين ٢٧٤/٣ . | (١١) نفس المصدر ٣٠٨/١ . |
| (٥) نفس المصدر ١٦٤/٣ والطمر : | (١٢) انظر في ترجمة واصل المثلّي والتحل |
| (٦) عيون الأخبار ٣٤١/٢ . | لشهرستاني ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني |
| (٧) البيان والتبيين ٣٥٤/١ . | وأين خلكان ولسان الميزان ٢١٤/٦ . |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُروى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في إمارته على العراق (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشي ، وتبارى الأربعة بين يديه في الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التي جانب فيها الرأى ، إذ كان يلثغ فيها لِسَخاً فاحشاً ، ونوّه بذلك بشار بن بُرْد طويلاً ، قبل أن يفسد رأى وأصل فيه ، على شاكلة قوله ^(١) :

أَبَا حُذَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجَبَةٌ فِي خُطْبَةٍ بَدَّهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ
وقوله :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا وَجَبُّوا خُطْباً نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ
فَقَامَ مُرْتَجِلاً تَغْلَى بَدَاهَتُهُ كَمِيزِ جَلِي الْقَيْنِ لِمَا حُفَّ بِاللَّهَبِ ^(٢)
وَجَانِبَ الرِّاءِ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَ التَّصَفِّحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ
ولا نستطيع أن نزعّم كما زعم بشار أن واصلاً ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحسُّ أثر التروية والتحضير وأنه تأنّى لها في أناة حتى اتسقت في نسقها البديع ، وهي من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط ^(٣) :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي عتلا في دنوّه ، ودكّا في علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يشوّده ^(٤) حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداءً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شيء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب ^(٥) لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضع كل شيء لعظمته ، وذلّ كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يعزّب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّست أسماؤه ، وعظّمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين
الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت ٢/ ٤٨٢ .

(٢) القين : الحداد . (٤) يشوده : يشغله .

(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من (٥) لا معقّب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبهه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام ، يُعَصِّى فِيْهِ حُلُمٌ ، وَيُدْعَى فَيَسْمَعُ ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

وواضح أن واصلاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثله شيء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطل في حمده . وبقية سبب من صنيعه أخذ الكتاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضكم على ما يُدْنِيْكُمْ مِنْهُ وَيُزِيلُكُمْ لَدَيْهِ ، فإن تقوى الله أفضل زادٍ وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تُلهِيَنَّكُمْ الحياة الدنيا بزينتها ونحْدَعَهَا وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شيء فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حباثلها ، وأهلكتم من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقهم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً » .

وواصل في هذه الفقرة يردّ ما كان يَجْرَى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبرقها اُخْلَبَ وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمّاً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كلُّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلّاد ، قبضتهم بحمْلِهَا ^(١)

(١) الحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحتهم بكنسكلها^(١)، وعصتهم بأنبيائها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبساً.

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطلوا فيه مستوعبين لقصاص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم، وما صب الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جأئب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة. ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً.

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللشعة في الرأ، فخلّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يفتن لذلك لبيانه الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة. وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك «رام إسقاط الرأ من كلامه وإخراجها من حروف منطق، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأني لستره والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتسقى له ما أمّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له. ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة^(٢) الأكفء ومفاوضة الإخوان.. وذكر ذلك أبو الطروق الضبي فقال

علمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيب يغلب الحق باطله^(٣)

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأ في جميع محاوراته آية بينة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلكل: الصدر.

(٢) مناقلة: مدافعة.

(٣) البيان والتبيين ١٤/١ وما بعدها.

معاً ، وخرَجَ كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين منزلي المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول (١) :

له خلفَ شَعْبُ الصِّينِ في كلِّ ثَغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر (٢)
رجالٌ دعاةٌ لا يَفْلُ عَزِيمُهُمْ تَهْكُمُ جَبَّارٍ ولا كيدُ ماكِـرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلم التشاجر (٣)
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُمْ ولا الشَّدقُ من حَبِيٍّ هلالِ بنِ عامرٍ (٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوّه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضي فيصور براءة واصل في هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّبَ بِالْفَزَالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لليتامى والقَبِيلِ المُكَاثِرِ (٥)
وَمَنْ لِحُرُورِيٍّ وآخرَ رافضٍ وآخرَ مُرْجِيٍّ وآخرَ جائِرٍ (٦)
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكارٍ منكِرٍ وتحصين دين الله من كل كافرٍ
يُصَيِّبونَ فَصَلَ القولِ في كلِّ موطنٍ كما طبَّقَتْ في العظم مُدْيَةُ جازِرٍ
وسياهمُ معـروفةٌ في وجوههم وفي المشى حُجَّاجاً وفوق الأباغرِ
وفي ركعةٍ تَأْتِي على الليلِ كلُّه وظاهرِ قولٍ في مثالِ الضمايرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالفزال أنه كان يجلس في سوق الفزاليين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ٢٥/١ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدل في العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصري، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقي وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية^(١). واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاوره واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصري في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يَفْصِلُونَ الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبسيد من تلاميذ الحسن البصري، فجمع بينه وبين واصل ليناظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة^(٢)، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبسيد، فحاوره في رأيه، ورد عليه واصل رداً مفحماً مستخدماً بعض آي الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعَّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المتزلة بين المنزلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يُؤْتَاهَا إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها وإطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) أمالي المرتضى ١٦٥/١.

العربي «طبع دار المعارف» ص ٧٩.

لا يأتي عفواً، وإنما يأتي من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعِمت فيها الأدلة ودقَّت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائناتها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطاباتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمَّ فتحو الأبواب واسعة للأسلوب المولّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدُّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق ، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتمهل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لرى فريقاً منهم يعتمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين ^(١) ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرّت بنا ، وفي خطابة الحسن البصري وغسيلان ^(٢) الدمشقي ، وإنما ألبأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ : ولا أغلو إذا قلت منهم أعدوا لشيوخ لون الطباقي في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواضعه عين الأخبار ٢/٢٤٥ .

٣٠٦/١ وما بعدها .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يروج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقتهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يستحسب الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عبّس ما البلاغة؟ فأجاب (١):

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشك وعواقب غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونقي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب ».

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاوراة والمناظرة، ويؤثر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: « اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهديان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة » (٢) وكان شبيب بن شيبه يقول: « الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت » (٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقد ٢٦١/٢ .

الفريد ٢٦٠/٢ وزهر الآداب ٩٣/١ . (٢) البيان والتبيين ١١٢/١ .

(٣) البيان والتبيين ١١٢/١ .

مطالع كلامهم ونحواته فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناباه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصري وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطباءهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن (١) البصري

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمي يسمى يساراً من سبي ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادي القُرى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدبجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدرسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولاً الوقوف على جوانب التشريع الإسلامي . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والمقد الفريد ويعيّن الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصري لابن الجوزي والحسن البصري لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربي) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١١٤ وفيها الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمال المرتضى ١٥٢/١ والكامل المبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعا من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظر . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

ويُكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى تسوّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رؤاها الأولين ، فالجبرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قدرياً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الخبرة ما نوه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي تلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله ^(١) ، وتلتى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك ^(٢) .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر
(٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب
المصرية برقم ٥٢٢١ أدب .
آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محكك»^(١) «ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : «أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص»^(٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت»^(٣) وهو إنما يعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج»^(٤) . وكان يجمع إلى فصاحته حسناً لغوياً دقيقاً ، وما يصور ذلك ما يروى عن رجل من بني مجاشع قال : «جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وأجرك الله»^(٥) .

وتنوع بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تنوع بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواضعه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته^(٦) .

وهو في وعظه ينفر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حائثاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرممة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواضعه التي رواها له الجاحظ قوله^(٧) :

«يا بن آدم بيع دنياك بآخرتك ترجبهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الشواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٢) الخصر : البيت من قصب ، وكان في

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

الحسن زهداً وورعاً .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون

الأخبار ٢/٣٤٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

والساعة تسوقكم، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً راتحاً^(١) لم يضع لَبِنَةً على لبنة ولا قصبَةً على قصبَةٍ . . (لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة) . يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبّرك، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يا ابن آدم اذكرْ قوله : (وكلَّ إنسان أَلَمَناه طائرَه في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدلٌ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . نخذوا صفاء الدنيا وذُرُّوا كدَها ، دعوا ما يَربِّبكم إلى ما لا يَربِّبكم . لقد صحبت أقواماً^(٢) ما كانت صحبتهم إلا قِرَّةَ العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ مَنْ أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهَدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتُم ما تدافنتُم^(٣) ، تهاديتُم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأً أهْدَى إلينا مساوِيناً . أعيدُ والجواب فإنكم مسئولون . . يا ابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتَمَتِّي ، ولكنه ما وقَّعَ في القلوب وصدَّقته الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآي الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَربِّبكم إلى ما لا يَربِّبكم » ففي الحديث النبوي : « دع ما يَربِّبك إلى ما لا يَربِّبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ثم عقب عليها بقوله^(٤) :

(١) يريد أنه كان يبدو ويروح في كسب عيشه الضروري .
(٢) يريد صحابة الرسول .
(٣) يريد لو تكشف عيوب بعضكم لبعض لاستثقلت المشي في الجنائز .
(٤) أمال المرتضى ١/ ١٥٤ .

« إن قوماً غَدَّوْا في المطارف ^(١) العِثاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيِّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا مَنَ فوقعهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أهلكوا دينهم وأسمنوا براذينهم ^(٢) وسعوا دورهم وضيَّعوا قبورهم . ألم ترهم قد جدَّ دوا الثياب وأخلَّعوا الدين ، يتكئ أحدُهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بعُلوِّ بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكِظَّة ^(٣) تجشَّأ من البِشْم ^(٤) ، ثم قال يا جارية هاتِي حاطوماً ^(٥) بهضم الطعام ، يا أحييِّمُ لا والله لن تهضم لإلديك أين جارك ؟ أين يتيملك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزَّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفُس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الخنيف من رعاية الجار واليتم والمسكين . وكان يعنُفُ بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثر شوكها ، ولأنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلِّعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلِّعها الرابحة ، ومن قوله ^(٦) :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقَدَّم فضلاً ، وجَهَّوْا هذه الفضولَ حيث وجَّهها الله ، وضَعَوْها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ، ففضَّحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التي جماعها الضلالةُ وميعادها النار . أدركتُ مِن صِدْر هذه الأمة قوماً كانوا إذا أَجَنَّهُم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكالك رقابهم ^(٧) . . . يابن آدم إن كان لا يُغْنِيكَ

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من غز . (٥) الحاطوم : الحاضوم المهضم .

(٢) براذينهم : دوابهم . (٦) البيان والتبيين ١٣٥/٣ .

(٣) الكظة : الشيع . (٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا .

(٤) البشم : الامتلاء . أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنِيكَ ، وإن كان يُغْنِيكَ ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من العذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبتطلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوة ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدري أيُّ مَرٍّ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهَمَّ آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصري ، وقد كان يختار لها كُسُوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لاتزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبَّتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتَّاب إذ كان يقتدر على تصريح الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التدوين

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مرّ بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيباً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أممية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الأذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضحة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثمّ كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار^(١) ومن أشهرهم دَغْفَل^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت في كتاب له اسمه « التضايف والتناصر »^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحييه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة.^(٤)

الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .
(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ١٢١ ، ٢٤٧ ، ٤
٢ / ٨٠ ، ٢٥٣ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١ / ٣١٨ وما بعدها

(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميداني ٢ / ٢٧٣ والإصابة ، وفي

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعَنِّي بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثر هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١) . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَسَبُ ويدون ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذي الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إليّ من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^(٢) ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسينا بإعداد ألواح ودواة ليُحْمَلِ عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لسامعيه بالميربد قيّدوا قيّدوا أي اكتبوا^(٤) ، وفي الأغاني أن خالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق^(٥) . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعَنِّي بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تنسك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »^(٦) .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيبت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٥) أغاني (سأسي) ١١/١٩ - ١٢ .

(٣) نفائض جرير والفرزدق (طبعة بيثن)

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ص ٤٣٠ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»^(١). ولا يتحمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. وقد أخذت تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون، وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر، وإلا ما وصلت إلى الطبري. وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادى في كتابه «تقييد العلم». ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويعننى بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه، ويتتابع التدوين فيه. وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية، فإلهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع^(٢). ويذكر جولدتسيهر أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤). ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لا اعتقادهم في أئمتهم أنهم المادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى علي وأفضيته؛ ويظهر أن أول من ألّف فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج^(٥)، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦).

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عُنوا

-
- | | |
|---|--|
| (١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب | وصفة الصفوة ٤٧/٢ والمعارف لابن قتيبة |
| الإتقان للسيوطي. | ص ١١٤ |
| (٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية | (٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف |
| لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام | الإسلامية. |
| الموقمين لابن قيم الجوزية. | (٥) الفهرست ص ٣٠٧. |
| (٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب | (٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة وهب^(٢) ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤. وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفيض الفهرست لابن النديم في بيان أسماؤها، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦. وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠. ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة، وتمثلت هذه العناية في معاوية، إذ استقدم عبّيد^(٣) بن شريعة الجرهمي اليمني ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتابه «أخبار الأمم الماضية» وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤). وقد طُبِعَ له في «حيدرآباد» كتاب باسم «أخبار عبيد بن شريعة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأسائها» وهو يدور في أسلوب حوارى، إذ يسأل معاوية ويحيب عبيد، ويستهلُّ بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تُسَبَّحُ إلى زمان مملكة طسم وجديس، وتتخلله أشعار كثيرة. ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى «المبتدأ في الأمم الخالية» ذكره المقدسى^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦). وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَبُ إليه باسم «قصص الأنبياء». ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

(٣) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعمرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء. ٧٢/١٢.

(٤) مروج الذهب (طبعة أوروبا) ٨٩/٤.
(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥.
(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨.
(٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦..

(١) انظر في ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥ وابن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستفيلد) ص ١٢٥.

(٢) انظر ترجمته في كتاب المعارف ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٧/١ وشنرات ابن العباد ١٥٠/١٥٠.

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذي الكفيل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زِيَاد بن أَبِيهِ لكتاب في المثالب ^(١) وَوَضَعُ ابن مَفْرَغُ الشاعر قصة تَبَعُ وأشعاره ^(٢) وتأليف كل من علاقة الكلاني ^(٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحار ^(٤) العَبْدِي كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب ^(٥) في الوصايا والحكم للمستورد بن عُلْفَةَ الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبّه لكتاب في القدر ^(٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(٧) المرجيء رسائل في ألقي ورقة ^(٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(٩) نؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة ^(١٠) . ومربنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمِلَ عنه ^(١١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(١٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(١٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبري وغيره أن يرووها وكذلك قُلُ في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة ^(١٤) وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- | | |
|--|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عيون الأخبار ٢/ ٣٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأى) ٥٢/ ١٧ . | (١٠) البيان والتبيين ١/ ١٥ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٣٩٨/ ٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ١٩/ ٢٥٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مضت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ . | |

الخطباء النابيين وعظّاء وغير وعظّاء ، من مثل الحسن البصري وواصل ومثل خالد بن صفوان^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : « لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين »^(٢) ومرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة »^(٣) . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن في الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية^(٥) . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتتحدث عما خُصّص العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر .

- | | |
|--|--|
| (١) انظر في خالد المارث ص ٢٠٦ | (٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطى ص ١٠٥ . |
| والبيان والتبيين في مواضع متفرقة (راجع الفهرست) وابن خلكان ومعجم الأدباء ٢٤/١٢ | (٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص ٦٩ . |
| والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ . | (٦) انظر «صفحات عن إيران» لصديق نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ . | |
| (٣) الفهرست ص ٤٩٧ . | |

وَحَقًّا هُنَاكَ كُتِبَ تَزَيَّدَتْ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَنَقَصْدُ كُتُبِ الشَّيْعَةِ مِنْ مِثْلِ شَرْحِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ عَلَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ الْإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ الْمُنَسُوبِ إِلَى ابْنِ قَتِيْبَةٍ . وَلَكِنْ إِذَا نَحَيْتُنَا هَذَيْنِ الْكُتَابَيْنِ وَأَضْرَابَهُمَا وَاعْتَمَدْنَا عَلَى الْكُتُبِ الْوَثِيقَةِ مِنْ مِثْلِ الطَّبْرِيِّ وَالْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ وَالْكَامِلِ لِلْمَبْرِدِ اسْتَقْبَلْتُنَا وَخَاصَّةً فِي الطَّبْرِيِّ سَيُولُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ كُتِبَتْهَا عَلَى مَرَّةٍ الْعَصْرُ وَأَحْدَاثُهُ فَرَقَ الْخَوَارِجَ وَالشَّيْعَةَ وَالزُّبَيْرِيْنَ وَمَنْ ثَارُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ أَمْثَالُ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، كَمَا كُتِبَتْهَا خَلْفَاءُ بَنِي أُمِيَّةٍ وَوَلَاتَهُمْ وَقَوَادِهِمْ .

وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَعْرِضَ كُلَّ مَا رُوِيَ لِلْخَوَارِجِ مِنْ رِسَالَةٍ ، لَكَثَرَتِهَا ، وَمِنْ ثَمَّ سَنَكْتَفِي بِالْحَدِيثِ عَنْ أَهَمِّ رِسَالَتِهِمْ ، وَمَعْرُوفٍ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَدَّى كَمَا مَرَّ بَنَا إِلَى تَفَرُّقِهِمْ أَرْبَعَ فِرَقٍ ، هِيَ الْأَزَارِقَةُ وَالنَّجْدِيَّةُ وَالصُّفْمُورِيَّةُ وَالْإِبَاضِيَّةُ ، وَقَدْ مَضَى الْأَوَّلُونَ بِقِيَادَةِ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ يَحْمِرُونَ الْقُعُودَ عَنْ الْخُرُوجِ وَيَسْتَحَايُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلَ أَطْفَالِهِمْ ، وَخَالَفْتُهُمْ فِي ذَلِكَ الْفِرَقِ الْآخَرَى . وَيَسُوقُ الْمَبْرِدُ فِي تَصْوِيرِ هَذَا الْخِلَافِ رِسَالَتَيْنِ ^(١) مُتَبَادِلَتَيْنِ بَيْنَ نَجْدِيَّةِ بْنِ عَامِرِ الْحَنْظَلِيِّ زَعِيمِ النَّجْدَاتِ وَنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ ، فَتَجِدُهُ يَرَاجِعُهُ فِي مَقَالَتِهِ ، وَنَافِعٌ يَحْتِجُ لَهَا . وَالرِّسَالَتَانِ وَثِيقَتَانِ طَرِيفَتَانِ فِي بَيَانِ مَقَالَتِي النَّجْدَاتِ وَالْأَزَارِقَةِ . وَمَرَّ بِنَا كَيْفَ قَادَ الْأَزَارِقَةُ مَعَ قَوَادِ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ حَرْبًا عَنِيفَةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَتْلِ قَائِدِهِمْ نَافِعٍ فِي وَقْعَةِ دَوْلَابٍ ، فَقَدْ ظَلَمُوا بِحَارِبُونَ قَائِدَهُ الْمُهَلَّبَ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَتِ الْعِرَاقَ فِي طَاعَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَضَوْا فِي ثَوْرَتِهِمْ ، وَظَلَّتِ الْجَيْوشُ تَوَجُّهًا إِلَيْهِمْ ، يُوَجِّهُهَا وَلَاةَ الْعِرَاقِ وَخَاصَّةً الْحِجَاجَ ، وَكَانَ زَعِيمُهُمْ لِعَهْدِهِ قَطْرِيَّ ابْنُ الْفُجَّاءَةِ ، وَنَرَى الْحِجَاجَ يَرِاسِلُهُ مَهْدَدًا مُتَوَعِّدًا ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ قَطْرِيٌّ بِنَفْسِ الصُّورَةِ مِنَ التَّهْدِيدِ وَالتَّوَعُّدِ ، وَنَحْنُ نَسُوقُ رِسَالَتَيْنِ ^(٢) لِهَمَا تَصَوُّرًا كَيْفَ كَانَ يَتَرَاوَلُ الْوَلَاةَ مَعَ الثَّائِرِينَ مِنْ خَوَارِجٍ وَغَيْرِ خَوَارِجٍ ، أَمَا رِسَالَةُ الْحِجَاجِ فَتَجْرَى عَلَى هَذَا النَّمطِ .

«سَلَامٌ عَلَيْكَ . أَمَا بَعْدَ فِإِنَّكَ مَرَّرْتَ مِنَ الدِّينِ مَرَّوْقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ تَجَرَّرْتُمْ ، ^(٣) ذَاكَ أَنَّكَ عَاصٍ لِلَّهِ وَلَوْلَاةُ أَمْرِهِ . غَيْرَ أَنَّكَ أَعْرَابِيٌّ

(١) الْمَبْرِدُ ص ٦١١ وَمَا بَعْدَهَا .

(٢) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٣١٠/٢ وَانْظُرِ الْمَبْرِدَ

ص ٢١٤ .

(٣) تَجَرَّرْتُ الشَّيْءَ : أَخَذْتُ مَعْظَمَهُ .

جِلْفٌ^(١) أُمِّي^(٢) تَسْتَطْعِمُ^(٣) الْكَيْسِرَةَ وَتَسْتَشْفِي^(٤) بِالْقَمَرَةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً، خَرَجْتَ لِنَالِ شُبْنَعَةٍ^(٥)، فَلَحَقَ بِكَ طَغَامٌ^(٦) صَلَوًا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعِيشِ فَهُمْ يَهْزُونَ الرِّمَاحَ وَيَسْتَنْشِثُونَ^(٧) الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بَيْنَ زَحَتَيْنِ^(٨). وَالسَّلَامُ».

وَأَجَابَهُ قَطْرِي :

«سَلَامٌ عَلَى الْهُدَاةِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَرْعَوْنَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيَرْهَبُونَ نِقَمَهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ، وَأُظْلِمَ بِهِ أَهْلَ السُّفَالِ^(٩) وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ وَنَصَرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَاكَ بِحَقِّهِ. كَتَبْتُ إِلَى تَذَكُّرِ أَنِّي أَعْرَانِي جِلْفٌ أُمِّي أَسْتَطْعِمُ الْكَيْسِرَةَ، وَأَسْتَشْفِي بِالْقَمَرَةِ، وَلَعَمْرِي يَا ابْنَ أُمَّ الْحِجَااجُ^(١٠) لِنَاكَ لِمَتَيْتِهِ^(١١) فِي جِبِلَّتِكَ^(١٢)، مُطْلَحِي^(١٣) فِي طَرِيقَتِكَ، وَاهٍ فِي وَثِيقَتِكَ^(١٤)، لَا تَعْرِفُ اللَّهُ وَلَا تَجْزَعُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَسْتِ وَأَسْتِيَأْسُ مِنْ رَبِّكَ، فَالشَّيْطَانُ قَرِينُكَ، لَا تَجَاذِبْهُ وَتَأَقَّكَ، وَلَا تَنَازَعْ خِثَاقَكَ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَبْرَزَ لِي صَفْحَتَكَ، وَأَوْضَحَ لِي صَلَافَتَكَ^(١٥)، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرِي بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ مِقَارَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ^(١٦) الْمَقَالِ، مَعَ أَنِّي أَرْجُو أَنْ يَدَّ حَضْرَةَ اللَّهِ حُجَّتَكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهَنْجَتَكَ».

وَوَاضِحٌ أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يَرْمِي صَاحِبَهُ بِالضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، وَقَدْ عُنِيَ جَمِيعًا بِالتَّائِقِ فِي أَسْلُوبِهِمَا. وَمِنْ ثَمَّ زَيْنَا كِلَا مِنْهُمَا بِالسَّجْعِ. وَإِذَا تَرَكْنَا الْأَزَارِقَةَ إِلَى الصُّفْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَبِيهَا بِرَاسِلِ صَالِحِ بْنِ مَسْرُوحٍ حَاضِرًا عَلَى الْخُرُوجِ^(١٧). وَلَمْ تَحْتَفِظِ الْمَصَادِرُ بِرِسَالَتِ اللَّجْدَاتِ وَالْإِبَاضِيَّةِ.

- | | |
|---|---|
| (١) جِلْفٌ : جَافٌ . | (٨) أَظْلَمَ : مِنَ الظَّلْمِ وَهُوَ الْعَرَجُ . السُّفَالُ : سَفُولُ الْخَلْقِ . |
| (٢) تَسْتَطْعِمُ النَّاسَ : تَسْأَلُهُمْ أَنْ يَطْعَمُوكَ . | (٩) يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا أَرَادُوا الظُّلْمَ فِي النَّسَبِ . |
| (٣) تَسْتَشْفِي : تَطْلُبُ الشِّفَاءَ . | (١٠) مَتِيهِ : مُضِلُّ . الْجِبِلَّةُ : السَّجِيَّةُ . |
| (٤) الشُّبْنَعَةُ : مَا يَشْبَعُ مِنَ الطَّعَامِ . | (١١) مُطْلَحِي : مُتَعَجِّفٌ . |
| (٥) طَغَامُ النَّاسِ : أَرْزَالُهُمْ . | (١٢) الْوَثِيقَةُ : الثَّقَةُ . |
| (٦) يَسْتَنْشِثُونَ الرِّيحَ : يَتَسَمَّوْنَهَا ، كُنَايَةً عَنْ جَوْعِهِمْ . | (١٣) كُنَايَةٌ عَنْ ذَلَّتِهِ وَانْكَشَافِ أَمْرِهِ . |
| (٧) يَشِيرُ الْحِجَااجُ إِلَى هَزِيمَتَيْنِ هَزَمَهُمَا الْأَزَارِقَةُ أَمَامَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ . | (١٤) تَصْدِيرُ الْمَقَالِ : تَسْطِيرُهُ وَتَجْوِيدُهُ . |
| | (١٥) طَبَرِي ٥/٥٢ . |

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات ^(١) تحضُّ على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين. ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوَّابين ، ويصور زعيمهم سليمان بن صُرَد في مكاتبتة لبعض أصحابه ندَمهم على خيذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالتَّار من قاتليه ^(٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهديداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول ^(٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيله ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر ^(٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر ^(٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر ^(٦) ، وإني لأملك ما خُطَّ في القدر ، وقد بلغني أنكم تسموني كذاباً ، وإن كُذِّبْتُ فقد كُذِّبْتُ رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتية ^(٧) .

وأثرت عن ابن الزبير وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار ^(٨) الثقفي . ونرى ولاته يكاتبون من يوجهونهم إلى الخوارج ^(٩) . وملتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريظة المشهور بسجعه .

(١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها .

(٢) طبرى ٤٢٩/٤ .

(٣) طبرى ٥٣٩/٤ .

(٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه .

(٥) وكان المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكل بتميم وغيرها .

(٦) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه .

(٧) طبرى ٥٤١/٤ .

(٨) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها .

(٩) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه .

(١٠) وكان المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكل بتميم وغيرها .

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأعزّر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهد إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١) ، سنّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهد إلى من يولّونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولائهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولائهم وقوادهم من مراسلات يَطْنَح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولائهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثّر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآتفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعْنَى بتعبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتعبير خطبه . ونراه يكثّر من مراسلة المهلب وحشّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثّر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسالته مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك -- وهو لا يزال ولياً للعهد -- من رسالة له : « إنما

والكتاب للجهشياري ص ٣١ .

(١) طبرى ٣٠٧/٥ .

(٢) طبرى ١٢٠/٤ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .

(٤) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها .

(٥) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها .

(٦) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها .

(٧) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها .

(٨) طبرى ١٤٠/٥ ، ١٤٦ .

(٩) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء

أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك^(١) . وكان الخلاف دبّ بينهما ، ومن ثمّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنّعة عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأنّق ما استطاع في تعبيره ، ومن خير ما يصوّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خصباً بعد جدّ ب ومطرّاً بعد قحط ، وهي تجري على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فلما نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا إلا ما بسلّ وجه الأرض من الطّشّ والرّشّ والرّذاذ^(٣) ، حتى دقّعت^(٤) الأرض واقشعرت^(٥) واغبرت^(٦) وثارت في نواحيها أعاصير تذرّو^(٧) دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاّحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨) وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٍ تغيّرها ، وشيكٌ تنكّرها ، سيّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(٩) يوم الجمعة ، فأثارت زبرجاً متقطّعا متمصّراً^(١٠) ، ثم أعقبته الشمال^(١١) يوم السبت ، فطَحَطَحَتْ^(١٢) عنه جهامه^(١٣) ، وألّفت متقطّعه ، وجمعت متمصّره ، حتى انتصد فاستوى ، وطأ وطأ^(١٤) ، وكان^(١٥) جيّوناً^(١٦) مرثعنّاً^(١٧) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر :

المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وقرت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طأ : امتلأ وزخر ، وطأ : انبسط

وملأ الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجيون : الضارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٩٩ .

(٣) الطش والرّش والرّذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : خلّت من النبات .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تذرّو : تسقى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهي الأرض

الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

مُنْسَجِل^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شُبوب أردفته شَائِب^(٣) لشدة وقعه في العراض^(٤) . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترى بمثل قِطْعِ القُطْنِ ، قد ملأَ اليَتَاب^(٥) . وسدَّ الشَّعَاب^(٦) ، وسقَى منها كلُّ ساقٍ . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَه ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يَحْتالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التلميح ، وسنرى عما قليل طبقةً من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة أسهلها بقوله^(٨) .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِيَومَ كل مائلة وقَصْدَ^(٩) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصْفَةَ^(١٠) كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على لبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعى ، ويدودها عن مَرَاتِعِ الهلكة ، ويحميها من السَّبَاع ، ويكفيها من أذى الحرِّ والقرِّ^(١١) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدنِّخ لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،

(٦) الشعاب : المسالك والسبل .

(٧) قنطوا : يشنوا .

(٨) العقد الفريد ٣٤ / ١ .

(٩) قصد : هداية .

(١٠) نصفة : من الإنصاف .

(١١) القر : البرد ، مثلث القاف .

(١) منسجل : منصب .

(٢) يردف : يتبع .

(٣) الشائب : جمع شُبوب وهو الدفعة

من المطر .

(٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .

(٥) اليتاب : الموضع الخالي لا نبات فيه .

وتسكن بسكونه، تُرْضِعُهُ تَارَةً وَتَفْطِمُهُ أُخْرَى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته .
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح .
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرّ بنا وصفه ،
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدمنا - في هذا
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غيّلان الدمشقي ، ويُروى أنه كتب
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة ، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خيراً بالياً ، ورَسَماً عافياً ، فإميتُ
بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع ، طغى أمر السنة ،
وظهرت البدعة ، أُخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطى الجاهل فيسأل .
وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢) ، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة
البيانية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاء الكتّاب في عصرهما كانوا
يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلّى
بالبطاق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينتهي به إلى الازدواج ،
حتى يؤثر في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت
يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنة ، أو شفاعاة عند وال لقريب أو صديق ،
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها ،
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية
قليلة ، فمن ذلك رسالة عقّال بن شعبة إلى خالد القسري في شفاعاة تجرى على
هذه الصورة (٤) :

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢ .

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

« إن الله انتجبك ^(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً ^(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية. وأعان خطرك بقدرة مقسومة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار ^(٣) لك، وليس كلهم أداله ^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية ^(٥) قرابتي، وذوى الهيئة من أسرق، عرف معروفك، وأحببت أن تُلبسَه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلاً في الغيب ^(٦) ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيدة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى، والفقہ الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضي له حاجته. ومن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لسيناً بليغاً، يعرف كيف يحول الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول ^(٧) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبيرة، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وأياسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام ».

(١) انتجبك : اختارك .

(٥) دنية : لاصق .

(٢) خطراً : قدراً .

(٦) الغب : العاقبة .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٧) البيان والتبيين ٨٤ / ٢

(٤) أداله : نصره وأعانه .

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف ينتخير ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعاني الطريفة ، التي تروع بما فيها من منطلق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى لافى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحقّقون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحبير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحسّ حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال القبيّ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانى الخراج والجند ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكتسب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُسّنى كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومى^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي^(١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر^(٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهمشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسان والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تنابت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكل جيل سابق يُسلم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعة جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يسلّفوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعينهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه^(٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد^(٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهمشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبري ٢٠٨/٥ .

(١) الجهمشيارى ص ٣٨

(٢) الجهمشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٣٨٧/١ والطبري

كتاب الولاة . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقته وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارى^(١) . ولم يؤثّر عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو^(٢) :

« أما بعد فإن استدراج النعم إياك أفادك البغى ، ورائحة القدرة أورتك الغفلة . زجرت عما وقعت مثله ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز . وعمّا قليل تبين من أسير الغفلة ، وصريع الخدع ، والرحيم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرك أقوم به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الدباجة . وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد^(٣) الله بن أوس الغسّاني ، وروى له الجهمشيار رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العدة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو^(٤) :

« أما بعد فإن المدحوس مسبب يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميت إلى منصب كما قال الأول :

رُفِعَتْ فجاورت السحابَ وفوقه فما لك إلا مَرَقَبَ الشمس مرقبٌ
وقد ابتلى بحسين زمانك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكِبَتْ
به من بين العمّال ، فلما تُعْتَقُ أوتعود عبداً ، كما يُعْبَدُ العبيد ، والسلام » .
والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطل فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو^(٥) بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ٣١٥/١ وراجع

(٣) الجهمشيار ص ٢٤ ، ٣١ .

(٤) الجهمشيار ص ٣١ .

(٥) طبري ٢٨٥/٤ .

(٢) البيان والتبيين ٨٧/٤ .

فهرسه .

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه ، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .
ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رَوْح بن
زنباع الجُدَامِي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي ^(١) الكتّابة ، وليس بين
أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد
غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له ^(٢) :
« لَا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمِئَتَهُ ^(٣) ، وَلَا تَسْوَنِّ بِي صَدِيقًا أَنْتَ سَرَرْتَهُ ،
وَلَا تَهْدِمَنَّ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، هَلَا أَتَى حَلْمُكَ وَإِحْسَانُكَ عَلَى جَهْلِي وَإِسَاعَتِي ؟ » .
فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتَّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الحُشَنِيّ كاتب
رسائله الذي حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصّ المصادر القديمة
على ما كتب به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة
والبيان ، وفي الجَهْشِيَارِي أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك
قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد
والى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله ^(٤) : « لِمَ بَعَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ؟ فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : أَفَتَدْرِي مَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أَسَامَةَ ؟
قَالَ : لَا . قَالَ : مَثَلُكَ وَمَثَلُهُ مِثْلُ حَيَّةٍ كَانَتْ فِي مَاءٍ وَطِينٍ وَبَرْدٍ ، فَإِنْ رَفَعْتَ
رَأْسَهَا وَقَعَ عَلَيْهَا حَافِرٌ دَابَّةٌ ، وَإِنْ بَقِيَتْ مَاتَتْ بَرْدًا ، فَرَّ بِهَا رَجُلٌ ، فَقَالَتْ :
أَدْخُلْنِي فِي كَمِّكَ حَتَّى أَدْفَأَ ثُمَّ أَخْرِجْ ، فَأَدْخَلَهَا ، فَلَمَّا دَفَنْتَ قَالَ لَهَا :
اخْرُجِي ، فَقَالَتْ : إِنِّي مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْمَدْخَلِ قَطْ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَنْقُرَ
نَقْرَةً ، إِمَّا أَنْ تَسْلِمَ مِنْهَا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ ، وَوَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلَ أَسَامَةُ لَيَسْقُرَنَّكَ
نَقْرَةً إِمَّا أَنْ تَسْلِمَ مَعَهَا وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ » .

والكلمة تدل دلالة بيّنة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن
في نقله الدواوين ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقرن بعذوبة المنطق
وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضّحه كلمته .

(٣) وقته : قهره وأذله .

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

(٢) البيان والتبيين ٣٥٨/١ والجهشيارى

ص ٣٥ والأمالى ٢٠٥٩/٢ .

وإذا وَلَّيْنَا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيرية كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجماً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريرته » وَيُنْفِذ ابن القرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة ^(١) . ولا تهمنا الرسائل بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كتابه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تفتقر بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « بادغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب ^(٢) :

« إنا لقينا العدو ، فنحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقنا طائفة بعرائر ^(٣) الأودية وأهضام ^(٤) الغيطان ، وبتنا بعرة ^(٥) الجبل وبات العدو بحضيضه ^(٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدَّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجَّعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدَّمنا في غير هذا الموضع . وفعلنا راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي ^(٧) .

(١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن)

ص ٣٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ٣٧٧/١ والمبرد

ص ١٥٨ والطبري ١٨٧/٥ .

(٣) عرائر الأودية : أسافلها .

(٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان :

جميع غائط وهو المستوى من الأرض .

(٥) عرة الجبل : أعلاه .

(٦) الحضيض : القرار من الأرض عند

منقطع الجبل .

(٧) البيان والتبيين ٣٧٨/١ .

وعلى هذا النحو كان كَتَّابُ الولاية والقواد في الشرق يجبرون رسائلهم ، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكَتَّاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي تنقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كَتَّابُ العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قُحْدُم بن أبي سُليم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم » (١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطوامير والقراطيس (٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويجلل (٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كتبى والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض (٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لئرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد في القراطيس ، طالباً من الكَتَّاب أن يوجزوا (٥) ، وكأنا أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهى مدرسة رقى فيها التراث الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيته ، هو صهره ونحسنته عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول (٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة (٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

(٤) الجهمشيارى ص ٤٧ .

(١) الجهمشيارى ص ٣٩ .

(٥) الجهمشيارى ص ٥٣ .

(٢) الطوامير والقراطيس : الصحف

(٦) الفهرست ص ١٨٢ .

الكبيرة .

(٧) الفهرست ص ١٧١ .

(٣) يجلل : يعظم .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له (١).

فالخليفة لم يعد يُمنلى كتبه على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثمّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزع أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطبع بطوابع أسلوبية واحدة ، إذ تجرى في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله (٢) .

« حلت هضبة أصبحت تنحو (٣) بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يد هذه (٤) بك قلة شكرك متحطماً وقيداً (٥) ، فهلا - يا بن مجرشة (٦) قومك - أعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضته (٧) مقبلا عليه ببشرِك إكراماً لأمر المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يترينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنع قدّمه إليه ، وهي على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم الرجاء فيما بقى لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٢) طبرى ٦٨/٥ وبا بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدهده : يسقط .

(٥) وقيداً : صريماً .

(٦) المجرشة : الماشطة .

(٧) فاوضته : حدثه .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ٤٣١/٢ .

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .

وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتحها بقوله ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب ^(٢) الصنيعة قبلك واستقام معروفه عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتلك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرت ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيرة ^(٣) ، وانكشطت ^(٤) عنه عمالة الغنى والسلطان ، ذل منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . »

وأطنب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يعاونه ويغضره . ويمضى يعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس في أعماله ، وكيف ضيع أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفرة نهر المبارك ، وكيف يبتز أموال رعاياه باسم هدايا النيروز والمهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهرأ بها العصبية الجنية متحاملاً على المضرة . وهو في ثنايا ذلك يتهده برواجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غيئه فقبيل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملاً . وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(٣) الغير : حوادث الدهر .

(٤) انكشطت : انكشفت .

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) رب الصنيعة : إتمامها وتنميتها .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ،
والذى ثبتته سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه
عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسي الأصل . ويقول أكثر من ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن الرقة . وكان فى أول أمره ينتقل فى القرى معلماً فى كتابتها ، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرج كاتباً لا يبارى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذته كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبرى من رسائل مروان فى ولايته إلى هشام ومن تكله من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هزم مروان فى موقعة الزاب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتل معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فتر بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

(الجلّى) ص ٦٩ وصبح الأعشى ٨٥/١ ،
١٩٥/١٠ واليومية للتعالي (طبعة الصاوى)
١٣٧/٣ والجزء الثانى من جمهرة رسائل
العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث
الشعر والنثر لطف حسين ص ٤٠ وما بعدها .
(٢) أنظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول
إنه من أهل الشام .

(١) أنظر فى عبد الحميد الوزراء والكتاب
للجهشيارى ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ .
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان
والتبيين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون
الأنخبار ٢٦/١ والصناعتين للمسكرى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم ^(١)

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سباه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونَصَحَ الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم ^(٢) ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسّل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كمّاً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته المتزوعة الرائ . ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلتها إلى العربية ^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنتهي إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب ^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نقصرُها إلى ما استهلّ به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزرائهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تعدّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

. ٢٩/٣

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

(٢) الجهشيارى ص ٧٣ وصيغ الأعراس

(٣) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

. ٨٥/١

(٤) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

وضبط شؤونها في الحراج وغير الحراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلوم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثيقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حليمة كتيبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قيوم كتاب الحراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بجلى العلم والأدب ، ويصرح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شؤون الحراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حضّم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفة في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور^(١) وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعاؤه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع في كتابيه

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ٢/ ٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير ^(١) .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقى الساسانى فى الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسى فى رسالته الطويلة التى كتبها على لسان مروان إلى ابنه ^(٢) وولى عهده عبد الله حين أمّره بمحاربة الضحّاك بن قيس الشيبانى الخارجى الصّـئـرى ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولاً غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القّـطـع الكبير . وهو يستلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له فى محاربة الضحّاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا فى الأرض مستحلّين دماء المسلمين ، وأنه رأى أن يكتب إليه بعهد يؤدى به حقّ الله الواجب عليه فى إرشاده . ويمضى العهد بعد ذلك موزّعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش فى سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثانى سياسته فى لقاء العدو وما ينبغى أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُنْفِض فى بيان الخصال التى ينبغى أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التى ينبغى أن تتصف بها طلائعه . وفى الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش فى الحرب ، ويقول إنه ينبغى أن لا يسير إلا فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يتقسّمه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغى أن يتحلّى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنازل والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله فى غُدُوّه ورواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر » (٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

العربى « ص ١٣٩ وما بعدها .

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها في كتبهم ، هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكّامهم وماوكهم ، وقد شفّعها بتعاليم الإسلام الزّكيّة واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهي صياغة لا تكاد تفرق في شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرّوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفرق عنهم في شىء ، فهو يزواج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشّرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدام الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهي شائعة في الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهي تتضح في رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغى أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيَّله من صفات ، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حَجَر وغيره من الجاهليين فيها نثراً . ومن هذا الباب رسالته ^(١) التي وصف بها الصيد ، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش ، وما وقعوا عليه من بعض الغُدران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار ، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين .

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد ، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد . وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة ، فلم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تُسَنَد بالقول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة : أجنبية وعربية . وأخذت تَزُج الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، إذ نرى عبد الحميد يُجْرى قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد . ودائماً تروعا براعته البيانية ، ولا نستطيع أن نقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة ، غير أنه ينبغي أن لا نغضي دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة ^(٢) التي كتبَ بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه ، وهو منهزم مع مروان :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درت ^(٣) له بحلاوتها ، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعَضَّتْه بأنيابها ، وتوطأت به بثقلها ، قَلَّاهَا ^(٤) نافرأ عنها ، وذمَّهَا ساخطاً عليها ، وشكاها مستريداً منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درَّهَا فأفويق ^(٥) استحللناها ، ثم شَمَسَتْ ^(٦) منا نافرة ، وأعرضتْ عنا متنكرة ، ورَحَّتْنَا ^(٧) موليةً ، فلأح عذبا ، وأمرَّ

(٥) الأنافيق : ما يتجمع في الفرج من اللبن .

(٦) شمس : من شمس الفرس إذا جمع .

(٧) رحتنا : من رحه الفرس إذا ركله .

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/ ٥٤٤ .

(٢) الجهشيارى ص ٧٢ .

(٣) درت : من الدر وهو اللبن .

(٤) قلَّاهَا : كردها وأبغضها .

حلوها، وخشّشَ لَيْتَهَا، ففَرَّقْتَنَا عَنِ الْوَطَانِ، وَقَطَّعْتَنَا عَنِ الْإِخْوَانِ، فدارُنَا نازحةً^(١)،
وطيرنا بارحةً^(٢)، قد أخذت كلَّ ما أعطت، وتباعدت مثلما تقرّبت، وأعقبت
بالراحة نصباً^(٣)، وبالجدل^(٤) هما، وبالأمن خوفاً، وبالعزّ ذُلّاً، وبالجدّة^(٥) بنا
حاجة، وبالسَّراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا تَسْرَحِمَ من استرحمها، سالكةً بنا
سبيلَ مَنْ لا أوبةَ له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء.

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميّز بها في أسلوبه
ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها توعّر ولا غريب وحشى، وإنما فيها
العدوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يُعْنَى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به
إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
موسيقية تثبّتُها في الذهن وتجعلها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من
طباقات وتصويرات تُضَفِّي على أسلوبه روعة بيانية خلاقة، بل إننا لا ندقق في
القول حين نزع أنه بضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
وكانها سدهاء ولُحْمَتُهُ. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
الأموي على كل ما كان يُستَظَر لها من رقي وإبداع فني.

(٣) الجدل : السرور .

(٤) الجدّة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى

اليسار ، والعرب القدماء كانوا يتشامون بها .

(٢) نصباً : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا فى مدى تأثيرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسّاً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مسّاً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحُطَيْثَةُ ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع فى الهجاء فحسبهُ التهمك والسخرية . وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواعظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصَفَ الكون في طرفيه من النشأة والدثور ورَسَمَ الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التى تحقق للناس السعادة فى الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تَجَمَّع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخاطبون فى الجيوش الفاتحة محمسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة فى معاملة الأمم المغلوبة . وسار فى نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبى طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة فى صفوفه وفى الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة فى الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسَحَ طاقةَ النثر العربى فى صدر الإسلام ، ومدَّ أطنابها مدّاً واسعاً . وجَدَّتْ بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذِّكْرِ الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كَتَّابٌ مختلفون ذكروهم الجهمياري وغيره . وتَحَدَّثَ الفتوح ، وتكثُر الرِسَالُ بين الخلفاء وقوَّادهم وولاتهم ، كما تكثُر المعاهدات ، وفى أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثانى الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر فى هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع فى نمو الغزل بهما وذيوه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادي الحجاز يعيشون فى شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذرى العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفجر والهجماء . وكانت الكوفة مستقراً للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطُبع شعرها فى جمهوره

بطابع شيعي حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثُر الشعر الذي ينطق عنها في البيهتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفي الكوفة ، ومضت أسراب تتغنى بالزهد أو بالهجون ، وأسراب أخرى تتغنى بنظرية الحوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أُنشد فيها وقد عليها إما مع مُدّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التي هاجرت إلى الشمال وإما مع بني أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثر في الشعر الأموي مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالي ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالي لكُنُات مختلفة وانتشر الالحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبسية والمرجثة والقدرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالي ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنما مُجيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكثُر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يَغْدُون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نَصِيبَ والقطامي وكعب بن مَعْدَانِ الأشقرى وزياد الأعجم . وسعرت العصبية القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عَبدل وثابت قُطْنَة . ومما لا ريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النفاضة النابهن : الأخطل والفرزدق وجريز ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمدح كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء في صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية في الخلافة تدافع عنها وتذود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة في حكمه إلى قریش لا إلى كَلْبٍ وغيرها من القبائل اليمنية التي يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُّقَيَّات أهم من صدر في شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقریش وحدها ، وأنه ينبغي أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين في أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة في الاستشهاد وزهداً قوياً في الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حِطَّان والطَّرمَاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌ شرعى لأبناء علي اغتصبه منهم الأمويون وينبغي أن يرُدَّ عليهم ، وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فضوا ببيكونهم بدموع غزار ، مُحَفِّظِينَ النَّاسَ عَلَى أَنْ يثَارُوا لَهُمْ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ وَيَذِيقُوهُمْ حَسَنَتَهُمْ ، كما مضوا يصوِّرون عقيدتهم فيهم وما يكتنُّون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثيرٌ والكُمَيْت . وكان كثير من أشرف العرب وخاصة في الكوفة مَغِيظِينَ مُحَنِّقِينَ عَلَى الْأُمَوِيِّينَ لِحُلْهِمِ الْخِلَافَةَ وَرَاثِيَةً فِيهِمْ مِنْ دُونِ الْعَرَبِ جَمِيعاً ، وعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ ابْنُ الْأَشْعَثِ فِي ثَوْرَتِهِ وَشَاعِرِهِ أَعَشَى هَمْدَانِ فِي شِعْرِهِ وَاصْطَفَى مَعَ الْأُمَوِيِّينَ شُعْرَاءَ كَثِيرِينَ يَدْعُونَ لَهُمْ وَيَنَاضِلُونَ ضِدَّ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْخُصُومِ ، عَلَى شَاكِلَةِ مَا نَرَى عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ الْأَسَدِي الْكُوفِيِّ وَعَدَى بْنِ الرَّقَّاعِ الدَّمَشْقِيِّ .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها في اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص وعمر بن أبي ربيعة ، وأصحاب الغزل الخفيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بثينة ، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرمة . ومن ذلك الرجز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تنسج لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استماله القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعزّنونَ بتجدير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأخنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثرُوا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتّوه تثبيتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حلّتي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

ونمت التدوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات فى المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفى مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة فى الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الدينى الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعانى وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرواق والطلاوة ، ومضى يبدئ رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم فى الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم فى طبقات الجاهليين العشر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والخطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنايعة الجعدي وأبى ذؤيب الهذلى والشماخ ، وكلهم عاشوا فى العصرين الجاهلى والإسلامى . ونخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا فى الجاهلية . ثم مضى فى الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثى وشعراء القُرى ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما فى الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والخطيئة ، كما ترجمنا لاثنتين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنايعة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحدوراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعدُّون فى الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثّر به الإسلام في أشعارهم. ولم نُغفل من سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن من سَماهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين من ذكرهم وعُصينا بآخريين لم يجرؤوا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمّ اهتمّ بجمهورهم صاحبُ الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصلاً طويلة ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكَمَة . وكثرة من سَماهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من نسجد ، وكأنه إنما عنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشهدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بينة ، فقد سلك الراعى في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقل ، ويدن عن طبقتهم درجات. وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لآخره عن طبقتهم ووضع فيها بدلامنه ذا الرُمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُمة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعث والقطامي وكثيراً ، والبعث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وثيل وأوس بن مخرم ، ونهشل بن حرى وحُمَيْد بن ثور الهلالي والأشهب بن رُميلة وعمر بن بلحأ التيمى ، وأبو زُبَيْد الطائي والمُعْجِيز وعبد الله بن همام السلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونُصيباً ، وهم أعلى من طبقهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقرن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزباداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عَقِيل بن عُلْفَة وشيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجّاز هم : الأغلب العجلى وأبو النجم والعجاج ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العقيلي ويزيد بن الطثريّة وأبي دؤاد الرؤاسي والقُحَيْف العقيلي ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يُغنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثمَّ عُنِيَ بشعراء نجد والبادي ، ولم يكد يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يُفَضَّلونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العرجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطَّان والطَّريِّمَّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بكُشَيْر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء المحبون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمتُ لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم نائراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ — ٥	مقدمة
١٣٥ — ٩	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
٢٤ — ١١	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٤١ — ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوى
٦٧ — ٤٢	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٦٢	(٤) شعر الفتوح

صفحة

٦٨ - ١٠٥	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام . . .
٧٧	(٢) حسان بن ثابت
٨٣	(٣) كعب بن زهير
٨٩	(٤) لبيد
٩٥	(٥) الخطيئة
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي
١٠٦ - ١٣٥	الفصل الخامس : النثر وتطوره
١٠٦	(١) تطور الخطابة
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين
١٢٩	(٤) الكتابة
١٣٧ - ٤٧٩	الكتاب الثاني في عصر بني أمية
١٣٩ - ١٦٨	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي
١٣٩	(١) المدينة ومكة
١٤٨	(٢) نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة
١٦١	(٤) خراسان
١٦٥	(٥) الشام
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى
١٦٩ - ٢١٤	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء
١٦٩	(١) الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرّبها وأثر ذلك في اللغة

صفحة	
١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . .
١٨٢	(٣) السياسة
١٩٣	(٤) الحضارة
١٩٩	(٥) الثقافة
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من الموالى . . .
٢٨٩ — ٢١٥	الفصل الثالث : شعراء المديح والهجاء . . .
	(١) شعراء المديح : نصيب ، القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم . . .
	(٢) شعراء الهجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٤	ثابت قطنه
٢٤١	(٣) شعراء النقائض
٢٥٨	(٤) الأخطل
٢٦٥	(٥) الفرزدق
٢٧٦	(٦) جرير
٣٤٦ — ٢٩٠	الفصل الرابع : شعراء السياسة
٢٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . .
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح . . .
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان . . .
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عدى
٣٣٦	بن الرقاع
٤٠٤ — ٣٤٧	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العرجى

صفحة

(٢)	شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل	
٣٥٩	ابن معمر	
٣٦٩	(٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى	
٣٧٦	(٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد : أبوالهندي	
٣٨٥	(٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة	
٣٩٤	(٦) الرجاز : أبو النجم العجلي ، العجاج : رؤبة	
٤٠٥ — ٤٥٠	الفصل السادس : الخطابة والخطباء	
٤٠٥	(١) ازدهار الخطابة	
٤١٠	(٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه	
٤٢٨	(٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس	
٤٣٥	(٤) خطباء الوعظ والقصص : الحسن البصرى	
٤٥١ — ٤٧٩	الفصل السابع : الكتابة والكتاب	
٤٥١	(١) التدوين	
٤٥٦	(٢) كثرة الرسائل المدونة	
٤٦٥	(٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب	
٤٨٠ — ٤٨٧	خاتمة	
٤٨٠	(١) خلاصة	
٤٨٥	(٢) تعليق	

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة
- عصر الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٨ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٨ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣١٢ صفحة
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة

- في الدراسات القرآنية
- الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
- الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة
- معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي
- العصر الجاهلي
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٨٠ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

● فى الشعر والفكاهة فى مصر
الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

فى الدراسات النقدية

● فى النقد الأدبى
الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

● فى الأدب والنقد
الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة

● المدارس النحوية
الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا
مع نهج تجديده

● تيسيرات لغوية
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون
الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة
الطبعة السابعة ١٠٦ صفحات

● النقد
الطبعة الخامسة ١٣٦ صفحة

● الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى فى اختصار المغازى والسير
لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

السيرة النبوية

● محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

فى سلسلة اقرأ

● الفكاهة فى مصر
الطبعة الثانية

● معنى (١)
الطبعة الثانية

● معنى (٢)
الطبعة الأولى

● القسم فى القرآن الكريم
الطبعة الأولى

● مع العقاد

الطبعة الخامسة

● البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية

نم الحارة الرفع بواسطه

مكتبه عسكر

ask2pdf.blogspot.com